مونترلان

رَأفَة بالنسَاء



النصّ كاملاً

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رأفة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204 121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 R R.C. Paris

الطبعة الأولى ١٩٨٧

مونترلان

رأفة بالنساء

ترجمة وتعليق
جورج مصروعة

عويدات

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة عنوانها «الصبايا» . ويجب ان ُتقرأ هذه السلسلة حسب التدريج التالي :

١ — الصبايا

٢ — رافة بالنساء

٣ — شيطان الخير

٤ — المجذومات

تنبيـــه

يذكّر المؤلف قرّاءه بما اشار اليه في مقدمـة الحلقـة الاولى : « الصبايا » ، من انـه اراد عمداً ان يكون بطله « كوستال » شخصيـة مريبة تبعث القلق في النفس ، وكريهة تثير الاشمئزاز ، وليس من الانصاف ان تُعزى آراء هذه الشخصية واعمالها الى المؤلف الذي خلقها .

جعـل المؤلـف من المـلازم الاول « اوليفيي » بطـلَ روايـة « وردة الرمال » ، فكـان هذا البطل متحلياً بارفع المزايا الخلقيـة : الوطنية ، الاحسان ، كره العنف ، التفاني في سبيل العدالة ، التألم حيال الظلم (حتى انه كان يمرض من شدة الألم) ، رهافة الشعور ، التمسك بالفضيلـة حتى المبالغة ، روح التضامن الانساني ، الرغبة في خدمـة الناس حتى الامعان في ارهاق النفس ، الخ ...

وقد مثّل هذا البطل ، في كتاب يزيد على ثمانمائة صفحة ، دوراً لا يقل اهميةً عن دور كوستال في هذه السلسلة . وفي رواية « وردة الرمال » تفاصيل تدعو الى الظن ان مؤلفها يروي قصـة حياته تحت ستار بطـل روايته كما هي الحال بالنسبة الى كوستال ، أفيجوز للقراء ان يعزوا الى المؤلف فضائـل « اوليفيي » لدى اطلاعهم على « وردة الرمـال » ، ثم مثالب كوستال حين يقرأون هذا الكتاب ؟

خلق الله الرجل ليكون سعيداً .

لا وجود للخطيئة .

ترقد البهيمة في مقاصبنا كما ترقد في مقاصب التتر ؛ انها تختار وجرها حيث يكون مقامها ؛ وتأخذ ما يرسله الله اليها .

تولستوي

في كتابه « القوزاق »

(ورد هذا القول على لسان فلاح من قبيلة « تشيلشين » التي كانت في حالة حرب مع التتر .)

كانت في بلدة ن ... ، عام ١٩١٨ ، فتاة في الثانية عشرة من العمر ، أطلق عليها ذووها لقب : « الصغيرة الحادئة » . لم تكن لها صديقـات ، فكانت تلعب وحدها في البيت وهي صامتة طوال ساعات متوالية . وكانت تجلس الى المائدة فلا تفوه بكلمة في اثناء تناول الطعام . قيل فيها انها « صبي » لانها كانت تقوم بنزهات طويـلة وحدهـا ، جريا على القدمين ، او على درّاجة هوائية ، ولا تبدي اقل رغبة في ما تحبه الفتيات اللواتي في مثل سنها ، ناهيك بانها كانت شجاعة ، تجلس وحدها في زورق ، او في الظلام ، او في بيت منفرد ، دون ان يساورها اقل خوف . ولكنها كانت شديدة الخجل ، فاذا نسيت الخادمة ان تقدم لها لوناً من الطعام على المائدة ، لزمت الصمت ، وامتنعت عن المطالبة ، وصبرت على جوعها .

وكانت في المدرسة تلميذة لا بأس بها ، اي انها كانت متأخرة صفـاً واحداً بالنسبة لسنها . وبين الثانية عشرة والرابعة عشرة من سنيها حاول ذووها تعليمها العزف على البيانو ، فما افلحوا . ومن الرابعـة عشرة الى السادسة عشرة بذلوا جهوداً كبيرة لتلقينها العزف على الكـمان ، فباءت جهودهم بالاخفاق . وبعـد اربع سنوات من العنـاء المتواصل ومن بذل الوف الفرنكات ، ادركوا ان ابنة السكوت هذه لم تخلق لتحدث ضجيجاً . ثم اضطروا الى الاستغناء عن الراديو لأنه يضايقها حتى الاثارة . واخيراً ، اراد ابوها ان يعلمها الرسم ، وكان من الهواة الموهوبين في هذا الفن ، ولكنه اضطر الى القاء سلاحه والاعتراف بالهزيمة بعد محاولات عديدة .

والحق يقال انه لم يكن فيها ميـل الى شيء ، او رغبة في شيء .

فبدأ القلق يساور اباها السيد دنديّو . ولكي يساعد ابنته على « تكوين شخصيتها » تكويناً مرموقاً ، راح يفرض عليها كتابة رسائل تارةً الى احد اعمامها ، وطوراً الى عرّابها ، مشترطاً عليها ان تكون رسائلها « مبتكرة الاسلوب » ، فكانت تكتب مسخّرةً والدم يغلي في صدرها ويصبغ وجنتيها بلون الارجوان .

كان السيد دنديّو يطالب ابنته برسائل مبتكرة ، وكان نموذجاً « مبتكراً » بين الرجال . كان ابوه مدّعياً عاماً ، فدرس هو الحقوق عملاً بتقاليد العيلة . ولكنه ترك المحاماة بعد أن مارسها سنةً واحدة ، وترك معها كل متاعب الاهتمام بكسب المال ، مع ان ثروته لم تكن تتجاوز امكانات الرجل الميسور . وما إن عُرفت ألعاب القوى في فرنسا ، عام ١٨٨٧ ، حتى انصرف اليها انصرافاً كاد يكون كلياً ، وكان في الحادية والعشرين من العمر ، وأنشأ في ن ... نادياً رياضياً . وكانت السباحة ، بنوع خاص ، تثير حميّته حتى اصبح رسولها المبشّر بفوائدها .

ولما بلغ سن النضج ، ولم يكن يفتقر الى شيء من الذكاء والثقافة ، هجر الرياضة بمفهومها الدارج ، وانصرف الى التربية البدنية . واستقال من رئاسة ناديه التي غدت في نظره ضرباً من الهرطقة ، ونذر نفسه روحاً وجسداً لـ « الطريقة الطبيعية » في الرياضة البدنية التي ظهرت آنذاك في فرنسا . وقد نشرت مجلة الـ « إلّوستراسيون » ، عام ١٩١٠ ، صورة أُخذت في « معهد الابطال الرياضيين » بمدينة « ريلس » ، ظهر فيها السيد دنديّو في ثياب راعٍ يوناني ، مزدان الوجه بشاربين جميلين حسب الزي الرائج في ذلك الزمان .

قاطع الحياة الاجتماعية الدارجة مقاطعةً رسمية ، وباع حتى طقمه الـ « فراك » : رمز الدنس البابلي [1] ، ولم يعد يهتم إلا بالهواء الطلق ،

---

١ ـ اشارة الى ما جاء في التوراة على ألسنة بعض الانبياء من اتهام مدينة بابل بالبذخ والفسوق والانغماس في الملذات الدنيا .

والشمس ، وتقنين غذائه ، وقياسات جسمه ، ووزنه ، فغرق في الجداول والارقام الدالّة على ما يجب ان يعمله الانسان ، وما لا يجوز له عمله ليظل « طبيعياً » . ولا نغالي اذا سمينا هذه الجهود : الاشغال الشاقة المؤدية الى الحياة « الطبيعية » . ولكن دنديّو لم يكن طبيعياً في سعيه وراء الطبيعة ، فراح يتوسل اليها بالحيلة ، وبالاساليب المضحكة التي تشوش حياة كل رجل متّزن ، سليم الحواس ، حتى ولو استطاعت التنسيق بين النزعة الطبيعية والحياة الاجتماعية المعقولة ، وهذا ما يتعذر تحقيقه عملياً .

وأمعن دنديّو في التزام « الطهارة » . ولما بلغ الخمسين من سنيّه استلهم « تولستوي »[1] ووضع لنفسه مبادىء واضحة ، منها : ان الرجل لا يصبح طبيعياً إلا اذا كان طاهر الجسد وأحب اخاه الانسان . وبهذا المبدإ تكرّس البغض القديم الذي كان دنديّو يضمره لابيه – وكان بغضاً بنوياً بسيطاً – لأن المدعي العام كان قد تسبب في اعدام بعض المجرمين . إلا ان هذا التظاهر بالطيبة كان مبطناً برواسب كثيفة من الدهاء ، والنفاق ، والعناد ، والسذاجة ، كأن نفس دنديّو مبقعة كجلد الفهد ، فيها بقع من الذكاء الساطع ، وبقع سوداء من السخافة والغباء . وعلى الرغم من كونه رب عيلة ، كان يعيش عيشة اعزب متبتّل ، ويحمل كل ما في العزوبة من صفات ونزوات . وكان اخيراً من ابعد الناس عن الابتكار والخلق ، حتى انه لم يستطع ان ينجز طوال حياته – وكان قد بلغ الستين – كتيباً في « الحياة الطبيعية » فكر به قبل الحرب العالمية الاولى ، وهو كناية عن تكديس معلومات منقولة من هنا وهناك عن افواه اساتذة الرياضة .

نكتفي الآن بهذا القدر في وصف السيد دنديو ، لانه سيصف نفسه

---

١ – كاتب روسي كبير ، ولد عام ١٨٢٨ ، وتوفي سنة ١٩١٠ . من اشهر مؤلفاته : « الحرب والسلم » ، و « آنا كارينين » ، و « البعث » . عقل خلاّق ، وخيال واسع . اشتهر بحب الطبيعة ، ووصفها وصفاً حبيباً الى القلوب .

في الفصول الآتية من هذا الكتاب .

سنة ١٩٢٣ ، توفي شقيق سولانج البكر في جزيرة مدغشقر حيث انشأ مشروعاً زراعياً ، فاستقرت اسرة دنديثو في باريس ، وأرسلت سولانج الى معهد خاص بتلقين الفنون المنزلية .

وأصبحت سولانج مكتملة الانوثة لما بلغت خمس عشرة سنة وثلاثة اشهر من العمر ، بعد ان اجتازت مرحلة المراهقة دون اقل اضطراب جنسي . لم يساورها شيء من الشعور بالدنس الجسدي ، ولا من الكآبة والاستياء ، والتهرب ، والنظرات الخفية القلقة الموجهة الى ابيها وامها ، ولا من الرغبة في الابتعاد عنهما حين يكونان معاً ... ولم تحلف مرة واحدة بالابتعاد عن الحب و الى الابد ، كما تفعل الفتيات الطاهرات ، المرهفات الاحساس عندما يبلغن هذه السن . ولما استوضحت امها عن كيفية انجاب الاولاد ، طرحت سؤالها للتسلية دون اقل فضول او رغبة في المعرفة . فالمسألة لم تكن تهمها قط .

كان شعرها ، في ما مضى ، ذهبي اللون ، فاصبح اليوم اسود ، وتغضنت عيناها قليلاً ، واتخذت لوناً مائلاً الى الزرقة ، يبدو من وراء اهدابها كما يبدو لون البحر المتوسط من وراء غابة الصنوبر . وتألق جمالها حتى صارت تسمع كل يوم تقريباً كلمات الاعجاب يوجهها اليها الرجال الذين تمر بهم او تلتقيهم على رصيف الشارع . ففي مدينة طولون ، التقاها يوماً اثنان من العمال ، فدار بينهما الحوار التالي :

انظر !

.. ماذا ؟

.. ألا ترى ما اروع هذا الجمال ؟

وكثيراً ما كان العمال الجنوبيون يتوقفون عن العمل ، واحداً بعد الآخر ، لينظروا اليها ، حين كانت تمر بهم على التوالي . وكان تأثير جمالها كبيراً في الجنوب ، لانها بسيطة طبيعية ، والباريسيون لا يحبون

إلا النساء المبالغات في التصنع ، والتبرّج ، ومظاهر الاغواء .

ولكن سولانج لم تكن مغرورة ، ولا متغطرسة . فكانت لا تجلس في الكنيسة إلا في الصف الاخير ، ولا تقف ، في الحفلات العيلية ، إلا في المؤخرة . وكثيراً ما كانت تخرج في الصباح الباكر متدثرة بثوب قديم خالٍ من الظرف والاناقة . لم تشترِ في حياتها مجلة ازياء نسائية ؛ واذا وقعت صدفة بين يديها احدى هذه المجلات طالعتها متظاهرة بالاهتمام ، لا لأنها لا تحب ان تعجب الناس ، بل لانها تعتبر هذه المسألة غير جديرة ببذل اقل الجهد . اما اذا شاءت ان تتبرج فكانت تكتفي بتنسيق حاجبيها باصبع مباولة ، وبتلميع شفتيها بلسانها . وكان هذا ، بنظرها ، منتهى الاتقان في ابراز محاسنها . لم تكن تذهب قط الى مزيني الرأس ، ولا تتحلى بالمجوهرات ، ولا تتطيب بالعطور ، ولا تحمّر شفتيها ووجنتيها . إلا انها كانت تستعمل البودرة ، ولا تحسن استعمالها . ولم يكن تصرفها هذا تصنعاً ناجماً عن العجرفة ، او عن العناد المقصود ، لانها كانت احياناً تتزين بحليها ، وترسم بالحمرة فماً مستعاراً على شفتيها ، وتمضي نصف نهارها في تقليم أظفارها وتلوينها ، وفي تدليك يديها . وبعد الفراغ من هذه العملية كانت تغسل الدهان عن أظفارها وتشوّه يديها بتقليب الصناديق القديمة والاخشاب المكدسة في عليّة بيتها للحصول على اشياء مهملة تخطر في بالها ، فتبادر الى البحث عنها . وكانت ترتدي دائماً ثوباً ازرق ، ولا ترضى بغير هذا اللون ، فيثني الجميع على سلامة ذوقها . ولكنها احبت يوماً اللون الخمري واصرّت عليه بعناد .

وكانت مدرسة ن ... شديدة النظام ، فسدس طالبات الصف الاول فقط كن يتعاطين الغرام الكامل مع عشاقهن . ولم تكن هناك عادات سرية فردية . فبلغت سولانج الحادية والعشرين من العمر دون ان تعلم ما هي هذه العادات . اما العلاقات بين الفتيات فكانت قليلة ، لا تتجاوز اثنتين او ثلاثاً ، وقد جاءت صاحباتها – بدون استثناء – من المدارس التي

تتولى ادارتها راهبات .

ولما بلغت سولانج الخامسة عشرة من العمر، سمحت مرة لاحدى اترابها بان تعانقها وتقبلها بحرارة، فسمعت هذه الفتاة تهمس في اذنها : « اوه ! هذه العملية بين الفتيات لا تخلو من المتعة ! » وكانت هذه الكلمات على جانب كبير من السذاجة . ولكن سولانج فهمت مغزاها، فدفعت صديقتها عنها . إلا انها اصبحت بيت اسرار جميع رفيقاتها، فكانت تخفف احتدامهن ببرودها وهدوء اعصابها، وتستمع الى اعترافاتهن دون ان تقول كلمة عن نفسها . والحق يقال انه لم يكن لديها ما تقوله .

اما الرجال فلم تكن تعيرهم اقل اهتمام . فاذا ضايقها منهم ثرثار بمجاملاته التافهة وغزله السخيف، صرفته عنها بدون مراعاة، واحياناً بكلمة جارحة . وكانت تحب الرقص، ولكنها لم تكن تعتبر الرجال الذين يراقصونها إلا أدوات بين يديها تساعدها على اغتنام فترة من المرح، وسواء عندها أرقصت وحدها ام راقصها رجل، فالمهم في نظرها ان ترقص تلبية لرغبة في نفسها . وكانت تدوّن في دفتر زهري الغلاف اسماء المبال التي تدعوها الى الحفلات الراقصة، ولا تهتم باسماء الراقصين من الرجال، حتى في رقصة الـ « كوتيّون » [1]، بل كانت تكتفي دائماً بتدوين اسماء الفتيات والشبان الذين تتعرّف اليهم في الحفلات دون اقل تفريق . ولما طرح عليها مرشد اعترافها في باريس سؤالاً لم يعجبها (لان كهنة الارياف كانوا دائماً متحفظين مهذبين) انقطعت عن الاعتراف بخطاياها، فاصبحت عقيدتها الدينية كعقيدة القسم الاكبر من الكثوليكيين تقتصر على حضور القداس يوم الاحد .

لم تكن مؤمنة، ولم تجعل من الديانة نبراساً لتصرفاتها، ومع ذلك كانت تتضايق اذا فاتها حضور القداس يوم الاحد، فتعوّض عن تقاعسها

---

١ ـ رقصة ترافقها العاب يشترك فيها الرجال والنساء، وقد راجت رواجاً كبيراً في اوائل القرن العشرين، وكانت من وسائل التسلية في حفلات الطبقات الميسورة .

بزيارة احدى الكنائس . وأكسبها امتناعهـا عن الاعتراف قوة جديدة ساعدتها على الاحتفاظ لنفسها بما في حياتها الداخلية ، وعلى التفكير بمـا تعمل . وبدلاً من ان تلقي همها في حجرة الاعتراف كأنها تطرحه في هوة سوداء عميقة القرار ، جعلت تكبح جماحـه وتطويه في نفسها . وبذلك اصبحت ألمع ذكاءً وارهف وجداناً . واغرب ما في الأمر انها ادركت هذه الحقيقة .

كان ابوها وامها يحبانها حباً كله عطف وحنان ولا يخلو من الذكاء . اما هي فكانت تحبهما على طريقتها الخاصة ، وقد عانيا بعض التعب ، في بادىء الامر ، ليألفا هذه الطريقة . لم يلقيا منها اقل اندفاع اليهما ، ولم يسمعا منها كلمة لطيفة ، ولم يرياها تقوم بعمل واحد يدل على العناية بهما ، ناهيك بانها كانت تبدي استياءها من العناية التي يحيطانها بهـا . وكانت تقول بلا مواربة : « لا تعجبني العناية ولا تفرحني » . واذا مدّت امها اليها يدها لتداعب شعرها ، غضّنت جفونها وقطّبت حاجبيها . وغـدا قولهـا : « لا » في مختلف المناسبات ، شهيراً كسكوتها . فكانت تستيقظ ليلاً وهي تصيح : « لا ! لا ! لا ! » لتتخلص من احلامها . ولمـا كانت طفلة ، كانت تصرخ : « لا ! » ، اذا رأت احداً ينظر اليها بشيء من الامعان دون ان يفوه بكلمة . واذا أقبلت على الشارع الذي تقيم فيه جدتها ، بدأت بالصياح قبل الوصول الى البيت ، لان العجوز كانت تداعبها مداعبة غير لائقة .

ولم يكن مستطاعاً ادخالهـا الى المدرسة الداخلية ، لان هذه التجربة اثبتت انها تذبل وتفقد حيويتها في البعد عن اهلها . ومع ذلك ، كانت تلزم الهدوء ، فلا تطالب ، ولا تشكو . واذا جاءت امهـا الى المدرسة لتزورها ، جلست الى جانبها بدون ان تفوه بكلمة . تلك كانت طريقتها في التعبير عن محبتها . وقد اطلق عليها ابوها اسم : « الآنسة سكوت » او « سكوت » باختصار . وسألتها امها مرةً : « لماذا كنت تلزمين الصمت

عندما ازورك في المدرسة ، فلا تقولين لي كلمة لطيفة ؟ » فاجابت : « لم اكن افكـّر بهذا الامر » .

وذات يوم عذّب اخوها هرة بحضورها ، فقبض على عنق الهرة ، وظل يضغط عليـه حتى تلاشت ونفقت . وكانت سولانج تنظر اليـه بعينين جاحظتين من شدة الاستياء ، ولكنها لم تقم باقل محاولة لانقاذ الهرة . ولما قالت لها امها : « انك تحبين هرتنا المسكينة ، فلماذا لم تصرخي ليأتي احد منا عندما كان اخوك يقتلها ؟ » فاجابت : « لم يخطر هذا الامر في بالي » . وهذه هي الحقيقة ، فالامر « لم يخطر في بالها » . ولكن متى اعتاد المرء برودتها ، فانه لا يعود يجد فيهـا ما يدعو الى الشكوى . وكانت امها تقول : « انها باردة ، ولكنها ناعمة ، عذبة ، ولم اجد قط في تربيتها اقل صعوبة » .

لا يمكن اتهامها بانها لم تكن تحب اهلها ، لانها كانت تحبهم حباً عميقـاً صادقاً . ولكن الخجل كان يستولي عليها ويجعلها في ما يشبه الوجوم الى جانب الذين تحبهم ، ولا تنطلق وتمرح إلا مع الذين لا تبالي بهم .

ولـما كان ابوها يعاقبهـا ، كانت تقف على حدة مرتطمة ، متجهمة ، تتحرّق شوقاً لتركض اليـه ، وتعانقه ، ولكنها كانت اعجز من ان تساير سجيتها ومن ان تلبي رغبتها .

وظلت بالفعل « الصغيرة الهادئة » حتى جاء يوم صفعها فيه اخوهـا ، فحلت بها نوبة عصبية حقيقية . وكانت يومئذٍ في الرابعة عشرة من العمر . ولكنها لم تذرف دمعة واحدة بالرغم من تلك النوبة .

قال لها الطبيب :

— لو بكيتِ لأسعفك البكاء ، ولوجدتِ فيه بعض الراحة .

فاجابت : لا استطيع البكاء !

— لا تستطيعين البكاء حين ينظر الناس اليك ، ام انك لا تستطيعين البكاء مطلقاً ؟

ـ لا استطيع البكاء مطلقاً .

ولما أجري لها فحص عـام ، بعد ان بلغت اعصابهـا هذا الحد من التوتر بدون ان ينتبه اليها احد ، تبين ان دقات قلبهـا غير منتظمة من حيث عددها وقوتها .

وبعد ثلاث سنوات ، اراد الطبيب تصوير قلبهـا على الاشعة ، فما كاد يطفىء الكهرباء في المختبر حتى اصابتها نوبة عصبية جديدة . فتغيرت نظرة اهلها اليها ، ولم يعودوا يقولون انها « صغيرة هادئة » ، بل اطلقوا عليها اسم : « العصبية المكبوتة » . وكانت هذه التسمية موفقة ، لان كل ما كان يصدر عنها ، كان يصل مخفّف الحدة ، كصوت مخنوق تحت طبقة من الفلّين او القطن .

يصر النـاس على الاعتقـاد ان الطباع تظـل على حالها ، وتسير في الحياة كأنها كتلة متماسكة الاجزاء ، وثيقـة العرى ، مع ان التجـارب تعطيهم كل يوم غير برهان عن خطأ هذا الاعتقاد. اجل ، لا وجود لوحدة الطباع وديمومتها على حالها إلا في المخلوقات الاصطناعيـة . وكل مـا هو طبيعي يقوم على متناقضات تمتلج في صميمه . وكان أبرز ما في الآنسة دنديو انها طبيعية .

ودهش ذووها ، يوماً ، اذ طلب يدها كهل مقنّع بمظاهر الشبـاب ، فبدت راضية مسرورة ، وقد كانوا يتوقعون ان تصرفه بدون مراعـاة . ولكنها ما لبثت ان صرفته بعد ان قابلته مرتين . ثم رفضت بعده اثنين ، لانها لم تكن تريد الزواج إلا برجـل يعجبهـا . كانت هذه حقيقـة في نفسهـا اكتشفتهـا وحدهـا ! ومن سوء حظ الذين طلبوا يدهـا انهم لم يعجبوها . ولم يشأ ذووها اكراهها على الزواج . وحسناً فعلوا . انما كان عليهم ان يبرزوها في الحياة الاجتماعيـة ، ولكنهم لم يكونوا يحبون هذه الحياة ، ولم تكن هي تخرج من نطاقها الضيق إلا في ما ندر . وهكذا قام الأب ، والام ، والبنت ، ينتظرون ان يهبط العريس عليهم من السماء .

وعلى الرغم من ان الفتاة رفضت بصراحة وعنف ثلاثة رجال ارادوا الاقتران بها ، فان نظرة ابويها اليها لم تتغير ، فبقيت في اعتبارهما « خالية من الارادة » . وأخوها ايضاً لم يكن « واقعياً عملياً » في نظر ابويه ، على الرغم من الثروة الضخمة التي كان يجنيها في مدغشقر ... فقد كان ، قبل سفره ، لا يعرف كيف يصلح الكهرباء عندما يحترق فيها « رصاص الأمان » . واذاً ، فهو « غير واقعي وغير عملي » . ولم يكن ثمة شيء في العالم يغير هذه النظرة التي ينظرها ابواه اليه .

وكانت الآنسة دندو تبرهن احياناً عن قوة ارادتها ، ثم تبدو في احيان اخرى مستسلمة لمشيئة القدر . ومن المؤسف ان الناس كانوا يتناسون « احيان القوة » . ولكثرة ما سمعت سولانج انها ضعيفة الارادة ، صارت تعتقد انها بالفعل ضعيفة الارادة . واذا كانت لا تعبّر عن قوة ارادتها إلا نادراً ، فلأنها لم تكن تشتهي إلّا اشياء قليلة وفي فترات متباعدة .

وفي هذا الجو ، كانت قد بلغت الحادية والعشرين من العمر لما تسللت الى هذه الرواية .

وكانت « سيدة بيت » متكاملة الصفات ، دائمة الاهتمام بالنظافة وترتيب الاثاث . اذا جاء المنجّد لاصلاح الفرش اكرهته على العمل بنشاط واتقان ؛ واذا جاء عامل الكهرباء لاصلاح الاسلاك جعلته يبذل كل ما لديه من الخبرة ليكون عمله متقناً ؛ ناهيك بسلامة ذوقها في انتقاء الطعام الشهي الخفيف . وبقدر ما كانت مقتصدة في النفقات المنزلية ، كانت مبذرة في نفقاتها الخاصة . لم تكن تحصل من ابويها إلا على القليل من النقود ، فتنفقها بلا حساب على حماقات لا تكسبها شيئاً من السرور . وكثيراً ما كان يتفق لها ان تجد نفسها في الطرف الآخر من باريس ، وليس في جيبها درهم لتعود به الى البيت . وكثيراً ما كانت تتصرف كالاطفال: تتشاجر مع اخيها ، تتسلّق الاشجار ، تنزل على السلم قافزة فوق

الدرجات . لم تكن تحب الكلاب لانها كثيرة الحركات تبالغ في التودّد ، ولا العصافير لانها تحدث بتغريدهـا ضجيجاً . إلا انها كانت تحب القطط — وفي طبعها ما يشبه طباع القطط ، وتحب خصوصاً الاسمـاك الحية في الحوض المنزلي ، لانها سكيتـة ، باردة ، مثلها ، تقوم في اثناء دورانها بحركات عصبية كأنها تعاني نوبة . وكانت هذه الاسماك تتجدد من حين الى آخر ، وكل ثمانية ايام تقريباً ، لان سولانج كانت تنسى ان تطعمها ، فتعوم رافعة بطونها الخاوية الى السماء .

ولم تكن الآنسة دنديو تقرأ إلّا قليلاً . فمكتبتها تتألف من حوالى اربعين كتاباً ، وليس بينها سوى ثلاث روايات احتوتهـا صدفـة . امـا الشعر فلا مجـال للتحدث عنه ، لأن سولانج كانت تمقتـه بقـدر مـا تمقت الموسيقى . وعلى الرغم من صغر مكتبتها لم تقرأ كل ما فيها من الكتب ، ولكنها فتحت صفحات بعضها تمهيداً لتصفحها ، وغلفتها تغليفاً انيقاً بورق شفّاف . وكانت تحضر حفلة راقصة واحدة في الشهر. إلا انها لم تكن ترتدي ثيابها الفاخرة إلا بجهد جهيد كأنها تقوم بسخرة مزعجة ، فتتردّد حتى اللحظة الاخيرة وهي تفكر بالاعتذار عن تلبية الدعوة الموجهة اليها لحضور الحفلة . واذا تغلبت على نفسها وذهبت الى الحفلة فانهـا تمرح وتلهو بسرور ، فلا تفوتها رقصة ، ولا تغادر المكان إلا بعد ان يغادره جميع المدعوين ، مما كان يضايق امها الى أقصى حد . وفي الايام الخالية من الحفلات ، كانت تنام في الساعة التاسعة والنصف . وكان الناس يتهمونهـا بالعجرفة ، لانها تسير دائماً عالية الرأس . والواقع ان شعرها الملفوف في مؤخرة رأسها كان ثقيلاً فيضطرها الى رفع ذقنها قليلاً والقاء رأسها الى وراء .

ما كاد اخوها يبلغ الخامسة عشرة من العمر حتى تخلى عن كل مـا يذكره بايام الطفولة والفتوة واللعب والطيش ، وراح يفكر بمستقبله . اما هي فلم تعر هـذا المستقبل اقل اهتمام ، ولم تفكر بـه قط ، بل كانت تنتظره وهي متجهة الى الماضي . وكانت تحتفظ بدفاترها المدرسية وبما نالت

من الجوائز ايام الدراسة ، وبالكتب التي كانت تقرأها وهي طفلة ، وبجميع ما كان لديها من الدمى والألعاب ، فملأت بها غرفتها كأنها تريد الاحتفاظ بطفولتها كاملة . ولكن اباها رأى غرفتها تضيق بهذه الاشياء القديمة ، فنقل منها بعض الارانب الصوفية [1] ، وبعض تماثيل يسوع المسيح والقديسين الى العلية . ولا ريب في ان هذه الناحية من حياة سولانج كانت تدعو الى الارتياح والسرور ، لأن المرأة دون طابع الطفولة وما فيه من رونق وصفاء ، تصبح مسخاً لا يطاق . ومما يثير العجب ان سولانج لم تكن تجيد التحدث الى الاطفال كما تجيده الفتيات في مثل سنها ، ولا تجد في معاشرة الاولاد سوى الضجر والضنك ، على الرغم من بقائها روحاً وفكراً في جو الطفولة . وفي عزلتها العاطفية ، كانت تجد الهدوء ، والراحة ، ونوعاً من السعادة . وكانت تعلم ان هذه الحال لن تدوم ، لانها لم تكن تطبّق في حياتها مبادىء معينة ، فكانت برودتها عفوية خالية من التفكير . إلا انها لم تكن تشتهي تبدّل هذه الحال ، ولا تتصوّر كيف يكون التبدل المنتظر . وكانت تقول : « لا يجوز لي ان انظّم حياتي لان التنظيم نذير شؤم » . وشعورها الوحيد لدى تفكيرها بالمستقبل كان الخوف ، الخوف من ان لا تكون سعيدة كما هي سعيدة الآن . وكانت « تخشى ان تُمنى بالخيبة » على حد تعبيرها الباقي فيها من رواسب الطفولة .

هكذا كانت الآنسة دنديو تعيش عيشة هادئة ، باردة ، حاولنا الاقتداء بها في حديثنا عنها لنظل في جوها ومناخها .

وقد فاتنا ان نذكر ان الآنسة دنديو كانت تعرف كيف تُسابق

---

[1] ـ لما اخذ السيد دنديو الارنب المفضّل لدى سولانج قال لها : « انك تحبين هذا الارنب ، ولكنك لا تخاطبينه مطلقاً ! » فاجابت : « اني اخاطبه في اعماق نفسي » . ـ المؤلف .

الدولة وهي في السادسة عشرة من العمر ، فتكون قد سبقت الرجل بعشرين عاماً ، لان الرجل لا ينضج ، ولا يدرك شيئاً من مبادىء سياسة الدولة إلا عندما يبلغ السادسة والثلاثين . ولما كانت مفتقرة الى الذكاء الكافي لاعتناق جميع العقائد السياسية معاً ، فقد اكتفت منها بواحدة ، فكانت يمينية بلا هوادة ، حتى انها انضمّت الى منظمة في اقصى اليمين ، وفكّرت يوماً بالعمل في مشغلها ، ولكنها لم تفعل ذلك سوى مرتين . فليس الاجتهاد من شيم اليمينيين المتطرفين امثالها . ولا نذكر اسم الحزب الذي انضمت الآنسة دنديو اليه ، لانها استسلمت لرجل من اعضائه .



من

اندريه هاليو

سان ليونار

الى

بيار كوستال

باريس

٧ حزيران ١٩٢٧

عزيزي كوستال !

الاوضاع الراهنة لم تتبدّل . الطقس حارّ ، ولا اجد في نفسي الشجاعة الكافية لأتحمل العذاب ، بل العذاب الشديد . اني شقية ، ولا ريب . ولكني افضل ان اشقى بسببك على ان ابذل جهدي لاغضب عليك . ليس شقائي من النوع الذي يمزّق ، فهو خامد ، راكد ، لا يتغير ؛ انه حالة نفسية كالتي يعانيها المبنّج بعد عملية جراحية ... انه نقاهة لا يبالي صاحبها بشيء ، كأنه أليعازر جديد خارج من هوة العدم ... وانه اخيراً نوع من عدم الاكتراث والطيبة اللامتناهية نحو الجميع ، ولسان حال من يعانيه يقول : « ليفعل الناس ما يطيب لهم ، فكل شيء قد انتهى بالنسبة اليّ » . ولكن لا تحسب هذه الطيبة جودة او فضيلة ، لاني لم أعد احب الصراحة ، ولا اريد عمل الخير . فبفضلك ، انت ، غدوت شبيهة بك .

ما أغرب هذه الحال ! ولكن هذا هو الواقع ، ولا مناص من الاعتراف به . فقد يرضى المرء بالاخفاق احياناً لانه يعطيه شعوراً بالراحة

لا يختلف كثيراً عن شعور من نجح ونال مآربه . لقد خطوت الخطوة الصعبة ، وقفزت من فوق العقبة ، وكنت شجاعة باسلة .

لم انجح ، لانك رفضت اعطائي الشيء الوحيد الذي كنت اشتهيه في العالم . فلا بأس ، فهناك شيء احرزته على الرغم من الاخفاق . والآن ، كل شيء يتقلّص ويضمحل ... وبعد ، فما الفرق بين جسد تمتع ، وجسد لم يتمتع ؟!

ما اروع التخلّي ! وما اعظم هدوء المرأة التي تخلّت ! ليتك تعلم سهولة بلوغ هذه الحال على امرأة ظلّت تتخلّى طيلة حياتها . انها تألف هذا الواقع الذي يستقر في اعماقها . كان حبي لك منطوياً دائماً على التخلّي ، مبدئياً ؛ وكانت غلطتي الوحيدة اني حسبت هذا الحب المستحيل حباً ممكناً ، وحسبت العلف كافياً لخلق الشهوة في نفس الرجل ، واعتقدت انه يمكن بعث الحب في الانسان كما يمكن الحصول على الماء بفتح الحنفية . لقد كانت تضحيتي دائماً مبذولة مسبقاً . والألم الذي يفرضه المرء على نفسه يكاد يكون متعة بالنسبة الى الألم الذي يفرضه عليه الآخرون . ثم اني استوليت على اشياء كثيرة منك ساعدتني على الاستمرار في التخلّي ، وان لم تكن قد تركت لي ذكريات تملأ نفسي . ولم تركتني مفتقرة الى هذه الذكريات !

اما الشهران من الحب الكامل ، الممتلىء ، الشهران اللذان طلبتهما اليك ، واللذان اشتهيتهما بحرارة ، فلو عرضتهما عليّ اليوم لساورني الخوف . لقد فشلت بكل حيّة هيامي بان اخسرك «بعد» ، على أن اخسرك «قبل»[1] . وها انا اليوم خائفة . كنت احتاج الى حماستك واندفاعك ؛ اما الآن فلن ارضى بان يتحقق ما كنت اريد اذا اقدمت عليه وكأنك مضطر له .

صارحتني مرة بقولك : «ان اعظم هبة يقدمها حبك لي هي ان لا

[1] ـ تعني : بعد الوصال وقبله .

يعطيني ما لا أحب ولا اشتهي » . ولكني افكر احياناً بان ما يجذبني اليك هو شهوة جامحة مبعثها الهوس ، لا الحب العاطفي . كنت اعتبرك اداة لمتعتي ولسعادتي . على ان الحب الحقيقي يقضي بان اسعى الى ما يسعدك انت ، لا الى ما يسعدني انا . فهو يقضي ، اذاً ، بان اتخلى مختارة وبطيبة خاطر عما كنت اريد . لا شك في اني اسأت التصرّف في حبي ، لاني لم اذعن راضية بالتضحية . ومن المحتمل ان يكون حبك لي افضل من حبي لك ، لاني ما احببتك في اعماقي حباً منزهاً . ولعلّ ما اقدّمه لك الآن افضل ما اعطيك من نفسي . ولكنك لا تبالي بي ، ولا تحسب لي حساباً ...

وللمرة الاولى اقول لك : لا فائدة من الاجابة عن هذه الرسالة . فاذا اجبت فستجرحني بعبقريتك في صياغة العبارات الساديّة [1] . اما في سكوتك فاستطيع ان اخلقك لنفسي من جديد ، وان اجدك كما احببتك ... كما احببتُ ان تكون . لك :

أ . هـ

اود ان اطرح عليك سؤالاً صعباً ، دقيقاً ، حساساً ، هو : ألم يخطر في بالك ، مرةً واحدةً ، انك تستطيع تخليد حبي بادخال بعض خطوطه ومزاياه في احد مؤلفاتك ؟ لا شيء من الغرور في هذه الرغبة . كل ما فيها اني أشعر بان عذابي لم يذهب سدىً اذا كانت هذه الفكرة قد مرّت بذهنك .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

---

١ ـ نسبة الى المركيز دي ساد (١٧٤٠ ـ ١٨١٤) مؤلف روايات ابطالها خالعو العذار يجدون النعيم في تعذيب الابرياء ، ومن اقواله : « امقت الطبيعة لاني اعرفها . ربما اطلعت على اسرارها الفظيعة بدأت اجد متعة خاصة في اقتباس فسادها ! » وكثيراً ما تستعمل هذه الكلمة للدلالة على الاضطراب الجنسي او على الشذوذ .

عندما كانت الآنسة دنديّو تأتي مساءً الى مخدع كوستال ، في شارع « هنري مرتان » ، كانت تبادر فوراً الى اطفاء الكهرباء ، حتى اصبحت هذه البادرة عادة مألوفة في حياتها الجديدة . وكان كوستال يعرّيها من ثيابها تدريجياً ، وعلى مهل ، وهي واقفة امامه كأنها طفلة صاغرة ، منحنية الجبنين قليلاً ، تنظر اليه ، دون اقل خجل مصطنع ، بعينين زوقاوين مائلتين الى السواد ، في ظلام الغرفة ، كأنها شربتا من حلكة الليل . لذلك غدت تلك الليلة صافية مشرقةً فوق العالم .

وكان يراها بين يديه نصف عارية فيكتشف فيها فتاة جديدة ، ويقول لها :

– يا ابنتي الصغيرة ، أهذه انت ؟

وأحياناً كانت تجيب : « نعم » ، كأن سؤاله من الاسئلة التي تتطلب جواباً معيناً . وكانت تقول هذه الـ « نعم » بصوتها الليلي ، صوت المداعبة والوصال ، ذلك الصوت المتغير تغيّراً عجيباً مذهلاً في ليل الحب والعطاء ، فاذا به عميق ، رقيق ، كصوت المحتضرين . انه صوتها وهي طفلة ، وصوتها وهي امرأة خُلقت من جديد ، وصوتها وهي امرأة تموت .

والآن ، ها هو يدور حولها مرتعشاً كأنه يريد ان يطوّقها ، وهي جامدة في مكانها ، لا تفوه بكلمة ، انما تدير رأسها قليلاً لترافقه بعينيها المفتوحتين على مدى اتساعهما ، بدون ان يطرف لهما جفن ، كالأفعى الهندية المنتصبة امام ساحرها ، تلاحق وجهه بنظرها كيفما تحرك .

وكان يتحرك في جو من الرحابة والارتياح كأن سلطانه المطلق على الفتاة جعل الهواء حوله طرياً قابل الاتساع . وراح يقبلها هنا ، ويقبلها هناك ، عملا بفكرة تخطر في باله ، او دون فكرة . ثم ينظر الى هنا ، وينظر الى هناك ، وهي كالمسحورة تكشف عن المكان الذي يشير اليه بعينيه .

وها هي عارية تماماً ، وطاهرة كأنها وُلدت من ابتسامة. وها هو ما يزال يطوقها بدورانه حولها . ساقاها دافئتان ، لهما رائحة الحلوى الخارجة من الفرن ؛ رسم زنارها على خصرها خطاً احمر ، حتى ليخيّل الى الناظر انها جُلدت .

انتزع من رأسها دبوسين دقيقين ، وهما الوحيدان اللذان استطاع ان يقع عليهما لأنه ابله . فانتزعت هي الدبابيس الاخرى ، وقدمتها له واحداً بعد الآخر . ولم يتغير عددها في مختلف الزيارات التي قامت بها الى مخدع. كوستال .

والمحدر شعرها على كتفيها ، وعلى نهديها ، بتموجاته الشبيهة بكثبان الرمل على الشاطىء ، فاذا بها تعود الى طفولتها اكثر منها في اي وقت آخر . وفي بعض الاحيان كانت تصل الى المخدع وشعرها ما يزال ندياً كالغابة بعد المطر ، لانها كانت في المسبح منذ قليل . فيأخذه كوستال بين يديه ، ويلثم اطرافه ، فيحس انها في هذه الخصل من الشعر ، ولكنها ليست كلها فيها كأن شعرها هذا شيء غريب عنها ، كنهر لا يعرف ، في نهاية مجراه ، ينبوعه الجبلي البعيد .

وكان يصعد من اطراف شعرها حتى يصل اليها ، والى رائحة الطفولة في رأسها الدافىء . ثم يعود الى وجهها ، فيجد فيه صديقاً قديماً ، ويتنشق رائحة البودرة التي كان قد نسيها ، فيلفّ الشعر حول عنقها ، ويرسله على فمها ، ثم يبحث بشفتيه ، من خلال الخصل ، عن شفتيها . ويعمد الى اللهو ، فيجعل من شعرها شاربين ، ثم لحية ، فتبدو كأنها تلميذة في « سان سير »

تمثل دور احشويرش [1] ، ها هي عارية تماماً بالقرب من النافذة ، وتكاد تكون على الشرفة . نبهها ، فما حفلت ، ولا تحرّكت ، كأنها دخلت حلقةً مسحورة اذ اجتازت عتبة مخدعه .

ولما تمددت على السرير ، لم تبدُ مختلفة عما كانت عليه في المرة الاولى . فها هي كلها : بريئة ، هادئة ، شبيهة في بساطتها بمعزة صغيرة في قطيع . وكانت في اغلب الاحيان تغمض عينيها . اما اذا فتحتهما ، واطلّ اشراقهما بما فيه من الانعكاسات الحالكة السواد ، فانها تبعث ليلاً ونهاراً متعانقين ومتداخلين . وفي هذه الاثناء كانت تنظر اليه بدهشة ووجهها يكاد يلتصق بوجهه ، فتبدو عيناها وكأن فيهما حَوَلاً ، ثم تقبله قبلة قصيرة سريعة ، كأنها تختلس منه متعتها اختلاساً . وكانت قبلتها تتوالى ثلاثاً ، او اربعاً ، او خمساً ، كأنها مجموعات من النجوم تستقل كلٌّ منها عن اخواتها ... ثم تأتي القبلة المفاجئة ، العنيفة ، ككرة القدم تصيب المرمى ، او كالصاعقة عندما تنقضّ .

لا تتكلم الا بكلمات قصيرة ، متقطعة ، وإلّا اذا كان هو البادىء في مداعبتها . وفي سكون تام لا يُسمع فيه سوى دقات الساعة ، او انزلاق منشفة تقع في المغسل ، سألها :

- بِمَ تفكرين ؟

- بأني على ما يرام !

---

١ ـ في القرن السابع عشر انشىء معهد « سان سير » على مقربة من باريس لتنشئة الفتيات الأرستقراطيات بادارة السيدة دي برينون ورعاية السيدة دي مانتنون عشيقة الملك لويس الرابع عشر ثم زوجته السرية . وكانت مدام دي برينون تدّعي الشعر ، فراحت تؤلف المسرحيات لتلميذاتها . ولكن السيدة مانتنون ساءت ما في هذه المسرحيات من تفاهة وسخف ، فطلبت الى الشاعر الكبير جان راسين ان يضع لتلميذات المعهد تمثيليتين . فوضع « استير » و « عتليا » ، ومثلت الفتيات ادوار الرجال فيها ، ومنها دور احشويرش في « استير » ، وهذا ما نوّه به المؤلف في هذا التشبيه .

– ما اكثر ما تحبين السكوت !

– عندما اكون مغتبطة ، لا أتكلم .

يالها من طفلة !

« عندما اكون مغتبطة » ... ماذا ؟ ان اندريه كتبت اليه هذه العبارة فلم يعرها انتباهاً ، ولم يسجّلها بين حسناتها ، لانه لا يحبها .

وعاد الى سولانج يداعبها ، فقال :

– أريد ان انير الكهرباء .

فاطلقت صيحتها المألوفة : « لا ! لا ! » بقوة لم يعهدها فيها من قبل . فقال :

– ولمَ « لا » ؟ أتكون تحت رحمة الحياء ؟

لم تعجبه هذه الحال ، وخيّل اليه ان من يداعب امرأة في الظلام كمن يدخّن في الظلام ، فالوداع ايها الذوق !

وبعد قليل سألها من جديد :

– ما رأيك في انارة الكهرباء ؟

فاجابت :

– لا شيء ...

يالها من طفلة !

وكانت تتكلم بصوتها الليلي ، وفيه جميع نبرات الطفولة ، كأنه خارج من قبر عميق ، ناهيك بذلك الصوت الآخر الذي ترتديه كلماتها عندما تكون في وضع « افقي » كالدّمى التي تخفض جفونها آليا اذ تُلقى على ظهرها .

وفي احدى تلك الامسيات ، نظم لها كوستال الابيات التالية :

بما انك تحبينني ، وبما اني احبك ،

وبما اننا هكذا على ما يرام ،

وبما اني انتشر حين اكون بقربك ،

وبما ان كلينا مكتف بهذا الغرام ،
فاتركي على قلبي ، يا ابنتي الحبيبة ،
- اذا كنت لا تخشين آثار الرؤوس الماضية —
هذا الشعر الخالي من الرائحة ،
وهاتين العينين الطويلتين ،
كأنهما عينا بهيمة ،
وهما ارحب اتساعاً ، واحلك سواداً ،
لانهما شربتا من الليل !

واستمرت الحال هكذا طويلاً ، ولكننا نكتفي بهذه الابيات ونصرف النظر عن سواها ، لانها لا تساوي حباق ارنب .

وكان كوستال يتعمد الامعان في الملاطفة بتعابيره ، فينتقي الألفاظ الرقيقة ليتوّج محبته بهالة من الرونق والرواء ، ويقول لسولانج احياناً : « ياحبيبتي الصغيرة » ، في حالات لا تستوجب التظاهر بهذا الهيام ، ولا ينطلق فيها الكلام العاطفي عفوياً صافياً . وفي احيان اخرى كان يضمها الى صدره بقوة تفوق رغبته الحقيقية واندفاعه الطبيعي ، لعلمه بان النساء يعتقدن ان الرجل بدأ يعرض عنهن اذا لم يحببهن اكثر فاكثر . وبما ان الرجل مخلوق فقير بالحب ، فقد حرص كوستال على التظاهر باكثر ما فيه من الهيام كي لا تصاب عشيقاته بخيبة .

وكان يتوق حيناً بحرارة وقوة الى ان يكون هو الرجل الذي يكشف لسولانج عن حقيقة نفسها ، وحيناً آخر كان هذا التوق يخمد كلياً في نفسه ، فيفضل ان يتركها على حالها .

ولم يكن قد امتلكها ، بعد ، إلا جزئياً ، لأنه اراد ان يترك أمامه شيئاً مجهولاً ليتخيّل ما سيكون ، كراكب السفينة ينظر دائماً الى افق البحر حيث يأمل ان تطلّ عليه الارض الجديدة . وكان يتوقف بمداعبته في النقطة الحساسة التي يعلم انه اذا تجاوزها اوجع الفتاة ، ككلب

يلاعب رفيقه ، فيعضـه برفق ، ويحرص على ان لا يتمادى في المهارشة . ولكن قبلاتها كانت ضارية لا تعرف هوادة حتى جُرح طرف لسانـه ، فاضطر الى الامتناع عن التدخين .

وكان يراها عارية كلياً ، فيخشى ان تبرد ، ويود لو يضحي بجانب من متعتـه لكي تتدثر ببعض ثيابها . ولكنـه لا يكاد يعرب لهـا عن تخوفه ، حتى تجيبه بشيء من العتب واللوم :

— انك تعاملني كأني طفلة .

فيقول لها :

— المرأة طفلة دائماً في نظر من يحبها .

وفي اغلب الاحيان كان ينبهـا الى الساعـة لتعلم انـه لا يجوز لهـا التأخر خارج البيت ، فتتظاهر بانها لم تسمعه ، فيبقيان جنبـاً الى جنب حتى يبلغ الليل ساعـة نزول القطط الى الشارع ، وانصرافهـا الى لحس قوائمها وغسل وجوهها على قارعة الطريق الخالية من المارة .

وكانت الساعة الكبيرة تدق وتتجاوب دقاتها تجاوب صياح الديكة ، فيتبادر الى ذهنه انه ان لم يقل لها : « يا صغيرتي ، ازفت ساعة انصرافك » ، تبقى الى جانبه طيلة الليل ، كأن اباها وامها قد زالا من الوجود . ومنذ عرفها وتوثقت علاقته بها ، لم تحاول ان تأخذ المبـادرة مرة واحـدة . فكان يمتدح فيها هذه المزية ، ويقول لهـا : « اني امقت النساء حـين تكون لهن ارادة شخصية ، وارى انك خلقت منذ الازل لتكوني لي » . ولكنـه لو أخذ بعين الاعتبار مـا ذهب اليه « شوبنهـاور » [1] من ان هناك علاقة وثيقة بـين الارادة والميـل الجنسي ، لاعتقد انـه ليس من الحيف ان تريد سولانج اكثر مما كانت تريد ...

وها هي الآن تذهب تلقائياً الى المغسل كهرة صغيرة روّضها اصحابها

---

١ — فيلسوف الماني (١٧٨٨ — ١٨٦٠) اشتهر بالتشاؤم ، واسس فلسفته على التناقض القائم بين الارادة والتصور .

ولقنوهما عادات حسنة ، بينما انصرف هو الى تنظيف كتف سترته بالفرشاة مما علق فيها من البودرة التي كانت على وجه سولانج ، فانتقلت لترسم على كتفه خطاً مبيضاً شبيهاً بخط المجرّة في الليالي الحالكة السواد .

وبعد قليل ، كانت الى جانبه في الشارع ، تضرب الارض بقدميها وتسير بخطى قصيرة كخطوات البغال .

ما الذي جرى ؟ هل جرى شيء يستحق الذكر ؟ ها هي كما كانت تماماً لما جاءت منذ حين . ولكنها اصبحت امرأة ، امرأة بكل معنى الكلمة وبكل ما في الانوثة من قوة ، وهي التي كانت طفلة وتلميذة مدرسة منذ قليل . اجل ، كانت تبدو نقية ملء العين ، فلم تعد نقية ... وكانت تبدو ايضاً كأنها فتاة مهذبة حسنة التربية .

وكان يعلم انها لا تصارح اباها وامها بسبب غيابها ليلاً عن البيت ، فيسره التفكير بانها تلجأ الى الكذب ، ويقول في نفسه : « هكذا يظل المجال مفتوحاً للظنون والتكهنات » . ويرى ان كذبها يساعدها على الانسجام والحياة الاجتماعية .

وكانا يسيران احياناً وكلٌ منهما يمسك بيد الآخر ، كولدين ارسلهما ذووهما ليلعبا في الحديقة بكل تهذيب ، او كائنين من رجال الدرك التونسيين .

وفي ذلك الحين ، كان قد صدر احد كتبه ، فانهالت عليه الرسائل ومقالات التقريظ ، فاتخذ كلمة غوبينو [1] شعاراً له بعد ان حوّرها ، وراح يقول : « الحب اولاً ، ثم العمل ، ثم لا شيء » . ولكن العمل هو الانتاج الادبي بحد ذاته ، وليس هو علاقة هذا الانتاج بجماهير القراء .

---

1 ـ كاتب ودبلوماسي فرنسي (١٨١٦ – ١٨٨٢) وضع لنفسه شعاراً هو : « العمل اولاً ، ثم الحب ، ثم لا شيء » . اهم مؤلفاته : « محاولة في درس التفاوت بين مختلف السلالات والاعراق البشرية » ، وقد كانت هذه الدراسة من اهم المستندات التي ارتكزت عليها عقيدة النازيين العنصرية .

كان كوستال قليل الاكتراث بهذه الملاقة ، يقرأ بسرعة الرسائل التي يتلقاهـا ، والمقالات التي تكتب فيه دون ان يعلق عليها اقل اهميـة . فالتقريظ في نظره كالموسيقى التي تصحب عرض الافلام السينمائية الصامتة . كان يفكر بانه لا بد من ان تكون هناك قطع موسيقية جيدة وسائغة ، ولكنه لم يكن يسمعها .



قال لها :

ألا تعتقدين انه يجب ان ترى الاشياء كما هي؟ زعم ميشليه [1] ان الحبيب الذي يحافظ على رباطة جأشه ليميّز الصدق من الكذب في الاقوال المعسولة التي يقولها له من يحبه، يشعر بالصغارة والذل.

هذه حماقة لا يُستغرب صدورها عن ابناء القرن التاسع عشر الأرعن. ليس من الذل ان يحافظ المرء على رباطة جأشه. ومن المجد العظيم ان يرى الانسان الاشياء كما هي بكل حقيقتها. والحقيقة، في ما يتعلق بنا، هي اني غير مغرم بك. لك في نفسي عطف يمازجه حنان وتقدير واحترام من جهة، ورغبة شهوانية من جهة اخرى. ولكن هذا كله ليس حباً غرامياً، والحمد لله. انما هو شيء اسميه طريقتي في الحياة، الطريقة التي اكون فيها كما «انا» بكل حقيقتي، وحسبي شيء في منتهى الجودة. وهذا وحده يكفي لاقناعك بان ما لك في نفسي ليس غراماً. فالرجل يحب المرأة حب صداقة «لأن...»، ولكنه يحبها حباً غرامياً «على الرغم من ان...» [2]، والفرق بين الحبّين واضح. وقد جعلتني

---

١ ـ اديب ومؤرخ فرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) اشتهر بالتطرف في آرائه التحررية. من مؤلفاته: «تاريخ فرنسا» و«تاريخ الثورة الفرنسية». ملحمي النفس في كتاباته، حتى انه شط احياناً عن التقيد بالحقائق التاريخية. ومن مؤلفاته الادبية «الجبل» و«الطير»، وهي غنية بالاضواء والألوان والنغم، وقد اصبحت منهلاً لبعض الشعراء الرومنطيقيين.

٢ ـ يعني ان حب الصداقة ينجم عن مغريات مشجعة، بينما الحب الغرامي يستمر على الرغم من العقبات والمزعجات، لأنه اقوى، وارسخ جذوراً في النفس.

التجارب اعتقد ان طريقتي تعجب النساء ، لانهن - على ما رأيتُ - اشد حاجة الى العطف والحنان منهن الى الغرام . وانت ايضاً لستِ مغرمةً بي . أفليست هذه هي الحقيقة ؟

فحرّكت رأسها يمينا ويساراً وهي ترفع كتفيها قليلاً ، وعلى وجهها ابتسامة تعبّر عن اللهو والعبث ، فكانت حركتها مفعمة بالرونق والفتنة ، كحركات القسم الاكبر من فتيات المجتمع الميسور ، ثم قالت :

- لا ، لا اعتقد ان هذه هي الحقيقة بكل دقة ... اعني اني لا احبك حباً عاطفياً .

قال بلهجة الواثق بنفسه :

- هناك دليل كبير على انك غير مغرمة بي ، وهو انك لا تسألين مطلقاً عن حياتي الخاصة ، ولا يحمرُّ وجهك عندما يحدثك ذووك عني ، ولم تبحثي قط عن اسمي في لوائح الشخصيات الباريسية ، ولم تأتِ الى شارع « هنري مرتان » في الايام الاولى من حبنا لتعرفي اين يقع منزلي ، ولم يخطر في بالك مرةً ان تكتبي اسمي على ورقة عفوياً ودون تفكير .

وكان يسرد هذه الأدلّة بصيغة السؤال ، فتحرّك رأسها سلباً للموافقة على ما يقول ، وعلى وجهها تلك الابتسامة اللاهيـة العابثة . لقد نامت مرةً وأحدُ مؤلفات كوستال في يدها ، تحت اللحاف . وكان ذلك بعد ان قبّلها للمرة الاولى . ولكن هذه الحماسة كانت في البداية ، لأن طبيعة سولانج فوجئت فانحرفت قليلاً عن مجراها العادي ، اما الآن فليس من المحتمل ان تعود الى مثل هذا التصرف الصبياني .

واستأنف كوستال حديثه المحشو بالاسئلة ، قال :

- أصحيح ان الفضول لم يدفعـك الى البحث عن موقع بيتي قبـل ان ادلك عليه ، وقبل ان آتي بك اليه ؟

ولما حركت رأسها سلباً ، استنتج قائلاً :

- اذاً ، فالامر واضح : ما كنتِ قط مغرمة بي . وحسناً فعلتِ ، فهكذا

اريدك : فتاة محبة ، لا مغرمة . لا اريد ان يكون حبك لي هياماً مهووساً ، لأن مثل هذا الهيام يورثك آلاماً ، فنقع في حال مؤسفة هي عكس ما اودّ ، لاني لا اريد لك إلا الخير . يجب علينا ، يا عزيزتي ، ان نعالج هذه الحال . واستطيع القول اني خبير حاذق في هذا المجال ، ولكن يجب ان تجدي في طريقتي بعض المتعة على الأقل. فالعذاب شيء سخيف دائماً ، ولا يرضى به سوى الابله . ان الزعماء الذين اوهموا جماهير الشعب بان العذاب عملٌ بطولي عظيم ليخدموا سياستهم ، والكتّاب الذين اقتنعوا بهذا الوهم وعظموه لانهم اغبياء ، انما ارتكبوا جريمة فظيعة لا تغتفر .

في نهاية رسالتك الاولى ، الجميلة قليلاً ، اعربت لي عن « مودّتك الرقيقة » . ولا ادري هل وردت هذه العبارة في رسالتك دون تفكير كالعبارات التقليدية التي لا تعني ، في الرسائل ، سوى المجاملة ، ام تمعّنت فيها وادركت مدلولها ؟ فاذا كنت كتبتها للتعبير عن حقيقة شعورك نحوي ، فهذا شيء خطير ، لانها تعبر كذلك عن شعوري نحوك وعن الشعور الذي انتظره منك نحوي .

اجابت :

. كتبتُ هذه العبارة لاني رأيت انها تعبر عن شعوري .

.. اذاً ، فكل شيء على ما يرام يا عزيزتي . واعتقد اننا سنتفاهم تفاهماً تاماً .

وعلى الرغم من هذا التفاؤل ، سألها بعد قليل :

.. ألا تودين ان تذهبي قليلاً الى بيتي هذا المساء ؟

فاجابت :

ــ ليس هذا المساء ... افضل ، اذا سمحت ، ان نباعد قليلاً بين مواعيدنا ...

وبعد سكوت قصير استطردت قائلة :

.. عندما اجيء الى بيتك ، احس انك ابعد عني بعد لقائنا منك

قبله ...

لم يرد على هـذه الوخزة برغم خيبتـه . وكانا يجتازان ساحـة «الكونكورد» ، فراح يبدي ملاحظات على لون السماء في تلك الفترة من الغسق . إلا ان الغيظ كان يعتلج في اعماقه ويزداد احتداماً ، ليس لأن غرور الذكر اصيب فيه بصدمة قاسية ، بل لانه رأى ان سولانج أغلقت باب المستقبل ، فكيف يستطيع مداعبتها بعد اليوم ؟

وساد بينهما الصمت هنيهة ، ثم سألها :

ـ أتريدين ان اعود بك الى منزلك ، ام تفضلين ان نذهب الى مكان ما لتمضية بعض الوقت ؟

وكان هذا السؤال قاسياً رهيباً ... فقد خالف عادته واقترح عليها ، للمرة الاولى ، ان يفترقا باكراً ، لانه اعتبر امتناعها عن المجيء الى مخدعه تطاولاً على حقوقه .

أجل ، كان سؤالاً رهيباً بالنسبة الى فتاة أنوف كالآنسة دنديو ، ورهيباً ايضاً بالنسبة الى كوستال . وكان يتوقع ان تجيبه : «اعدني الى منزلي» . أتراها لم تدرك انها افسدت جو ذلـك المساء ، وجعلت رفقتها فيـه لا تطاق ؟ ولكنه دهش عندما اجابت : «لنذهب الى مكان ما» . وتبادر الى ذهنه انها غير مرهفة الاحساس ، وتحتاج الى مزيد من الذوق .

والسينما هي الملجأ الاخير في مثل هذه الحال لابناء القرن العشرين . فاذا كانت هناك نباتٌ سافلة بين رجل وامرأة ، فان مطافها ينتهي دائماً الى احدى القاعات المظلمة .

ودخلا احدى قاعات حي «الانفاليد» ، فراحت سولانج تبذل جهودها لتقطع الصمت الثقيل المخيّم عليها . الا انهـا تحدثت عن اشياء تافهـة ، بينما لزم كوستال الصمت التام ، كأن اعصاب لسانه تقطعت فاصبح عاجزاً عن التفوه بكلمة . وكان مقتنعاً بانها لن يلتقيا بعد ذلك اليوم ابداً .

لا ، لم تجرؤ امرأة قط على مخاطبة خليلها بمثـل الكلام المذل الذي

وجهه اليه سولانج ... كان يعتقد ان مداعباته لها تزيدهما تقارباً ، وتوثق عرى علاقتهما ، فاذا بالفتاة تصارحه بان هذه المداعبات تبعدها عنه . وغلى الدم في عروقه حتى اصبح يودّ لو يجرحها ، فقال في نفسه : « يجب ان تعلم كيف اضرب وأوجع اذا مُسّ شعوري » .

واستغرق عرض الفيلم ساعتين ونصف الساعة ، فما فتح كوستال فمه طيلة هذه المدة . وكان الحر شديداً فجعلت سولانج تمسح العرق المتصبب على جبينها وانفها بمحرمتها الصغيرة الصغيرة كمحارم الاطفال . وقد تكون مسحت بها عينيها ايضاً ، فخيل الى كوستال انها تودّ لو تبكي . ولاحظ انها وضعت يدها على مسند مقعدها من ناحيته ، فظن انها تدعوه الى أخذ هذه اليد بين يديه ، ولكنه حرص على ان لا يفعل . ومرة او مرتين ، ادارت وجهها اليه دون ان تتكلم ، كأنها تطلب اليه ان يقبلها . ولكنه بقدر ما كان ياس ما في موقفه من الحقارة ، والفلاظة ، والمسكنة ، والسخافة ، كان يتشبث بهذا الموقف ، ويأبى ان يحيد عنه . وفي فترات الاستراحة كان يقرأ على وجوه بعض النظارة رأيهم فيه ، فاحس انهم يقولون في نفوسهم : « يا لها من صغيرة فاتنة ! وتباً له من علج يعاندها ويُعرض عنها !... أليس من الغبن ان تكون هذه اللؤلؤة مع هذا الخنزير ؟ » وأشد ما آلمه في هذه الازمة انها شبيهة بالخلافات الزوجية .

واخيراً انتهى ذلك العذاب المرير ، فخرجا من قاعة السينما وهما صامتان . فاقدمت سولانج على بادرة لم تجرؤ على مثلها من قبل ، فتأبطت ذراع كوستال ، فثار ، فكأن الفتاة قالت له بهذه البادرة وبكل ما فيها من سذاجة الطفولة وبراءتها : « عد اليّ ! ألا ترى اني غير ناقمة عليك ؟ » ولكنه وجد في هذه البادرة وسيلة جديدة لتعذيب سولانج بالرغم من تأثره العميق ، اذ يكفي ان لا يبالي بها ولا يتجاوب معها ليجرحها ويوجعها .

ولما وصلا الى شارع « فيلياه » ومرا بالقرب من بيته ؛ وتابعت سولانج سيرها دون ان تتوقف لحظة واحدة ، انفجر غيظه ، وقال لها بصوت يهدّجه الغضب :

— جرحتني جرحاً بليغاً ، قلتِ لي افظع ما تستطيع امرأة ان تقوله لرجل ، فغدوتُ عاجزاً عن ملامستك ، عن مد يدي اليك ، وسأظل اعتقد انك لم تتساهلي معي الا على سبيل المجاملة ، بينما انت تعانين القرف والسأم في اعماق نفسك .

— ما هذا القول ؟ ! انت تعلم جيداً ان ...

— لعنة الشيطان على جميع الفتيات ! على الفرنسيات الصغيرات الناعمات الباردات اللواتي لا يكتشفن المتعة الا في السادسة والعشرين من العمر ! ما العمل لتكون الفتاة راضية ؟ لم يجد الانسان بعد غير هذه المداعبات ، فهي الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الرجل للمرأة عن محبته لها ورغبته فيها ! لا ، ان هذه الحال لا تطاق . لن استطيع مداعبتك بعد اليوم . واذا شئتِ ان نعيش كأخٍ واخته ، فاقول لك بصراحة : لستُ بالرجل الصالح للقيام بهذه المهمة . سلمتني نفسك ، وها انت تستعيدينها . ولكنك سلمتني نفسك ، وهذا ما لا يزول مذاقه من نفسي . فتحتِ امامي باب غرفة مليئة بالموسيقى ، ثم اغلقته ...

وكانت تستمع اليه ، وهما يسيران ، دون ان تقول كلمة ، فدارا ثلاث مرات حول كتلة الأبنية التي يقع فيها منزل كوستال . وبعد صمت قصير استطرد قائلاً :

— وبعد ، فكيف اجرؤ على مخاطبتك بعد اليوم ؟ اي اهمية يمكن ان تعلقي على ما اقوله لك ؟ قلت لك عشرين مرة : « كوني صريحة معي قبل كل شيء » . ولما عمدتِ الى الصراحة حطمتِ كل شيء . لقد حلّت بك العقوبة لانك كنتِ كما طلبت اليك ان تكوني . وها انا لا استطيع ان اعمل معك شيئاً ، ولا ان اخاطبك . لستِ مذنبة في شيء . كل ما

في الامر ان هناك اختلافاً بين طبعك وطبعي . واني اردد مؤكداً لك ان هذه الحال لا تطاق .

ووصلا مرة اخرى الى قرب منزله . ولو لم يتوقف هو لواصلت هي السير ... فمد اليها يده قائلاً :

— بما اننا سنلتقي غداً في حفلة « هوتكور » فمن الحتم علينا ان نتحدث من جديد ، ولكني اصارحك بان كل شيء قد انتهى بيننا .

ورآها تنظر اليه بعينيها الجميلتين ، وقد ملأتها الدهشة ، والكآبة ، والتوبيخ ، كعيني كلبة تنظر الى صاحبها الجلف الذي ضربها دون سبب .

ومرت سيارة تكسي ، ناوقفها . وكان صوته مخنوقاً في صدره ، حتى انه اضطر الى ترديد عنوان منزله مرات عديدة ليفهمه السائق .

ووجد في غرفته سريره مرتباً ، والى جانبه اضمومة الازهار التي كان قد اعدها لسولانج ، فانطرح على الفراش وهو يتألم في كل ذرة من روحه وجسده ؛ يتألم بالألم الذي يسببه لها وهو يحبها ؛ يتألم لانه يؤلمها انتقاماً من صراحتها ؛ يتألم لحرمان نفسه اياها جسديا ؛ يتألم بالمه من حرمان نفسه جنسيا ، مع انها لم تكن تعطيه جسديا الا متعة ضئيلة ؟ يتألم لان ألمه ناشب في اغلظ نواحي رجولته ، في كبريائه الجنسية ؛ يتألم لان هذا الالم فيه ألمُ الذكورة السخيف ؛ واخيراً ، يتألم من شدة الحرارة التي كانت في غرفته ٢٧ درجة مئوية . ومن حين الى آخر ، كانت تسقط وريقة من تويج احدى الازهار كأنها دقة ساعة ، فيخيل اليه انه يشم رائحة سولانج ، هذه الرائحة الحبيبة التي استقرت فيه كالوسواس ، وراحت تزيد لوعته احتداماً ، وتطوف في جو الغرفة كذرات الغبار التي يحملها الهواء في فصل الصيف .

وخطر في باله ان يأكل ، فجاء بدجاجة مشوية من المطبخ ، والتهمها . فهدأ ألمه . ثم احس بشيء من السرور لانه تألم . من المفيد ان تكون لدى الانسان معلومات عن كل شيء .

وفي الليل ، رأى بالحلم مربّيته الانجليزية عندما كان صبياً ، ولم يكن قد حلم بها قط في حياته ، فتعذر عليه ان يجد لهذا الحلم تفسيراً .

فكر بهذه المرأة ، فجاءته ذكرى عجيبة : تذكر ما كان يستولي عليه من الرعب لما كان يستيقظ من نومه باكراً ويتصور من المحتمل ان تكون المربية قد ذهبت ، ولن تعود . فينهض من سريره ، ويسير حافياً حتى يصل الى غرفة المربية . فيرى ثيابها ومختلف اشيائها مرتبة على احسن ما يرام ، ويعلم انها ذهبت الى الكنيسة ، على عادتها كل يوم ، لتحضر القداس . ولكن هذه الحقيقة الراهنة التي لا تقبل الجدل لم تكن كافية لطمأنته ، فكان يسير على رؤوس اصابع قدميه حتى يصل الى اعلى السلم ، ويجلس خافق القلب بانتظار صرير مفتاح المربية في قفل الباب الخارجي ، عندما تعود من القداس . فقد كان يعلم في قرارة نفسه انها في الكنيسة ، فلا يكاد يسمع صرير المفتاح ، حتى يسرع الى سريره ويستلقي متظاهراً بالنوم .

لو كان يضمر لمربيته العجوز شيئاً من ذلك الحب الغريب الذي يكنه الاولاد عادة لمربياتهم – وكان آنذاك بين السادسة والسابعة من العمر لسهل تفسير قلقه وتخوفه من غيابها الى هذا الحد . ولكن وجه الغرابة في الامر انه لم يكن يحبها ، بل كان يضمر لها العداء ، لانها كانت تضربه بالمسطرة على اصابعه اذ يخطىء في عزف امثولته على البيانو ، وتدعه احياناً يبكي نصف ساعة امام مسألة حسابية يعجز عن حلها ، دون ان تقول له كلمة تساعده على حلها . وكانت تنتزع حبّات الزبيب من كعكة عصرونيته بحجة انها تؤذيه ، ولكن الحقيقة انها كانت تحب حبات الزبيب وتلتهمها بسرور . وكانت محبته لها زهيدة حتى انها لما تقاعدت عن العمل بقيت في باريس ، فما كلف نفسه مرة واحدة عناء زيارتها . لقد بحث طويلاً في حنايا نفسه ، فما وجد فيها لهذه المربية سوى اللامبالاة وشيئاً من النقمة ، ولكنه وجد فوق هذه اللامبالاة نقاطاً مبعثرة

من اندفاعه المجنون الذي تفوح منه رائحة الهيام ، ومن قلقه الشبيه بقلق العاشق الصغير الشارد اللب في البيت الكبير الراقد، الساعة السادسة والنصف صباحاً ...

وساءل كوستال نفسه أيحب سولانج ؟

وفي اليوم التالي كانت الحفلة الراقصة عند « هوتكور » . فبضعة اجساد نساء تكفي لنجاح الحفلة . وما قيمة المجتمع دون هذه الاجساد ؟ لو خلا منها لتركناه يغوص في اللجة ويندثر .

وصل الى الحفلة بعدها بقليل ، فراح يراقبها بنظره دون ان يدعها تراه . وكان يود لو تبدي احتقارها ، بشيء من التحفظ الذي يفرضه التهذيب ، لجميع اولئك الناس الذين كانوا حولها . ولكنها كانت تبدو مسرورة ، مرحة مع الجميع . أفتكون من نوعهم ؟

رقصت ثلاث مرات مع شاب متأنق تافه ، فجعل كوستال يقول في نفسه : « اذا ذهبت معه وجلسا في مكان ما وراء المقصف ، او على احدى درجات السلم ، فسأشعر بان دمي قد غادر وجهي ، وغادر ساقيّ ، كأنه يجري تحت ارض القاعة » . واحس بالفعل ان دمه بدأ يغادر وجهه وساقيه ، فكأن ما خشيه قد حدث .

مشى اليها وفي وجهه دمامة غير منتظرة ، دمامة زوج غيور ، فالتقته وقد تغير فيها كل شيء ، وبدا وجهها مشرقاً ، وعيناها متألقتين بالعطف والحنان ، كأن شيئاً لم يحدث امس . فكان لهذه الثقة فعل السحر في نفسه .

رقصا معاً ، وكوستال يخاطب نفسه قائلاً : « هل قُدّر لي ان أكون الذكر القبيح الى النهاية ؟ كنت امس شريراً ظالماً لأني تألمت في كبريائي الجنسية ، وغداً سأكون دنيئاً بعودتي الى مداعبتها مع علمي بانها تحتملني على سبيل المجاملة . هذا الجسد الذي اضمه الآن بين ذراعي امام مائتي نسمة قد ألقيت رأسي على بطنه العاري . فما اعذب هذا الشعور !

وبينا كان خدي على هذا البطن ، سمعت قرقرة الامعاء كصوت الجليد وهو يذوب ... وبعد ، فليعلم الجميع انها لي ! »

وأراهم بالفعل انها له . ففي نهاية احدى الرقصات ، وقعت حادثة مذهلة ، اذ جلس كوستال الى جانب سولانج ، ووضع يده على فخذها من فوق الثياب كما يضع الأسد قائمته على قطعة من اللحم استولى عليها .

لم يفعل ذلك وهو في احدى الزوايا وعلى حدة ، بل في وسط القاعة ، بين مائتي نسمة . ولم يقتصر هذا الاستيلاء على ثوانٍ ، بل استمر طويلاً ، حوالى نصف الدقيقة . ولم يكن ذلك في محيط مشبوه ، او على جانب زهيد من التقدم والرقي ، بل في مجتمع جميع افراده من الطبقة الارستقراطية الرصينة ... فما اقبح ان يدعو الناس الى حفلاتهم اناساً يعيشون في الخيال الشعري !

وادرك كوستال ما في عمله من « العظمة » ، ولا شيء من الفجور . فهو عمل الزوج ، عمل السيد منذ أقدم العصور ، عمل القرد مع قردته . انه عبقرية « الزوج » المتآلف مع انثاه .

وادرك ايضاً ما في قبول سولانج بهذه الحركة من « العظمة » ، وهي الفتاة المتحفظة ، البسيطة ، الهادئة . لم يبدُ منها اقل ردّة ، ولم تحاول الدفاع عن نفسها في وسط ذلك الجمهور ، كأنها لا تبالي باحد ... بل كأنها مسرورة بأن تُدمَغ على هذه الطريقة المبتكرة المدهشة ، امام الجميع ، ليعلم الناس من هي بالنسبة الى الرجل الذي اختارته .

ولما رفع يده عنها ، كانت قد نشأت بينهما علاقة جديدة . وبقيت يده موضوعة عليها دون ان يراها احد . وفي ذلك المساء جاءت الى مخدعه ، على عادتها ، في الوقت المعين .

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

١٠ حزيران ١٩٢٧

الرجاء ان تقرأ هذه الرسالة بكاملها .

عزيزي كوستال !

اني بعيدة عنك ، عاجزة عن الدفاع ، ترهقني العزلة ، وتسحقني سماء حارّة ، فتذكرني ببيت من الشعر لك ، هو :

« جلستْ حرارة النهار على الارض كأنها انسان ! »

هبّت عاصفة هوجاء في هذا الليل ، فسررت بفرار النوم من عيني ، لاني اغتنمت فرصة يقظتي لأفكر بك . عن اي شيء حدثتك في رسالتي السابقة ؟ اني لا اكتب مسودة لرسائلي اليك ، واخشى ان تكون اشتملت على الكثير من المتناقضات الفظيعة . اعتقد اني حدثتك عن نوع من الراحة ... أجل ، أردت ، بكل ما أوتيتُ من حسن النية ، ان أنقذ صداقتنا من هذه الحوادث المريبة التي نجتازها ، على الرغم من اعتقادي ان الرجل لا يستطيع ان يحب صداقة المرأة التي يعجز عن حبها غرامياً . عندما رفضتني رحتُ اخاطب نفسي قائلة : « انه يشتهي المرأة التي تتهرب منه ، ويحتقر التي تقدم له نفسها ، فما اسخف هذا التصرف الغريب ! »

ولكني اعترف بان الخيبة والرفض يضاعفان الف مرة رغبتنا في الحصول على الحبيب المتمرّد . وهذا ما اختبره الآن في ما اعاني من رفضك .

ثم كيف انساك ؟ ان كونك رجلا « عمومياً » يجعل النسيان مستحيلاً (والرجل العمومي في نظري كالمرأة العمومية) . فلكي ترقد في نفسي وتغيب عن بصيرتي ، يجب ان لا اقرأ جريدة ولا مجلة . وفي هذه المناسبة ، اودّ ان اعلم شيئاً ... فمجلة « الاخبار الادبية » نشرت قصيدتك الاخيرة ، وقد قرأتها - بالفظاعة ! - في الكنيسة الخالية من المصلين ، لأنها المكان الوحيد الذي اجد فيه قليلاً من البرودة . ومطلع قصيدتك هو :

« بما انك تحبينني ، وبما اني احبك ... »

اما الشيء الذي اود ان اعرفه فهو هل فكرت بي قليلاً عندما نظمت هذه الابيات ؟ اني اشك في ذلك ، ولكن ... ولكن ، لا ! لا شك في ان هذه الابيات موجهة الى امرأة اخرى . ويخيّل اليّ اني اسمعك تزمجر لدى اطلاعك على هذا السؤال قائلاً : « ما أشدّ سذاجة هذه الفتاة ! » واذا كنتُ حقاً ساذجة ، فلا تلم إلا نفسك ، لأنك وحدك المسؤول عن سذاجتي . فقد كان بوسعك ان تجعلني امرأة غير ساذجة ، لكنك أبيت ان تفعل .

أما هذه النجاوى الغرامية التي تملأ بها المجلات الاسبوعية ، فانها تحرك النصل الغائص في جرحي ، وتفعم نفسي غيرة واشتهاء .

آه ! جميل جداً ان تكون قادراً على تعرية نفسك وعلى عرضها للانظار باسم الادب والفن . ومن الواضح انك تمقت حبي مقتاً عميقاً . ولكن ما حيلتي في هذا الامر ؟ اني افكر بك من الصباح الى المساء . كدت اقول ان حبك يفوح من جسدي كالرائحة التي لا تحجب ، ولكن هذا القول لا يخلو من الادعاء ، فالحقيقة هي ان جسدي ينضح بحبك كما ينضح بالعرق . مررتَ قريباً جداً من حياتي ، فجرفتني في مدارك كما تجرف الشمس نجمة صغيرة معزولة ، واحرقتني بنورك المتوهّج .

اصارحك صادقة بأني اود من صميم القلب ان يكون امرنا كذلك ، فتكون قد قتلتني سهواً دون تعمد ، ولاشيتني . لست ذليلة ، ولا اعاني تمزقاً مهلكاً ، ولكني في ذهول . جعلتني غير صالحة للحياة العادية المألوفة . غدوت كتلك الاشياء القديمة التي يقول فيها خبراء الآثار : « انها جميلة ... انها غالية ، ولكني ارفض شراءها منك ، لان ثمنها غير معروف الآن . ولكنها جيدة ، فلا تتخلّ عنها » . اعرف ان لي قيمة ، ولكني غير صالحة للاستعمال ، وقد انتهي الى القرف فادمّر نفسي ، كما يقرف المرء من تحفة ثمينة فيدمرها لان خبراء الآثار يجدونها في منتهى الجمال ، إلا انهم يرفضون شراءها مهما تساهل صاحبها في بيعها .

أجل ، اني غير صالحة للاستعمال . وبسببك ، انت ، حرمتُ جميع الرجال ان يجدوا بي ما كنت استطيع ان اقدمه لاحدهم . فلو جاءني اليوم رجل محب ، مخلص ، واراد في نقية ليكون لي ، وأكون له ، لما استطعت ان اعطيه إلا جثة فارغة ، كأني كنت خليلة لاحدهم ، او متزوجة . فبكارتي المعنوية قد زالت من الوجود .

كيف لا تحس بان هذه الحال تفرض عليك واجب التعويض عليّ ؟ واعني بالتعويض ان تمنحني الارتواء الجسدي الذي هو حق من حقوقي .

ان زهدك بي هو نوع من التأنق الفاجر ، الشرير . قلتَ لي ، مرةً ، محرّفاً شعار جريدة « العمل الفرنسي » : « كل ما هو طبيعي هو لنا » . لا ! لستَ قريباً من الطبيعة ، وقد يكون هذا الظن اكبر وَهم بين اوهامك . فانت قريب من القداسة ، ولكنها قداسة معكوسة ... قداسة شيطانية . ولشدة اهتمامي الدائم بك ، اعرف كل يوم اشياء جديدة عنك على الرغم من سكوتك ، كما اعرف اشياء عن نفسي . بحتَ لي يوماً بما سميته « فضولك لمعرفتي » . وراني اعتقد اليوم ان هذا الشعور هو الوحيد الذي كان لي في نفسك ، وهو شعور مهني صرف . كان من المحتمل ان تشتهيني لو لم أكشف لك برسائلي عن كل ما في نفسي ، وهذا هو الشقاء

الاكبر في حياتي ، وسببه عزلتي التي جعلت كل شيء بيننا يجري بالتراسل . ولكن ، أواثق انت بانك تعرفني معرفة كاملة ؟ ألم يخطر في بالك ، حتى على الصعيد المهني ، انك لو اردت ان تجعل علاقتنا حميمة اكثر لاكتشفت فيّ اشياء جديدة ؟ وبعد ، أواثق انت بانك لا « تحتاج » اليّ ؟

لن تجدني من جديد الا اذا احسست يوماً ما بهذه الحاجة ، وكانت حاجة كليّة ، شاملة . فاكون عندئذ خليلتك ، او زوجتك ؛ ولن اكون صديقتك ابداً .

وستعود اليّ — اذا شئت — وانت تعلم علم اليقين اني احبك ، وأعبدك ، واني اشتهيت ومسا ازال اشتهـي قبلاتـك والاستسلام لذراعيـك ، ولم تساورني قط شهوة اخرى . أمسرور انت بهذه الصراحـة ؟ ان حـالتي في منتهى الوضوح . واني اجد راحة وحشية حين ألمس اعمـاق خضوعي لك ، واجدّد خطياً عهد اماني لهـذا الخضوع المطلق ، واعطيك دائماً هذا السلاح الذي تستعمله لقاتلتي .

اندريه

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

صاح كوستال ، وهو يدوس قواعد اللغة كأنه يهذي :

- لا شيء غير ساقيها ، أكاد أجن ! انظري يا صديقتي الى هـذه الصغيرة الفاتنة . ان في جمال وجهها ما يطعن كسن الحربة . يكون المرء مرتوياً ، لا يهمه الموت ، فاذا به يعود فجأة الى حب الحيـاة ، ويرفض الموت . وفجأة يفقد اتزانه ورصانته ، حتى انه لو اراد الكتابة لخانتـه معرفته بقواعد اللغة . عمرها ثمانية عشر ربيعاً ، إيه ؟ وذراعاها اجمـل من ذراعيك . وندوب اللقاح على ذراعها ... ألا ترين انها تفتن القديس ميخائيل رئيس الملائكة ؟ لا اخفي عنك ، يا عزيزتي ، اني اود ان افترس هـذه الصبية حيـة" . انها تستر وجهها بجريـدة معتدلة الآراء لتمتخط بمحرمتها الصغيرة . لا تريد ان اراها تقوم بهذا العمل البعيد عن الاناقة والنبل . ثم تضع محرمتها في حقيبتها باصابع كأنها قطعة حلوى . وكلما فاجأتني انظر اليها تمر بلسانها على شفتيها . ما اروع اختلاج كتفيها حين تضحك ! وما اجمل فرق شعرها المتعرّج بلا نظام ، واذنيها البريئتين من الامراض ! ان في قماش ثوبها ، وفي ساعتهـا اليدوية ، شيئاً فقيراً يفعم نفسي رغبة" ملتهبة ، قاتلة . اي قوة في العالم تستطيـع منعي من اشتهاء هذه الصغيرة ؟ اود لو اعرف طعم شعرها حين امضغه . اود لو ... حقاً انها جديرة بان تُشتهى . وها انا اشتهيها . أليست هذه سنّة الطبيعة ؟ اني لا اكسر شيئاً ، ولا اضرّ باحد اذا اشتهيتها ، ولكن عندما ارى العروق البارزة برجليها السمينتين في حذائهـا الرخيص يعود اليّ الوعي والصواب ، فاصبح رجلاً عادياً ... اعترف لك يا صديقتي العزيزة بهذه الحقيقة

بلا مواربة . أتراني أسيء اليك وازعجك بهذه الاقوال ؟ اجل ، أرى ... أرى انك تتألمين ، فاصفحي عني . ولكن ما حيلتي ، يا صديقتي ! اني من جنس هو نقيض جنسك تماماً في كل شيء . فانا من الجنس الذي يشتهي دائما ... جنس الرجال . وجل ما احب هو ان اعرف كيف تكون النساء عندما يستسلمن ، لأستطيع المقارنة بين اساليبهن المختلفة ... ما هي السعادة بالنسبة الى جنسي ؟ السعادة هي الفترة التي يهرب فيها المرء من قبوله ورضاه . فالرجل المتصوف ينتقل كثيراً بحبه من امرأة الى اخرى ، لان تعلقه بامرأة واحدة يناقض النهج الضروري لحياته الروحية . وانت ايضاً نجمة صغيرة بين الوف النجوم . وسيخمد نورك لدى بزوغ الفجر . أصحيح اني ازعجك ؟ اني اعرف معنى هذه الابتسامة التي تبدو على وجهك عندما لا تكونين على ما يرام ... مع اني لم اقل لك هجراً .

— لا ! لم تقل شيئا مزعجاً .

— ويجب ان تلاحظي ان ما قلته لك كان موقعاً على ألحان موسيقى الرقص . آه ! انك لا تحسنين اللعب والمغامرة !

— لا فائدة من الشرح ، لانك لا تريد ان تفهم ما هو مقامك في نفسي .

— أجل ، لا اريد ان افهم ، لأنه لا يجوز ان اشغل مكاناً كبيراً في حياتك .

فنظرت اليه بنزق ، وفي وجهها كل معاني التوبيخ ، فقال لها :

— يسرني ان تحبيني ، ولكني اود ان لا تحبيني كثيراً . ويسرني ان تجدي في حبي ما يرضيك ، ولكني اود ان لا يتجاوز رضاك الحدود المألوفة ، لأن تورطك في حبي يورّطني في التزامات جديدة ، ويكرهني على تجاوز ما اقوم به تلقائياً في حالة طبيعية بعيدة عن التصنع . ان امعانك في حبي يخلق لي واجب مقابلتك بالمثل ، وهذا ما اخشاه ، لا

لأني لا احسن القيام بالواجب ، ولأن الواجب لا يعني شيئاً في اعتقادي ، بل لأني اضطر الى انتهاج الحيلة والمجاملة ، ولست قادراً اليوم على سلوك هذه الطريق . جل ما اودّ ان تحبيني وان تشتهي رغبتي فيك ، بقدر ما احبك واشتهيك ، لا اكثر . صدقيني اذا صارحتك بان مقدار حبي وشهوتي معقول وكافٍ .

وفي اليوم التالي كتب كرستال ، في « غابة بولونيا » ، على صفحة بيضاء من كتاب « تربية الفتيات » الذي كان بين يديه ، النبذة التالية :

« على احد البنوك صغيرتان فاتنتان ، في الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، كأنهما خارجتان من احد اناشيد « ملياغر » [1] ، ومعهما امهما ، ولا ريب ... ولكنها امٌ تدرك معنى الحياة . كلٌ منهما تهز احدى رجليها هزاً منتظماً ، كما يحرك الحمار ذنبه . ليتني امضي ليلة كاملة واحدى هذه الارجل بين يدي ! يخيل اليّ اني لو نظرت اليها كما انظر اليها الآن ، ولكن هناك في مخدعي ، بشارع « فيلياه » ، لأحسستُ كلٌ منها بان شيئاً يثقب قلبها ، وبان قلبها ينزف دماً فجأة ، دون ان تدري لماذا ، بينما هي منصرفة الى الخياطة . يا ايتها الطبيعة ! اعصميني من ان اشتهي سواها ما دمت احبها » .

---

1 ـ شاعر فينيقي مجيد (ولد حوالى سنة ١٤٠ ، ومات سنة ٧٠ ق . م .) من ابناء غدارا التي سماها الانجيل : « كورة الجدريين » ، امضى حياته كلها في صور . كان يعرف الآرامية والفينيقية ، ولكنه نظم شعره باليونانية . حذق نظم المقطوعة الصغيرة ، واحب السفر والتنقل . وصلت الينا ١٣٠ مقطوعة من شعره ، اكثرها في الغزل المزخرف بالوصف والتشبيه . ومن اجمل شعره :

« صور ، ربيبة السماء ، حضنتني يافعاً ،
وتربة غدارا المقدسة غذتني شاباً ،
وجزيرة قبرص الحبيبة رعتني شيخاً ،
فان كنت فينيقياً فلك مني التحيات ! »

ان الشعور الذي سيطر على الآنسة دنديتو منذ ان خفق قلبها للحب هو الخوف من ان لا يحبها كوستال كفاية ، ومن ان يهجرها . فلقد اصبحت ، حيال الرجل الاول الذي احبته ، وحيدة في العالم ، ومهددة من كل جانب ، ولا سند لها تعود اليه في الملمات .

قبل ان تحب ، كانت لياليها رتيبة ، متشابهة ، ليس فيها ما يستحق الذكر . اما الآن فلكل ليلة احلامها ، وهي احلام مزعجة ، إلا انها لا تبلغ حدود الكوابيس . كانت تحلم ، مثلاً ، انها على دراجة هوائية منطلقة بسرعة على منحدر ، وانها فقدت سيطرتها على الدراجة . ولكن الحلم كان ينتهي عند هذا الحد ، ولا يكتمل بسقوط في الهوة . وكانت تحلم احياناً بان بقرة انفصلت عن قطيعها ، ودنت منها حتى كادت تلامسها ، ولكنها لم تهاجمها . ولم يكن كوستال يظهر في هذه الاحلام ، مع انه كان مصدرها وعلتها . فقد كان شيطانها الخفي . وفي بعض الاحيان كانت سولانج تقارب منه في احلامها ، ولكنها لا تراه مباشرة ، بل تحلم بانها تفكر فيه .

هناك نساء يكسبهن الحب قوة ونشاطاً وطابعاً من الرونق ، خصوصاً اذا كان الحب الاول في حياتهن . اما الآنسة دنديو فقد حل بها السقم ، فوهنت قواها ، واصيبت بشيء من الهزال الجسدي . وخوفها من ان تفقد كوستال زادها وهناً ، فكانت تحس دائماً انها دون المهمة التي انيطت بها ، وانها متعبة تحتاج الى الجلوس . واذا وقفت بعض الوقت احست بألم في فخذيها .

وعلى المائدة كانت تمضغ الطعام بقوة ونشاط لحاجتها الى تحريك اعصابها ، فتسبق امها في التهام ما في صحفتها ، وتضطر الى ملئها من جديد ، حتى أصبحت تأكل اكثر من المعتاد . ولاحظت انها عندما تأكل كثيراً تزداد قوة . ولما بدأت بالاكثار من الطعام احست ان فخذيها هما اللتان غنمتا القسم الاكبر من الغذاء .

وراحت تأكل بشاهيّة وكثرة كلما كانت على موعد مع كوستال ، مما جعل الخادمة سوزان تبلسم ابتسامة عريضة كلما قدمت لها المزيد من الطعام على المائدة . فكانت سولانج تقابل هذه الابتسامة بالمثل ، بدون ان تدرك ان الخادمة فهمت كل شيء .

وأصبحت تتناول فنجانين من القهوة دفعة واحدة ، وتلتهم طعام الغداء مرتين . وكثيراً ما كانت تمضغ نواة خوخة حتى تكاد تكسرها ، كأنها كلب يعضعض كرة صلبة ، فيفيض عليها لعابه . وفي بعض الاحيان كانت تدخن سيكارتين من التبغ الاسود ، واحدة بعد الاخرى ، وهي التي لم تكن مدمنة على التدخين . ولكن السيدة دنديو لم تلاحظ شيئاً من هذا كله . ولا حاجة بنا الى ذكر السيد دنديو في هذا الصدد ، لأنه لم يكن يهتم الا بنفسه . وهكذا كانت الخادمة ترى ما لا يراه الاب والام . يقال ان حب الام اعمى . وهذه حقيقة لا ريب فيها .

ولو لم تكن الآنسة دنديو فتاة عاقلة ، ورصينة ، لأدركت ان جرعة من الخمر تكسبها تلك الحيوية العابرة التي تغنمها بالتهام الكثير من الطعام . ولكنها لم تكن تعرف فضيلة الكحول ، ولم تحزر ما في الخمر من القوة . والناس ، مثلها ، لا يعرفون ، او يعرفون قليلاً ، وهذا القليل يساوي لا شيء . فالقائد العسكري يعلم ان افضل الجنود في القتال هم الذين ينزلون الى الميدان بعد تناولهم قليلاً من الخمر ، ولكنه لا يجاهر بهذه الحقيقة ، مع ان المجاهرة بها مفروضة عليه .

ومن علم الانسان ان افظع آلام الحب تزيلها وقعة عامرة من الطعام

الجيّد، لبضع ساعات على الاقل، ومتى علم ان الشجاعة الجسدية والمعنوية، والالهام الشعري، والاخلاص، والتضحية قد يكون مبعثها كلها وقعة جيدة من الطعام، وان سمو النفس مدين بوجوده للحم نانتزعه من حيوانات ميتة... متى علم الانسان هذا كله، فلا يجوز لنا ان نحاول جرّه الى الايمان بالسمو والقيم العليا لندفعه الى التضحية وبذل النفس.

ولكن الانسان، الذي يوشك ان يعرف هذه الحقيقة، يتهرب منها كي لا يعرفها. واذا عرفها، تظاهر بانه لا يعرفها، لانه لا غنى له عن المحافظة على سُحب الاوهام في سماء الحياة.

اما كوستال فكان، بخلاف سولانج، يتناول وجبة خفيفة من الطعام حين يكون على موعد معها. وكان نشاطه الطبيعي يتدفق بقوة وحرارة، فلو حاول تقويته قليلاً لفقد شيئاً من صفاء ذهنه، وهذا ما كان يأباه فوق جميع الاعتبارات. وحتى في وجباته الخفيفة، كان يمتنع عن شرب الخمر، وعن اثارة اعصابه بنشوة السكر. ولم يكن يشرب إلا حين يخف حبه للصديقة التي هو على موعد معها. وعندما كانت سولانج تتأهب لمغادرة مخدعه، بعد انتهاء زيارتها، كان يتوجه الى المغسل، ويشرب من الحنفية. اما اذا تخلفت سولانج عن المجيء، في الموعد المضروب، الى المكان الذي عينه لها، على مقربة من شارع «فيلباه»، فكان ينسى خيبته كأنها لم تكن. وبعد انتظار مدة عشرين دقيقة يتوجه الى اقرب حانة ويتناول من الخمر ما يطفىء به استياءه. كان طبعه قائماً على ميزة خاصة به هي: ان يحب كل شيء بقدر ما يحب نقيضه تماماً. وقد جعل من هذه الميزة خطة لحياته.

وهكذا اعطاه القدر الـ «لا» والـ «نعم»، فاصبح يرضى بهذه او بتلك على السواء، وينعم بحياة أنعم من المخمل، خالية من المتاعب والهموم، حتى انه كان يتعجب احياناً من اصحاب العقول الحيوانية والفلاسفة المزيفين الذين يعتبرون الحياة صراعاً.

قالت له يوماً : « تعال تناول الشاي عندنا يوم الاحد . فسيغيب أبي وأمي طوال النهار في « فونتنباو » عند ابناء عمنا . وسيغيب الخدم ايضاً في عطلتهم الاسبوعية ، فنكون وحدنا » . فراقته هذه الفكرة ، لأنه كان يتوق الى مداعبتها في الغرفة التي شهدت مراحل طفولتها ومراهقتها .

وكم كانت متعته الروحية كبيرة حين رأى نفسه مع سولانج في البيت الكبير الخالي من سكانه ، ورآها تعطل جرس الباب الخارجي كي لا يزعجهما احد . ولكنه ما عتم ان لاحظ على شلقي سولانج بعض بثور الشباب ، وحول عينيها دائرتين زرقاوين تجعلان نظراتها عميقةً بليغة التعبير ، فثبتت له صحة ما كان يظن بها ... واحس بعاطفته تشتد كصوت البيانو عندما يُطلق لاوتاره العنان . فقد كان يفضّل اجتماعه بالنساء في فترات خضوعهن لسلطان الحب ، وشعورهن بان السهم اصاب منهن مقتلاً ، لأن ضعفهن حياله كان يزيد قلبه احتداماً ، وحواسه رهافة . وعبثاً كنّ يحاولن اقناعه ، في هذه الفترات ، بان حالتهن طبيعية ، فقد كان يعزو محاولتهن هذه الى التظاهر بالقوة ، ويزداد اعتقاداً بحاجتهن الى الحب والمداعبة . وكان يميل بطبعه الى مسايرتهن ومداراة شعورهن ، حتى ولو كن رياضيات ، يغتنمن جميع الفرص للادعاء بانهن اشد مناعة من الرجال في المواقف الحساسة .

وها هو الآن ، في قاعة الاستقبال ، جالس على مقعد وثير الى جانب سولانج . وكانت سماء ذلك اليوم من ايام الصيف غائمة كأنها من أيام الخريف . فتحدثا اولاً عن اشياء قليلة الاهمية ، ولكن كم كانت سولانج

مؤثرة وشهية حين كانت تنظر الى امام كأنها في ذهول ، ثم تدير اليه وجهها بحرارة ولهفة كلما قال لها كلمة لطيفة ، او عبارة تصيب منها وتراً حساساً .

طلب اليها ان تقوده الى مخدعها فرفضت بشدة ، وهي التي عودته ان تلبي جميع رغباته دون اقل تردد او تحفظ . وطلب ان تريه بعض صورها المحفوظة من ايام الطفولة والحداثة ، فاخبرته بانها لم تقف امام آلة التصوير منذ بلوغها الرابعة عشرة من العمر ، ما يدل على انها وذويها من ابعد الناس عن الغرور وحب الظهور .

واخيراً وصل الى الموضوع الذي كان يحز في قلبه منذ حين . ففي زيارتها الاخيرة له ، عانقها بحرارة وشدة بالفتين مرات متواليسة ، حتى انه احس ، في آخر السهرة ، بينما كان يرتدي ثيابه ، بعياء وانهيار عصبي فلزم الصمت واصبح خسامد الشعور تحت عبء ثقيل من التعب . وقد بذل جهداً كبيراً ليستطيع التفوه ببضع كلمات عادية تافهة ، وهو يرافق الفتاة الى الباب الخارجي .

ذكّرها بهذا الحادث وراح يشرح لها ان الرجال يقعون احياناً تحت وطأة هذا العياء المستبد ، بعد ان يجودوا بكل ما في نفوسهم واجسادهم من حيوية ونشاط في اثناء الوصال . وقال لها ان هذه الحال طبيعية ومألوفة ، ولا بد لها من ان تعذره اذا وقع فيها ، واذا لمست فيه شيئاً من الفتور .

وأسهب في الشرح والتحليل ، ثم سألها هل انتبهت الى ما حل به ، دون ان ينتظر منها جواباً . وكم كانت دهشته كبيرة عندما اجابت فوراً وبلهجة حازمة : « نعم ! » فساوره القلق وجعل يقول في نفسه : « ماذا ؟ أيعقل ان تكون تلبّهت للامر الى هذا الحد ؟ اذا كان ذلك كذلك فالمسألة اخطر مما كنت اظن ! »

وعاد يسألها :

ـ والمرات الاخرى ؟

ـ تلبهت له ايضاً .

فاشتدت دهشته ، لأن عياءه في المرات الاخرى كان زهيداً ، وكثيراً ما كان يطلّ بسرعة ثم يختفي بسرعة . وقد حرص دائماً على ستره تحت مظاهر القوة ، بامعانه في المداعبة ، فقال في نفسه : « يا الهي ! كم هي ثاقبة النظر ، مرهفة الاحساس ! وكم هي قادرة على اكتشاف الحقيقة وراء المظاهر المصطنعة ! »

وسألها من جديد :

ـ أكاد لا اصدق ! هل وجدتني بارداً في المرات الاخرى لدى مغادرتك بيتي ؟

ـ نعم . وكنت اسائل نفسي : لماذا ؟ واخشى ان اكون قد خيّبت املك بي ...

فعاد الى شروحه يتوسع فيها ، وذكر بعض الكتب التي عالجت هذا الموضوع ، واقترح عليها ان يطلعها على كتب طبيـة استكمالاً للفائدة . وبينما كان يتحـدث باهتمام ، كان ينتزع باصابعـه بعض الوبر النـابت على مرفقها (وهذه الحركة الصغيرة تستحق الذكر) . ثم صمت فجأة كأن عينيه تفتحتا على اكتشاف لم يكن يخطر في باله ، فقال :

ـ واذاً ، فلما قلتِ لي : « بعد لقائنا ، احس انـك ابتعدت عني » ، كنتِ تعنين ما يحل بي من التعب !

ـ طبعاً !

فردد قائلاً كأنه يخاطب نفسه : « بعد لقائنا ، احس انك ابتعدت عني ... » وللمرة الاولى ادرك ان لهذه العبارة معنيين : إما ان سولانج تشعر بانها باردة حياله بعد انتهاء المداعبة ، او انها تشعر بانه هو البارد حيالها . وبين المعنيين فرق بعيـد ، وهوّة عميقـة الغور . فكيف ادرك المعنى الاول ، وغرب عن ذهنه المعنى الثاني ؟

قال لها :

- اسمعي ، يا سولانج ، فالامر بالسخ الاهمية ! أصحيح تشعرين ، بعد قيامنا ببعض الاعمال ، بانك تبتعدين عني ، ام اني ابتعد عنك ، وأصبح بارداً حيالك ؟

- كنت اجدك بارداً حيالي ، واحس فيك ردود الفعل التي شرحتها لي الآن ... كنت احس تبدلك كما يتحسس الاعمى برؤوس اصابعه الكلمات المكتوبة بابجدية « براي »[1].

- ما افظع سوء التفاهم الذي وقعنا فيه ! لقد فهمت من قولك عكس ما عنيتِ تماماً . ولكن لماذا لم توضحي فكرك ؟ لماذا تركتني مغتاظاً منك ثلاث ساعات ، ثم سمعتني اوجه اليك كلاماً قاسياً طوال عشرين دقيقة ، وانت مطبقة الشفتين ، تنظرين اليّ كمجسل صغير عاجز عن الكلام ؟ لم يكن عليك إلا ان تقولي بضع كلمات : « اجدك انت بارداً بعد لقائنا » .

فبدت منها حركة تدل على الاسف وفراغ الصبر ، ثم قالت :

- ولكنك تعلم حق العلم اني لا اجيد توضيح فكري ، وقد صارحتك مراراً بهذه الحقيقة ! وبقدر ما كنت اراك تشط وتبتعد عن فهم ما اقول كان يستولي عليّ الارتباك ، وازداد عجزاً عن التعبير . وعندما اكون معك ، احس في اغلب الاحيان اني متلاشية ... وفي المساء الاول ... في غابة بولونيا ... لو قلتَ لي : اطرحي نفسك في النهر ، لفعلت .

- اعلم هذا . واسترعي انتباهك الى اني لم افعل . ولكني لم أرَ قط مثل هذا الخطإ الغريب الذي لا يُصدّق . ان التباساً كهذا يعتبر مبالغة في الاختراع حتى في الروايات الخيالية . ولا يستطيع احد ان يصدق ان فتاة باريسية في الحادية والعشرين من العمر ، وفي سنة ١٩٢٧ ، تدع

---

١ - استاذ فرنسي اعمى (١٨٠٩ - ١٨٥٢) اخترع حروف الهجاء النافرة لتعليم العميان القراءة عن طريق اللمس بالاصابع ، وقد اطلق اسمه على هذه الابجدية .

صديقها يجافيها ساعات طويلة لاجل كلمة ما ارادت بها إلا التعبير عن خوفها من ابتعاده عنها ، اي لأجل كلمة لا تعني سوى المودة والاخلاص ، وكل هذا لانها « لا تحسن التعبير عن فكرها » . انك غبية ، يا عزيزتي ، غبية اكثر من اللزوم ... انك خرشوف نابت الى جـانب سكة الحديد .

– لماذا الى جانب سكة الحديد ؟

– لان مكانه هناك افضل بكثير من الأماكن الاخرى .

وعانقها بحنان عميق . لم يخطر في باله قط انها طفلة الى هذا الحد ، وانها عزلاء بهذا القدر ، وعاجزة عن الدفاع ، ومعرّضة للعذاب من كل شيء ، وخصوصاً بسببه . وتذكر حركتهـا البليغة التعبير ، لمـا ارادت استرضاءه وتبديد غضبه : تذكر كيف تأبطت ذراعــه ، للمرة الاولى ، ككلب توبخه فيمد اليك قائمته مستغفراً . وفي تلك اللحظــة احس ان انقلاباً شاملاً حدث في نفسه ، فرأى سولانج اضعف مما كان يظن ، وادرك انها تحبه اكثر مما كان يعتقد ، ناهيك بان مأخذه الوحيد عليها كان قد تلاشى بزوال اسبابه الموهومة . وفي دقيقة واحدة اقتربت منه ، اقتربت من جوهر حياتــه كشيء تأخــذه بيدك وتضمه على صدرك . وكم كان يستطيع ان يغنم من السرور لو تسنى له في هذه الفترة ان يقتل رجلاً للتكفير عن اساءته اليها !

في هذه الغمرة من الشعور الرقيق المتدفق ، انحنى عليها وقبلها ، ليس في نقطة التقــاء الكتف بالعنق التي كانت عارية ، وهــذه قبـلة تعتبر شهوانية ، بل على جزء من الكتف كان مستتراً بالثوب .

وشرد الحديث بينهما قليلاً في ذلك الجو من العطف المتبادل الذي حمله على لثم قميصها عوضاً عن عنقها ، فانتقل الى عيلتها بوحي المكان الذي جلسا فيه ، فقالت :

– لم يكن اخي ذكياً . فكل ما كان يستطيع عمله هو ربح المال ... لا احب ابي وامي محبةً واحدة . احب امي بشيء من التساهـل لانهـا

خفيفة سطحية . اما ابي فداهية شديد النباهة . ثم انه مصاب بمرض عضال (كان دندير يعاني سرطاناً في البروستات جعل ايامه معدودة) . وفضيلة عمي لويس كفضيلة امثاله من الرجال ، وهي السعي الى اقصى حد من الاعمال المشكورة ، باقل ما يمكن من المجازفة .

قال كوستال في نفسه : « ما اجمل هذا التحديد للبورجوازية ! »

واستطردت سولانج قائلة :

— اما دياتي فهي اني غير مؤمنة ، ولكن عندما تقع تحت نظري جريدة ك... (وهنا ذكرت اسم صحيفة اسبوعية باريسية الطابع اكثر من اللزوم) احس اني على اتم الاستعداد لاعود الى عقيدتي المسيحية ، واقول في نفسي : « ليس من المحتمل ألّا يكون في الحياة شيء غير هذه التفاهة » .

واخيراً جرى بينهما الحوار التالي ، قالت :

— من الواضح ان جميع الشبان الذين في مثل سني يفتقرون الى الحد الادنى من الشعور بالواجب ، بينما رجل مثلك...

— انك تمزحين ، هل في ملامحي ما يدل على اني رجل واجب ؟

— لا . ولكنك رجل واجب على كل حال .

— يا لك من فتاة مرهفة الحس ! نعم ، لا بد لمن يحب من ان يصبح رجل واجب .

لما عرف كوستال سولانج ، اعتبرها دمية للتسلية ، واتخذها كمن يأخذ امرأة ليراقصها برهة ، ثم يعيدها الى مكانها . وبعد حين ، عندما عرفها اكثر ، بدا له انها نتاج تلك التربية الخاصة التي تغرس في الاذهان ان ابداء الرأي الشخصي عيب يناقض حسن التهذيب ، وان القاعدة المثلى في ادب الاجتماع هي ان يوافق المرء دائماً ومن غير تردد على وجهة نظر محدثه . وكثيراً ما عنّفها بلا هوادة عندما كانت تقول : « اني مخلوقة من نوع خاص » ، فيقول لها : « انك نقيض النوع الخاص تماماً » فانت

فتاة شبيهة كلياً بجميع الفتيات » . وكان يوبخها كلما زعمت انها « لا تجد من يحسن فهمها » ، فيقول : « هذا ما تردده جميع النساء اللواتي ليس لديهن شيء جدير بان يُفهم » . وكان يأسف لعجزه عن تحسها ولدعها على هواه ، لأنها لا تملك من رجحان العقل ما يساعدها على تذوق المداعبة الفكرية ، فتتأثر ، وتتألم ، اذ تحسب المزاح اهانة .
وقد قال فيها يوماً المديح التالي الذي يبدو كبيراً للوهلة الاولى ، ولكن العين البصيرة لا تلبث ان ترى حدوده الضيقة ، وهو : « ما سمعتها مرة تقول قولاً سخيفاً ولا كلمة نابية » . وكانت في نظره متقلبة ، متصنّعة ، ومثال الفتاة الصالحة لتكون بطلة رواية فرنسية . ولكن تبين له انها صدقت بقولها ان لا صديقات لها . فبدأت قيمتها تسمو في نظره لرسوخ اعتقاده ان المزلة والقيمة كلمتان مترادفتان . إلا ان هذا الاعتبار لم يكن يتجاوز في ذهنه ما كان يسميه : « روعة المزايا السلبية في شخصية سولانج » .
وكان يفكر دائماً بان صوت الوحي الذي قال للقديسة تيريز : « انت التي لا وجود لها » ، يبقى صادقاً اذا قيل فيها . فالشعور المسيطر عليه ، بالنسبة اليها ، هو الاعجاب بجمالها الجسدي ، لا أكثر .

اما الآن فخيّل اليه انه يرى زجاجة صورة شمسية تتضح خطوطها ، وتتجلى معالمها تدريجياً في اثناء تظهيرها . فبدأت تتبين له صفات جديدة وتفاصيل كانت خفية في شخصية الفتاة ، وهي صفات وتفاصيل تسعده ، وتشرّفه . لم تكن ملاحظاتها وتقديراتها فذةً ، ولكنه لم يكن يتوقع منها مثل هذا الوعي ، وهذا السداد في الرأي ، فاذا هو يكتشف فجأة انه كان يجهلها ، ويجهل خصوصاً انها افضل منه . وكان اكتشافه شاملاً حتى خيّل اليه ان صوتها اصبح جديداً . كان يعرف لها ، حتى ذلك الحين ، ثلاثة اصوات : صوتها العادي مع الناس ، وهو لا يخلو من التصنع ، لا لأنها تحب التظاهر بما ليس فيها ، بل لأنها شديدة الحياء ؛ وصوتها الذي كانت تخاطبه به ، وهو طبيعي ليس فيه ما يسترعي الانتباه ؛ و «صوتها

الليلي » المؤثر ، العميق ، كأنه آتٍ من عالم آخر ، يحمل كلمات طرية ، ندية ، ويخرج من اعماق طفولتها خروج عصافير مرفرفة من اعماق بئر بعيدة الغور . والآن ، ها هي تتكلم بصوت آخر ... بصوت هادىء ، بسيط كل البساطة ، رصين ، فيه طمأنينة مريحة ، ونبرات رخيمة لا يمكن وصفها جعلت كوستال يقول في نفسه : « ما اقربه الى صوت بنات الاسر الشريفة ! » ثم قال لها :

ـ اخاطبك كأني اعرفك منذ خمسة عشر عاماً . ويسرني جداً ان تتحدث بهذه السهولة . اني لشديد الخجل من الطريقة التي كنت اعاملك بها في البداية . كنت احسبك بغياً . فاصفحي عني ...

ـ لا بأس . كنتُ دائماً مستعدة للاغضاء عن كل شيء . وقد أغضيت ، بالفعل ، عن اشياء كثيرة ...

قال في نفسه : « يا الهي ! ما هذه الاشياء التي اغضت عنها ؟ انها تعني ، ولا ريب ، استسلامها لي » . واكتشف في هذه اللحظة انها تقدّره بذلك « التساهل » الذي قالت يوماً انه يخالط عطفها على امها . لو تبينت له هذه الحقيقة في ما مضى لتبرم بها ، وحسبها جارحة ؛ اما الآن فقد ضاعفت حبه للفتاة واحترامه لها .

قال لها :

ـ انك اليوم في جوّ مشبع بالرصانة والجلال . فماذا حدث ؟

ـ احس ان ثقتي بك وبنفسي قد اشتدت ورسخت بعد ان جاوزنا ما كان بيننا من سوء التفاهم . قبل ان اعرفك كنت ارهب المستقبل . ولما غدوت الى جانبك لم اعد اشعر بالخوف . وعندما حدث بيننا سوء التفاهم الذي ذكرت اصبحت كاضمومة ازهار محصورة في رباطها الشديد ، فجئت الآن تحلُّ عنها الرباط ، فشرعت الازهار تتنفس بارتياح !

ـ اننا نحلّق في اجواء الشعر !

وبعد سكوت استطرد قائلاً :

– اعذريني . اني امزح حتى في فـترات الرصانــة ، والجدّ ، والتأثر العميق . ثم اني احب أن انقرك نقرات موجعة بعض الشيء .

– اعلم ذلك . بدأت افهمك .

– قلتِ لي كلمــة اود توضيحهـا . قلت انك « أغضيت » ، فما هي الاشياء التي اغضيت عنها حباً بي ؟

– ألا تعرفها ؟

– بلى ، اني احزرها . وانكِ على حق . فانت الفتاة العاقلة ، الرصينة ، المهذبة التي استسلمت لي عفواً ، بلا اقل مقاومة ، كما تسقط الورقة من الشجرة ... عندما افكر بكل ما كنت قد اعددته من الكلام المعسول لاغرر بك ، واوقعك في شباكي ، يخـامرني شعور غريب . كنت انوي الالتجاء الى التهويل للتغلب على عنادك ، ، كأنْ اقول لك ، اذا رفضت الاستسلام لي ، اني مصمم على مغادرة فرنسا ، وانك لن تري لي وجهاً بعد اليوم . ولكنك ما لبثت ان وقعت بلا مقاومة كاحدى اوراق الخريف ... لا بد من الاعتقاد ان هذا المصير كان مكتوباً لنا في لوح القدر . انك تتمتعين بجميع الفضائل ، ولاسيا الرئيسة منها ، ألا وهي فضيـلة الاستسلام من غير تردد ، او تظاهر بخوف مصطنع ، او حشمة كاذبة . اذا كانت المرأة غير سهلة المنال ، فهي ليست امرأة في نظري . واني اسألك الآن : ما هي الفائدة التي كان بوسعك ان تنميها من فضائلك ، وانت الى جانبي ، لو لم تقدمي لي نفسك بتلك السرعة الباهرة ؟

– لم استسلم لك إلا بعد ان اعطيتك كل شيء .

– الغاية تبرر الواسطة .

– الحق اني لم اغضِ عن هذا « العمل » الذي تنوّه به ، بل عن ... عن بعض محـاولات التمويه ... في ذلـك الفندق ، لما خلوتَ بي للمرة الاولى ...

فردد قوله السابق قائلاً :

ـ كورقة الخريف التي تسقط ، كثمرة يانعة لا تقاوم اليد التي تقطفها .
ومع ذلك ، فهناك نساء يقاومن احياناً ولو كنّ مصممات على الاستسلام ، ظناً منهن ان في المقاومة ما يصون الشرف .
ـ ان عظمة حبي لك لم تسمح لي بمقاومتك ، وهذا ، على الاقل ، ليس من نوع : الغاية تبرر الواسطة .
فاجاب بلهجة جدية رصينة :
ـ حقاً ان قضيتنا على جانب من الغرابة .
وكانت مستلقية على عطفة ذراعه بكل ضعفها وذبولها ، بكل احلامها الهائمة في ابعاد لامتناهية ، كأنها بقعة من النضارة والاخضرار في غضن صخرة احتفظ بقليل من الرطوبة .
لما دخل كوستال ، فرّت من امامه قطتان . ذلك ان البطولة فضيلة لا تتحلى بها جميع القطط . اما الآن فقد عادتا الى قاعة الاستقبال ، وراحتا تتبختران ، تدخلان وتخرجان بهدوء وصمت كأنها روحان . ومن حين الى آخر ، كان يُعرف انها هنا او هناك اذ تحدث حركاتها صوتاً يشبه الحفيف .
وبعد صمت ، قال كوستال :
ـ لا ريب في انك بحاجة الى نحت وهندمة وتكييف ، وستعود عليك هذه العملية بفوائد كبرى . اني ارى الآن هذه الحقيقة بكل وضوح .
ـ هذه سنّة الحياة . فالرجل يصنع المرأة كما يريدها . والمرأة تقبل منه كل شيء .
ـ ولكن الرجل لا يعلم ما يريد . ما اشدّ غباء الذكر ! وقد يحدث احياناً انه لا يهتم بهذا الامر . اني احبك ، واريد لك الخير ، ولكني لا ارغب في تكييفك ، أتدرين لماذا ؟
ـ نعم .
ـ كيف تقولين : نعم ؟ اراهن على ان ما اعنيه لأبعد من ان يخطر

في بالك .

– لا يهمك ان تكيّفني لأن لك من اعمالك ما يكفيك . انك منصرف الى الاهتمام بمؤلفاتك .

– اني اقبلك كما انت . ان لديّ اعمالاً اجدر باهتمامي من خلق الاشخاص . واذا كان روسو قد وضع ابناءه في الميتم ، فلأنه كان منصرفاً الى كتابة « اميل » [1] . انه ولا ريب عمل فظيع ، ولكن لا قيمة له في نظري . ان وقوعكِ بين يدي يدل على انك لم تحسني الاختيار ، وانك سيئة الحظ ، يا فتاتي المسكينة .

– لا ، لا ، لم يكن اختياري سيئاً .

ووضعت يدها على يده ، فقال :

– تقولين هذا الآن ! ولكني على موعد معك بعد سنتين ، لاعلم أثابتة انت على هذا الرأي ...

– ألا يجب ان يزداد الحب ازدياداً مطرداً ؟ اني لا اتصوّره إلا هكذا .

– هذا النوع من الحب ليس من شأني . اني اعرف الحب الذي يجري منحدراً كماء الجدول .

ولما كان يخاطبها مبتسماً ، ابتسمت له ، وانتهى الحوار بعناق طويل .

وراح يخاطب نفسه قائلاً : « انها تفتقر الى الذكاء . اجل ، هذه هي نقطة الضعف فيها ، وقد وضعتُ الآن اصبعي على الجرح . ولكن لا

---

[1] – من أهم مؤلفات جان جاك روسو ، عنوانه الكامل : « اميل او في التربية » ، وهو رواية تربوية تقوم على فكرة ان الانسان يخلق صالحاً ، وان المجتمع يفسده . لذلك دعا المؤلف الى التربية الطبيعية المطلقة ، وترك الاولاد يترعرعون على سجيتهم . وفي هذا المؤلف آراء وجيهة تسترعي الانتباه كضرورة تغذية الطفل بالرضاعة من ثدي الأم ، والمحافظة على الصحة بالاقامة في الهواء الطلق ، والاغتسال بالماء البارد ، والتعلم بالامثلة ، وتثقيف الحواس ، وتعليم الاولاد حرفاً يدوية . إلا ان المؤلف لم يسلم من المبالغة في اهمال التوجيه الخلقي ، والتنكر للدين والتقاليد .

ريب في انها طيبة »[1] .

وكم كان تصرفها معه في منتهى الوضوح ، فقد حاولت دائماً ان ترضيه ، فكانت تغير هندامها وازياء ثيابها وفقاً للملاحظات التي كان يبديها لها ، من حين الى آخر ، من غير ان تبلغ حد الغنج والتأنق . وسلمته نفسها من غير ان تتظاهر بالحياء المصطنع ، او تلجأ الى تلك الحركات المبتذلة التي تقوم بها جميع الفتيات . وكانت رصينة عديمة الفضول ، فما سألته قط عن حياته الخاصة ، ولا كانت البادئة في مخاطبته تليفونياً . واذا تكلمت معه بالتليفون اقتصر حديثها على ما تريد ان تقول . لم تكن تتدخل في ما لا يعنيها ، ولا تحاول الاستيلاء على من تحب ، ولا تعرف التصنع في سلوكها ولا في اعمالها . كانت من ابعد الناس عن تلك الوسائل السهلة التي كانت النساء الاخريات يلجأن اليها ليجذبنه اليهن ، في زمن اصبحت فيه الفتيات يهاجمن الرجال . ومما كان يدعو الى الاستغراب والعجب انها لم تحدثه مرةً واحدةً ، ولو تلميحاً ، عن مؤلفاته وانتاجه الادبي ، بينا كانت النساء الاخريات يحاولن التسلل الى حياته بالتحدث عن كتبه ، جاعلات من اعجابهن به مفتاحاً لقلبه . واعجبه منها انها لا تعرف شيئاً من شؤون الحياة الادبية المعاصرة ، ولا تتحدث عنها مطلقاً ، بينا هناك فتيات مثلها من حيث الجهل ، ولكنهن يختلفن عنها بالثرثرة ، يحاولن ستر جهلهن بعبارات مبتذلة ، طال اجترارها فأمسى الجميع يرددونها . ولم تكن سولانج بحاجة الى هذه المحاولة ، لبعدها عن الغرور وحب الظهور ، ولخلو نفسها من الفضول السقيم ، وحتى من الفضول الطبيعي الناجم عن الرغبة في المعرفة . ما أحبت يوماً ان تلمع بتمثيل دور بارز في الحياة الاجتماعية ، ولا ان تنافس الفتيات والنساء للتفوق عليهن ، ولا وقفت ذاهلة مشدوهة امام بريق القيم المزيفة ، او مظاهر الثراء المريض . فقد كانت مختلفة كل الاختلاف عن بنات جنسها ، خصوصاً عن تلك الابقار

---

[1] ـ اي انها شريفة ، لطيفة ، في لغة اهل الجنوب . ـ المؤلف .

المرتدية جاود نساء ... تلك الابقار المتصنعة بسماجـة ، الثقيلة الظـل ، الخالية من كل نكهة وقيمة ، كالقسم الاكبر من رفيقات الرجال المرموقين في زبدة المجتمع الباريسي . إلا ان هذه الميزة في سولانج كانت تسيء اليها في الظاهر ، خصوصاً الى جانب النساء اللواتي تفضلهن ، لأن تحجبها كان يلقي ظلاً على ألقها .

واحب كوستال هذه الصفات في سولانج واحس ان نفسه ترتفع في هذا الحب ببساطة وثقة وارتياح .

قال لها :

— اسمعي ، يا سولانج ، انت فتاة طيبة ! وطيبتك هذه ، بالنسبة اليّ ، أهم بكثير مما تتصورين . فمنذ زمن بعيد والناس يبذلون الجهود ، في الداخل والخارج ، ويعملون بحقد عميق وصبر لا يعرف الوهن ، ليجعلوا من فرنسا بلداً يشعر فيه الرجل الشريف ، النظيف ، الموهوب ، الفاضل ، انه في منفى . وكانت هذه الجهود طويلة ، مرهقة ، لأن الشعب الفرنسي شعب طيب ، فيه جوهر صاف اصيل . إلا ان المخربين نجحوا في النهاية . واعترف لك بصراحة ان كل شيء في نفسي قد تبدّل . فأنا الذي احببت بلادي بحرارة وايمان ايام الشباب ، وانا الذي كنت اشعر في اعماقي اني وهذا الوطن وحدة لا تتجزأ ، خصوصـاً زمن الحرب ، غدوتُ اليـوم احس اني غريب عن وطني ، وغير متضامن معه . وأخطر ما في الامر اني ارغب رغبة ملحّة في استمرار هذه القطيعة ، ورغبتي نابعة من كل ما في نفسي من نزعات اعتبرها شريفة وسامية . ولكن عندما التقي فتاة مثلك ، وتكون هذه الفتاة فرنسية ، تتضاءل تلك الرغبة ، وتخف الحركة الدافعة الى القطيعـة ، واسمع في اعماقي صوتـاً يهتف قائـلاً : « لا ، لا استطيع التخلّي عن كل شيء ... لا استطيع مغادرة الميدان ... »

قالت :

— ليس في شخصي شيء من الخوارق . اؤكد لك اني اعرف فتيات

عديدات مثلي، والقسم الاكبر منهن افضل مني بكثير.

- هذا ممكن، واصارحك باني جرّبت فتيات كثيرات قبل ان التقيك، وكنت اعتبر تلك الفتيات «دجاجات تجربة»، كما يقول الرياضيون في تعابيرهم الخاصة. ولكني ارى ان جهود المجتمع كلها، وربما جهود الرجال ايضاً، تبذل اليوم لاضفاء مظهر من القيمة على النساء التافهات. وتتذمر المرأة من انها لا تجد من يقدرها حق قدرها، ولكن لماذا ترضى بان يكون اقبح ما في جنسها في مقدمة المسرح، وفي طليعة ما يسترعي الانتباه؟ ولماذا تقبل بسهولة ما يوسوس به الرجل لتحقيرها وجعلها مهزلة؟ لماذا تجهل او تتجاهل مصلحتها الجوهرية الى هذا الحد؟

كلما تردّت المرأة في مهاوي الانحطاط والسخف، سواء أكان بزي جديد يجعلها دمية، او برقصة تمهّرها، او بطريقة في الحديث تبرز غباءها قولاً وفكراً، نجد وراءها رجلاً يدفعها الى هذه القباحة. فلماذا لا تقاوم؟

يلاحظ الجميع ان جسم المرأة التي تجاوزت سن الشباب يصبح شيئاً مضحكاً، ومقرفاً احياناً، يتسلى به المصورون الكاريكاتوريون، بينما يحافظ جسم الرجل على الكثير من رونقه وجماله حتى في الكهولة وجوار الشيخوخة. ومعنويات الرجل ايضاً تحافظ، كجسمه، على مستواها المحترم.

اذا فقدت المرأة شيئاً من معنوياتها اضحت شيئاً كريهاً للغاية. فهي لا تستقر إلا في احد نقيضين: السماك الاعلى، او الدرك الاسفل. عندما تفقد المرأة وقارها وتهذيبها وادب نفسها، تصبح خفاشاً[1].

- كنت اظن انك لا تحب سوى النساء المتساهلات الهيّنات.

- احب النساء المتساهلات اللوتي يحافظن على رصانتهن ووقارهن بين الناس.

---

[1] - استعمل المؤلف هنا كلمة Stryge، وهي تعني نوعاً من الخفاش الاسطوري العملاق، يقال انه يخرج ليلاً من القبور ويمتص دماء الناس وهم نيام.

ـ آه ، فهمت الآن !

ـ أتدرين ما الخفاش ؟ اني اعني به المرأة الخالعة العذار بوقاحة . ولو كنت استعمل لغة غير مهذبة لقلت لك كلمة اخرى . ان جميع النساء المتحذلقات المتظاهرات بالصون ، والنساء الطاغيات كالوطاويط ، والباذلات ما في وسعهن من الغنج والدلال ، والمترفات على عيون الناس ، واللواتي ينشرن صورهن في الصحف والمجلات وهن في اوضاع مغرية ، وتبرج صارخ ، جميع هؤلاء اسميهن خفافيش ، واضيف اليهن اللواتي اذا نظرت الى سحنتهن فلا يطيب لك إلا ان تصفعيهن .

ان رجال الديانات والفلاسفة وعلماء الاخلاق الذين لعنوا المرأة واحتقروها انما رأوا هذا الصنف من النساء ، فحكموا عليها . ولكنهم اخطأوا لانهم لم يحددوا النوع الذي استوجب سخطهم واستنزل لعنتهم .

واعود الى سؤال لا بد من طرحه : لماذا لا تبادر النساء الرصينات ، الشريفات ، الى الدفاع عن نفوسهن للتبرؤ من عار الخفافيش ؟ ألا يدركن الضرر الذي تلحقه بهن المرأة الخفاش ؟ ان ألد اعداء المرأة هي المرأة .

قلت لك ، منذ قليل ، اني عندما التقي امرأة شبيهة بك او بما يبدو عليك من المزايا يتحسّن رأيي في بلادي . ويذهب بي الفكر الى ابعد من ذلك ، فيتحسّن رأيي في جميع النساء ، والمس في نفسي استعداداً لمعاملتهن معاملة افضل . واذا كان الرجال يسيئون التصرف مع النساء ، فلأنهم يخافونهن ، ولأنهم موسوسون بالخفافيش اللواتي عرفوهن . ان القسم الاكبر من غلاظة الرجال ، ومن حوادث الهجر ، وفسخ الخطبة وغيرها التي تتألم منها النساء لناجمٌ عن ان الرجل يرى في المرأة ، او يخيل اليه انه يرى فيها خفاشاً ، سواء أكان هذا الخفاش ظاهراً او خفياً ، حقيقياً او وهمياً . ومهما تكن المرأة لطيفة وعبة ، ومهما تبذل من الجهود والمحاولات ، فانها تعجز عن محو هذه الصورة لها من ذهن الرجل . وهو في مثل هذه الحال يهاجم او يلوذ بالفرار . وفي كلا الحالين يعامل الرفيقة

الطبيعية لحياته معاملة العدو . وهكذا ترين ان الصالحات منكن يدفعن غرم الطالحات .

– قل لي ، ألم تمر بحياتك امرأة خفاش ؟

– لا ، قطعاً ! ولا استطيع الادعاء بفخر الدفاع عن نفسي لاني استفظعهن الى اقصى حد . أيحتك مثلي بهذا الصنف من المخلوقات ؟ لا ، لا . ولا ريب في اني ساموت وانا بريء من هذه الخطيئة . لم احب قط ، ولا استطيع ان احب ، او بالحري لا استطيع ان اطيق إلا المرأة البسيطة ، الشريفة .

في ارياف الهند الصينية ، كنت ارى كثيرين من النبلاء ، وهم رجال يتحملون مسؤوليات كبيرة ، ويرتبط بهم مصير مئات الجنود ، تتلاعب بهم . كأنهم دمى حقيرة نساء غارقات بالخزي والعار ، دميات ، حقيرات ، فاسدات ، ولكن حاذقات في الذبذبة والتصنع ، بارعات في المناورة السمجة على طريقة النجوم السينمائية . اؤكد لك ان الجاسوسات يجدن مجالاً واسعاً للعمل في الجيش الفرنسي .

قلت يوماً لأحد هؤلاء الرجال : « كيف تستطيع الانحدار الى هذا الدرك ؟ » فأجاب : « لا أجد افضل ... فاكتفي بما هو موجود » . قلت : « اما انا فلو كنت في جزيرة مقفرة ، ولا رفيقة لي فيها سوى فتاة متصنعة ، وإن تكن حسناء فاتنة ، لفضلت مضاجعة وكر نمل من النوع المفترس على حب هذه الرفيقة المتظاهرة بما ليس فيها » .

لو كان لي شيء من السلطة في احدى المستعمرات ، لأمرت بطرد جميع هؤلاء النسوة ، او بزجهن في السجون ... لا امانع في ان يقضي جنودي لباناتهم مع بنات الغاب ، مع الرجال ، مع الغلمان ، مع الأتن ، مع ورق الصبار [1] ، مع كل شيء . اما مع هذا النوع من النساء ، فلا . فالاضرار التي يلحقنها بمستعمراتنا لا يتصورها عقل .

---

١ – ورق الصبار من الوسائل التي يلجأ اليها الرجال في الفيافي الافريقية المقفرة . – المؤلف .

ورأت سولانج انه يتكلم بحرارة كأن في نفسه ناراً مقدسة ، فتذكرت ما قرأت في كتب التاريخ المدرسية من ان الثائرين ، زمن الارهاب [1] ، كانوا يقتلون مدفوعين بالفضيلة . إلا انها وافقت على جميع اقواله .

وبعد قليل ، لما عاد الى اساوبه المازح ، قالت له انها تريد ان تعدّ الشاي تكريماً لما ابدى من البلاغة والقوة في حديثه ، فسألها :

– أتحسنين اعداد الشاي ؟

– انك لا تعرفني ، فانا ربة بيت من الطراز الاول . تعال معي الى المطبخ لاعلمك . وسترى الهرتين تعزفان على الكيان الكبير .

قال لها ، وقد اصبح يعتقد ان كل شيء ممكن :

– أحقاً تجيد هرّتاك العزف على الكيان ؟

– لا ، لكنهما ترفعان احدى يديهما عندما تنهمكان بلحس صدريهما ، فتبدوان كأنهما تعزفان .

قال ، وهو الكاتب الذي تهمه الدقة في الوصف والتشبيه :

– ليست هذه الصورة موفقة في نظري .

وتبع الفتاة الى المطبخ .

وكانت الهرّتان قد سبقتاهما اليه ، إلا انهما لم تكونا تعزفان . ولا ريب في ان السوداء كانت تشعر بان يديها باردتان ، لانها جلست ولفتهما بذنبها ، بينما احست الشقراء بالبرد في ذنبها ، فوضعت يديها عليه .

ولما دخلا الى المطبخ ، فتحت السوداء عينيها ، وترددت الشقراء قليلاً كأنها تسائل نفسها هل من الموافق ان تقتدي برفيقتها ، ثم بقيت مغمضة العينين للاعراب عن قلة اكتراثها بما يجري حولها .

وكان يسود المطبخ صمت تام لا يعكّره سوى تكتكة الساعة الكبيرة . فاذا بهذه التكتكة الرتيبة تزيد الصمت بروزاً عوضاً عن ان

---

[1] – حقبة من تاريخ الثورة الفرنسية تميزت بشدة الاحكام وقطع الرؤوس على الشبهة بعد محاكمات صورية عاجلة .

غرفة . وهو في المطبخ اكبر منه في ردهة الاستقبال ، لان هذه الردهة تطل على ساحة البناية . وتبدو البيوت المجاورة في زيّ يوم الاحد ، اي خالية من السكان . ونوافذ المطابخ ، التي تكون عادةً مفتوحة في الايام الاخرى ، وتنبعث منها انغام الاسطوانات الفونوغرافية ، واصوات الخدم ، كانت في ذلك اليوم مغلقة ، وقد أسدلت ستورها ، وبدا في وسط هذه الستور ظل ثنيّة يدل على انها كانت مرفوعة طوال ايام الاسبوع ، فاذا بها شبيهة بثوب الاحد الذي ترتديه الخادمات ، وهو خالٍ من الذوق والاناقة .

وضعت سولانج ابريق الشاي على النار ، وتناول كوستال كتاباً من كتب الاحداث كان على الطاولة ، عنوانه « العطلة المدرسية » ، فقالت سولانج انها اعارته لابنة الطاهية التي جاءت من الريف لتزور امها وقضاء بضعة ايام بقربها ، فاجاب كوستال :

-- هذا الكتاب للكونتيس دي سيغور ! [1] لا يمكنك ان تتصوري الى اي حد ينطبق وجوده هنا على تفكيري بك منذ لحظة . كنت افكر بانك « الفتاة الصغيرة القدوة » التي يجدها هذا الكتاب ، فانت انت بطلته « مرغريت دي روزبورغ » . ان فتوّتي كلها تنبعث بظهور هذا الكتاب الاحمر ، وتنبعث مختلطة بك . كم تعجبني هذه الحال ، وكم انا سعيد بها !

وتصفحا ، واقفين ، الكتاب المفتوح على الطاولة ، فقرأ كوستال :

-- « وكانت العطلة المدرسية قد أشرفت على نهايتها ، والاولاد يتبادلون المحبة اكثر فاكثر ... » ، ثم قال :

-- ما اجمل هذا القول ! يبدو لي اننا نحن ايضاً نتبادل الحب اكثر فاكثر .

---

[1] -- كاتبة فرنسية (١٧٩٩ -- ١٨٧٤) ولدت في روسيا وألفت كتبا للاحداث : « شقاء صوفيا » ، « والجنرال دوراكين » ، امتازت بالبساطة ، وسلاسة الاسلوب ، ورشاقة السرد ، والوصف . وتعتبر مؤلفاتها من افضل ما كتب في هذا الباب .

فاجابت بلهجة كلها طفولة وبراءة ، وهي تدير وجهها اليه :

– اوه ! نعم . هذه هي الحقيقة .

والقت رأسها على رأسه كما يفعل كل اثنين يقرآن في كتاب واحد .

فدفع درفة النافذة بيده ، خوفاً من ان يراهما احـد ، فساد المكان ظلٌ قاتم ، وشرعت سولانج تقرأ :

– « انطرحـت مرغريت بـين ذراعي ابيـها الذي راح يقبلهـا حتى احمرت وجنتاها ... »

وضحكا معاً ، لأنه قال لها يوماً ان قبلاتـه كست وجهـها بلون الارجوان ، ثم تعانقا ، والتقت منهما الشفاه في قبلة طويلة نهمة .

وبعد قليل ، قال كوستال :

– ما اروع الكونتيس دي سيغور ! ففي كتبها روح الطبقة الرفيعة من الناس . ومن يقرأها من العامة يشرب حتى الثمالة مرارة بعده عن هذه الطبقة الممتازة . ان جميع الاشراف الصالحين يحملون لقباً ارستقراطياً ، وجميع الرعاع الاشرار محرومون هذا اللقب . وهذه افضل وسيلة للتعارف بين النـاس . اوه ! اوه ! هذه جملة تبدو لي كأنها موجهـة الى شخص اعرفه : « اود الآن ان تروي صوفيا لنا كيف وقعت تلك الحادثة ... »

قالت سولانج :

– وهل تعنيني انا هذه الجملة ؟

– اجل ، يا عزيزتي روزبورغ ، أليس في فتوتـك حادثة صغيرة ؟

– اي حادثة ؟

فراح يضحك من سذاجتها .

وبدأ الماء يغلي في الابريق مرسلاً صوتاً شبيهاً بالغناء الخـافت . ولما ارادت سولانج ان ترفعه عن النار منعها كوستال قائلاً :

– دعي هذا الماء يغنّي . ألا ترين انه يجد متعة في الغناء ؟ يخيّل لي اني اسمع الف ضجة في هذه الغرفة التي بدت لي منذ قليل غارقة في الصمت .

وقد بدأت اسمع هـذا الضجيج تدريجياً كما يعتـاد المرء رؤية الأشياء في الظلام عندما تطول اقامته فيه . ألا تسمعين الف ضجة صغيرة حولك ؟

— بلى ، اسمع ...

— كيف تقولين : « بلى ، اسمع » ؟ يا لك من مدعيـة ! ان للكتّاب وحدهم الحق في ان يتخيلوا وجود اشيـاء غـير موجودة . تستحقين ان امتحنك لانك اجبت دون تفكير : ألا أخبرتني ما هي هذه الضجات التي تدعين انك تسمعينها ؟

وامسك وجهها براحتيه ، فقالت :

— هناك ضجة قطرات الماء التي تتساقط ببطء من الحنفية في البلّوعة ، وهي ضجة كامدة صماء ؛ وضجة المـاء في داخـل ابريق الشاي ، وهي واضحة نشيطة ؛ وضجـة القطرات التي تتساقط من فوهـة الابريق على حديد الوجاق ، وهي شبيهة بضجة القاطرة المتأهبة للانطلاق ، وقد اشتد فيها ضغط البخار ؛ وضجة البخار الذي يرقص عليه غطاء الابريق ، وهي تشبه زفرة من يتنفس الصعداء مرتاحاً ...

فابتسم لها ، وشدّ قليلاً على خديها براحتيه وهو يردد قولها :

— ... زفرة من يتنفس الصعداء مرتاحاً ...

واستطردت قائلة :

- ان جميع هذه الضجات منتظمة ، رتيبة . ولكن هناك ضجات اخرى لا تخضع لنظام . ألا تسمع تكتكة قوائم الكرسي على البـلاط ؟ فالهرة السوداء تحك رأسها برجلها وهي جالسة عليه . والطاولة تقضقض كأنها تمد قوادمها وتتمطى من الكسل لاننا في يوم احد . ويتبادر الى الذهن ان هذه الضجات لا وجود لها إلا يوم الاحـد ، كأن الادوات البيتية تنعم بالعطلة وتعبر عن سرورها . والساعة الكبيرة تنظم بدقاتها جميع هـذه الضجات ، كأنها مديرة اوركسترا تعزف قطعة من موسيقى الباليه في الجوقة المسرحية الايطالية ...

قال كوستال وهو يرفع اليها وجهه :

– حقاً ، يا صغيرتي ، اننا في يوم الاكتشافات المدهشة . فمن اين جئت بهذه الروائع ؟ انك تنعمين بموهبتين كبيرتين : دقة الملاحظة ، واكتشاف الصورة المعبرة ، وهما الموهبتان الاساسيتان في فن الكتابة . كم كنت مخطئاً يوم حسبتك خالية كلياً من الخيال !

وكانت الفتاة ، في هذه الاثناء ، تتلقى بكفها قطرات الماء المتساقطة من الحنفية ، وتبعثرها على حديد الوجاق الساخن ، فتتبخر مرسلة ضجة خافتة شبيهة بحفيف ثوب من الحرير . قالت :

– ان القطرات الصغيرة تركض وتركض على الحديد الحار كأنها تحاول الفرار من التبخر المتربص بها .

وكان كوستال ينظر اليها بعيني رجل طال تحديقه الى اللهيب ، ثم قال :

– اجل ، انها كالجنود الذين يركضون ويركضون قبل ان يمزقهم انفجار القنبلة . فهذه القطرات ترهب الزوال ! واذكري انك اكتشفت هذا !

وتوقفت عن التقاط القطرات وبعثرتها ، فتوسل اليها قائلاً :

– ارجوك ان تموّتي كم قطرة بعد ، اكراماً لي .

فراحت تبعثر القطرات من جديد ، ثم توقفت ، فقال :

– بعد ، بعد ! لا اشبع من رؤيتها تتلاشى في دنيا العدم .

– كأني بك تجد لذة في هذا المشهد .

– انه لمشهد يذكرني بكلمة كان يرددها قائد فارسي من قادة داريوس كلما رأى جندياً يسقط صريعاً في احدى المعارك : « هوذا معتوه آخر يريحنا من وجوده ! » والحق يقال ان هذا القائد فيلسوف ، ولكنه ليس من النوع الجدير بالتشجيع .

وكانت سولانج منحنية على الطاولة تتصفح الكتاب الاحمر المذهّب ، فقالت :

– اود لو اجد جملةً عن العطلة المدرسية كانت تحدث في نفسي تأثيراً

عميقاً يوم كنت طفلة .

وفي ذلك الجو الصامت ، العابق بالسحر – سحر الماء المتساقط قطرات متباعدة من الحنفية ، وسحر الماء يغلي في الابريق ، وسحر النار المستمرة في الموقد ، هذه النار التي لا تخمد كنار الاساطير الميثولوجية ، وسحر الهرتين الجالستين بكل هدوء ، وحتى سحر ذلك اليوم الكئيب ، كأنه يوم شتاء في قلب الصيف – احس كوستال انه في محيطه العائلي القديم ، محيط الحياة الارستقراطية الحافظة بما فيها من قطط ، وكتب اناشيد الاطفال ، ودمى ، وحكايات « اندرسن » [1] ، وعلب موسيقى ، وهدايا عيد رأس السنة ، وجميع تلك الاشياء الصغيرة الحبيبة الباقية من انكلترا القديمة ، وفرنسا القديمة ، لابناء الاسر الارستقراطية ، والى جانب هذا كله سحر سولانج الصامت ، الصامت حتى عندما تتكلم ، فاذا هي « سندريلا » [2] جديدة تذوب رقة وحياء . ألم تقل له يوماً : « لو تواريت عن الانظار اسبوعاً لما انتبه اهلي لاختفائي ، لان الفسحة التي اشغلها في هذا البيت صغيرة لا تسترعي الانتباه ! » ولكن هذه الصغيرة المهملة ، المجهولة ، بعثت دنيا كانت راقدة ، وقدمتها له ، كأنها خلقتها عصا سحرية ... وهذه الغريبة البسيطة الساذجة فتحت له غرفة طفولتها ، واعادت اليه اريج ماضيه البعيد .

واذا بها تصيح :

– ها هي ! وجدتها . انها الجملة التي كانت تملأ نفسي احلاماً يوم كنت صغيرة . قال بولس لصوفيا : « هل نسيتني ؟ » فاجابت : « نسيتك ؟ لا !

---

١ – هانس كريستيان أندرسن (١٨٠٥ – ١٨٧٥) كاتب دانمركي ، ألف روايات امتازت بخصب الخيال ، وجمال الصور ، والكآبة الشعرية العذبة .

٢ – اشارة الى اسطورة فرنسية خلاصتها ان اميرة حسناء قست عليها خالتها زوجة ابيها ، فعاشت في الذل والحرمان الى جانب ابنتي خالتها الدميمتين الرافلتين بالرغد والترف . إلا ان جنية الاميرة ألبستها ذات مساء افخر الثياب وجعلتها تظهر في قصر ابن الملك الذي احبها . ولكنها هربت تاركة احد نعليها ، فاهتدى الامير به اليها واقترن بها .

بل كنتَ نائماً في قلبي ، فما تجرأت على ايقاظك ! »

فالقى كوستال نظره على الكتاب ليقرأ بعينيه هذه الجملة ، وهو يسائل نفسه : لماذا يشعر شعوراً عميقاً بانه يعرف هذه الجملة من زمن بعيد ، قبل ان يتعرف الى سولانج ؟ راح يطرف باجفانه وهو يجهد ليتذكر . ثم انجلت له الحقيقة ، فارتعشت وجنتاه . لقد قالت له امه يوماً في هذه الجملة ما قالته الآن سولانج ... قالت له امه : « لما كنتُ صغيرة ، كانت هذه الجملة تملأ نفسي اضطراباً ، فارددها بصوت خافت ، ولا ارتوي من ترديدها ... »

كان يجد متعة خاصة في التحدث الى سولانج عن امه . اما الآن وقد لمس بكل حواسه ان الجملة نفسها احدثت تأثيراً واحداً في نفس امه ونفس الفتاة ، على ما بينهما من التفاوت في الزمن ، فقد احس بعواطف طاغية تجيش في صدره ، فقال لسولانج ، من غير ان يملّق بشيء على ما يعتلج في صدره ، انه يحس بقوة هائلة تفعم قلبه . وخيّل اليه ان هذه القوة تنهمر على الفتاة كأنها اشارة سحرية تدل على مصيره ومصيرها .

واراد ان يخرج من ذلك الجو الثقيل ، فقال :

— وما رأيك في شبح الماريشال دي سينور [1] في البيت المسكون ؟ أيمكن ان يخشاه الصبيان الصغار ؟ اعترف لك بانه كان يرعبني ...

وشرعا يقرآن القصة معاً في الكتاب حتى وصلا الى المكان الذي وضع فيه الشبح سن خنجره على صدر الماريشال ، فقبّل هذا نجمة الروح القدس المعلقة على وشاحه ، فتأثر الشبح وعفا عنه .

ولدى هذا المشهد جاشت في نفس كوستال مشاعر غريبة مدهشة ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وانتابته رجفة ارتعدت فيها اوصاله .

---

١ - فيليب هنري ، مركيز دي سينور (١٧٢٤ - ١٨٠١) ، مارشال ، فرنسي ، تولى وزارة الحربية من سنة ١٧٨١ الى سنة ١٧٨٧ . وقد ورد ذكره في روايات الكونتيس دي سينور .

قـال كوستال لسولانج وهو يرتجف ، وعيناه مغرورقتان بالدموع :
- لما كنت حدثاً ، كانت الدموع تنهمر من عينيّ كلما وصلت الى هذه الجملة من هذا الكتاب ، كما حدث الآن . كنت ابكي لأن الماريشال نجا من الموت بفضل شجاعته ، ولأن الشبح لم يكن شريراً فتأثر بالشجاعة .
وانا ايضاً ، مثل هذا الشبح ، لست شريراً ، بدليـل اني مـا ازال أبكي حتى اليوم حيال هذا المشهد . واني مدين لك بكل ما أنعم به من متعة روحية ، فقد حولتِني الى افضل ما كان فيّ من المزايا ، ووضعتِني في جو اسرتي ومحيطها ، يوم كنت انساناً صالحاً محترماً من اناس صالحين ومحترمين . انا اعيش اليوم بين كتّاب ، وقد غدوت مهرّجاً وفاسقاً فاسد الخلال . مـا هي قيمة حيـاتي اذا استثنينا منهـا فترة الخـدمة العسكرية في اثناء الحرب ؟ لم اكن انساناً صالحـاً ومحترمـاً الا في حداثتي .
وانحنى واضعاً جبهته على الكتاب المفتوح وهو يقول : « اني اعمـل الآن ما تعملين عندما تطفئين الكهرباء كي لا تري وجهي وما فيـه من آثار ذنوب لم يحلّ بصاحبها العقاب العادل » .
اما هي فكانت واقفة الى جانبه تداعب شعره بلطف وحنان . فأخذ يدها الاخرى بين يديه ، واحس انها حارة كحفنة من رمال الصحراء ، ثم رفع رأسه وفي نفسه رغبة جامحـة الى البوح بحقيقتـه . وفي اغلب الاحيان كان يطرح هذه الحقيقة في النفوس المنحطـّة الحقيرة ، فتضيع ، ولكنها لا تضيع اذا طُرحت في نفس طاهرة . وليس لهذا الامر قاعدة

راهنة . قال لها :

– اذا تتبّعتِ فيّ شرياناً معيناً ، فقد تجدين سلسلة متواصلة من الاشياء الصالحة ؛ واذا تتبعت شرياناً آخر ، فانك تقفين على سلسلة من الفظائع . وليست هذه الفظائع صغيرة حسب تحديد القانون هنا او هناك ، اي حسب الاعتبارات والآراء في بعض الاماكن ، انما هي فظائع بالغة القبح ، لا يغتفرها الوجدان الانساني الحيّ . ولو لم ارتكب هذه الفظائع لكنت الآن في هوة من اليأس سحيقة القرار ، ولكان يأسي في شيخوختي اشد وادهى . لا أتّهم نفسي امامك رغبة مني في التواضع ، بل رغبة في اظهار الاشياء كما هي ، لتريها انت ايضاً كما هي ، من غير ضعف ، او خوف ، وهذا ما يعجبني وارتاح اليه .

ورآها تهم بالكلام ، فقال مسرعاً وعيناه شاردتا النظر ، كأن عليهما حجاباً :

– لا ، لا ، دعيني احدثك عن النزعة العاتية التي تختال في اعماقي .

ثم استطرد بحرارة وقوة ، فقال :

– دعيني اظهر كما انا ، بكل حقيقتي . ما الذي كنت احدثك عنه ؟ آه ، تذكرت ، كنت احدثك عن الشرايين ... حسناً ، فهذه الشرايين تمتد احياناً متوازية ، واحياناً تتقاطع فتتشعث ، وتختلط ، وتلعب فيما بينها . وانا احب اللعب . وفي بعض الاحيان يذوب احدها في الآخر . أفهمتِ ما اعني ؟ الصالح والطالح ، الخيّر والشرير ، يختلطان معاً ، ويتعذر التمييز بينهما . ففي ما اعمل من شرّ جزء احبّه ، وجزء لا احبه ؛ وفي ما اعمل من خير جزء احبه وجزء لا ابالي به .

وهنا سملت احدى الهرتين ، ثم أكمل كوستال حديثه قائلاً :

– لا ريب في اني أجد متعة في الشر ، وأجد في الخير متعة أكبر واعمق . ولكني لست واثقاً كل الثقة من ارتياحي الى الخير ... أتذكرين ؟ التقينا يوماً ، فبادرتني قائلة : « كيف معنوياتك ؟ ارجو ان تكون حسنة » .

فاجبتك : « اجل ، والفحش ايضاً على ما يرام »[1] . وهذا ما ينبغي لك ان تدركيه . احذري ان تفضليني على الفكرة التي كوّنتها عني في ذهنك . يجب ان تنظري اليّ نظرة عامة تشمل شخصيتي برمتها ، بما فيها من التوابع ، كالاصطبلات والمتنفعات . ومهما يكن من الامر ، فقد بعثت فيّ المتعة بالخير . ومن الضروري ان تعلمي اني تنعمت وسأظل اتنعم بالشر ، وبالضرر الذي سألحقه بالناس ، ولكني لن اتمتع ابداً بالضرر الذي سألحقه بك انت ، اقولها لك جاداً صادقاً ومن اعماق القلب .

وخرّ جاثياً على البلاط وهو يرتعش مقاوماً رغبته في مصارحتها بانه قد يقترن بها ليملأ نفسها سروراً . ولما كانت جالسة جانبياً على حافة البلّوعة ، واحدى رجليها متدلية ، لثم طرف تنّورتها ، ثم انتزع خفّها الرمادي اللون ، ووضع قدمها على شفتيه في مكان من الجورب فيه رتق صغير . وفي اغلب الاحيان كان يقبل من وجهها الاماكن الاقل رونقاً وجمالاً ، ظناً منه انها بملامحها الجميلة للجميع ، بينما هي له وحده بما فيها من عيوب . وها هو يقبل الآن مكان الرتق من جوربها ، لأن هذا الرتق افسح له في مجال التفكير انها فقيرة قليلاً ، وهذا ما كان يراود ظنه في بعض الاحيان ، وانها ليست من الاثرياء الحقيقيين ، وليس لها من الرغد والترف إلا المظهر الخدّاع ، ما يجعل الضرر الذي يلحقه بها يوماً ما اقبح وافظع مما كان يعتقد . ولما علم انها متوعكة قليلاً ، احس بعواطفه تغلي في صدره كما يغلي الماء على الموقد . وبعد سكوت طويل قال لها :

---

١ ـ استطاع المؤلف ان يتلاعب هنا بالألفاظ تلاعباً بارعاً ، لان كلمة Moral بالفرنسية تعني « معنويات » اذا كانت اسماً ، وتعني « كرم الاخلاق وصلاحها » ، واكثر ما تكون في هذا المعنى نعتاً . ولفظة Immoral هي عكس Moral التي تعني حسن الاخلاق . لذلك تمكن المؤلف من جعل بطله كوستال يتلاعب باللفظ والمعنى : فلما سألته سولانج عن « معنوياته » باستعمال كلمة Moral ، اجاب باستعمال عكس هذه الكلمة بمعناها الآخر ، فكان الجواب على جانب كبير من جمال البيان .

ـ انت ، انت الرصينة الهادئة كأنك تحاولين استعطاف القدر ... كم اريد لك الخير ! وهذه نزعة في نفسي من أغرب النزعات . وما أغرب ان يريد المرء خيراً للآخرين ! ان ما يجب هو ان تكوني دائماً مسرورة ، عندما تخرجين من بين ذراعي ، طبعاً . فعندما نكون معاً ، اود دائماً مكافحة الضرر الذي احدثه فيك !

ثم صاح بنزق :

ـ لا تحبيني ! لا تحبيني ! بذلك فقط تنقذين نفسك من العذاب الذي ينتظرك من حبي لك . اعلمي جيداً ، ولا تنسي ، اني مجنون . لست مجنوناً وحسب ، بل انا مجنون ايضاً [1].

واحس باصابع رجلها تتحرك تحت شفتيه . ومن خلال نشوته بفيض عواطفه ، رأى ان هذه الرجل هزيلة قليلاً ، وكان يفضلها اقوى وأوفر عافية . ثم رفع رأسه واستطرد قائلاً :

ـ التمس منك العفو عما سيحدث في المستقبل ، يا مرغريت دي روزبورغ [2] . ان الجزء الآلهي من نفسي هو الذي يلتمس منك المغفرة ، مسبقاً ، عن الضرر الذي سالحقه بك ، على الرغم من اني لا اؤمن بالله ، دون ان يكون هناك اقل سبب لزوال الايمان من نفسي . وأسألك هذا الغفران وانا الثم بالفكر نجمة الروح القدس المشعة [3] التي احملها انا ايضاً على قلبي ، وان تكن غير منظورة . وتذكري جيداً ، يا روزبورغ ، اني

---

١ ـ استعمل المؤلف هنا لفظة : Que ، بمعنى : وحسب ، ولفظة : Aussi ، بمعنى : ايضاً ، فقال : Je ne suis pas que fou, mais je suis aussi fou .
ومن المرجح انه يعني : لست مجنوناً بسيطاً كل ما فيه جنونه الطاهر القليل الخطر ، بل انا مجنون فضلاً عما فيّ من صفات اخرى تحجب جنوني وتجعله اشد خطراً ، لان الناس لا يرونه بوضوح ولا يحذرون شره .

٢ ـ بطلة القصة التي كانا يقرآنها معاً في كتاب الاحداث من تأليف الكونتيس دي سيغور .

٣ ـ اشارة اخرى الى احدى حوادث هذه القصة .

سأضربك ، ولكني لن اتمتع بالضرر الذي سالحقه بك .

ورأى الهرة الشقراء تتثاءب حتى تكاد تخلع فكيها ، فخاطبها قائلاً :

ـ أتراني اضجرتك ؟

وتعاقبت في ذهنه الافكار المتجانسة والمتناقضة ، ثم تغلبت فيه نزعته الى المزاح والمداعبة . وخلال هذا الحديث الطويل ، كان يحس انه بين تيارين من الهواء عاصفين ومتعاكسين يدفعانه تارة الى اليمين ، وتارة الى اليسار .

وهبّ واقفاً ، فوقفت الى جانبه ، والقت معصميها على صدره بحركة غريزية لدى جميع الفتيات الصغيرات ، او لأنها تعلمت هذا المشهد من السينما .

لم تنهضه حين جثا على قدميها ، ولم تذرف دمعة واحدة حين بكى . لم تكن قد ازفت بعد الساعة التي يستطيع فيها ان يُبكيها . وبينما كان يتكلم بحرارة تضارع الابتهال ، كانت تستمع اليه وهي واثقة بنفسها ثقة لا تنال منها حوادث تلك الفترة من حياتها ، كأنها تستمع الى طفل يهذي في المنام .

قالت له : لن تعمل شيئاً يُضر بي ؛ أعلمُ هذا حق العلم .

فتضايق من انها لا تعرفه اكثر ، وراح يقول في نفسه : وما حيلتي في ثقتها بي ؟ .

وفي هذه الاثناء كانت السماء قد صفت واشرقت ، ففتحت سولانج النافذة ، وكانت الكنارات تغرد في الخارج ، فاصبح من المحتمل ان تقع عليهما العيون ، وهما في عناقهما الطويل . فكر كوستال بهذا الاحتمال ، ولكنه لم يغلق النافذة ، كأن شيئاً قد حدث فاكسبهما حق العناق على عيون الجميع .

وظلا فترة متلاصقين ، كالسماء والبحر ، عندما يختفي خط الافق في بعض ايام الصفاء وركود الرياح ، ثم انفصلا ، وكل منهما مرتاح الى الآخر .

وفي مساء ذلك النهار الذي تحدثا فيه خمس ساعات ، بكل ما فيها

من الرغبة في الجد وقول الحقيقة العارية ، دون اقل مداعبة — حتى انهما احتقرا هذه المداعبة — اصبح كل شيء بينهما جديداً ، فما استطاع كوستال ان يجد سبيلاً الى النوم . فالاحترام الذي احسه لها نفى النعاس من عينيه . واحدث هذا الاحترام في جسده توتراً كله رجولة لم يشعر بمثله خلال ساعات الطهارة التي امضاها في ذلك المطبخ ، فاذا بهذا التوتر ينبري قوياً وخالياً من كل رغبة او صورة جنسية شهوانية .

قال في نفسه : « ان « المتظرفات » [1] يذكرن في خريطة الحب بلدة اسمها : « عطف على احترام » . ولم يكن قد خطر في باله حتى ذلك الحين ان الشعور بالاخلاق الحسنة يحدث مثل هذا التأثير في نفسه ، وكان اعجابه به كبيراً .

واحس انه عامل سولانج ، في هذا اليوم ، معاملة الخطيب للمخطيبة ، وانه من المستحيل ان لا تكون قد احست مثل احساسه . وللمرة الاولى في حياته رأى انه من المحتمل ان يمتطي « هيبوغريف » الزواج معها ، اذا اعربت يوماً ما عن رغبتها في الاقتران به . وكان يعلم علم اليقين ان الاقدام على هذه المغامرة ضرب من الجنون المطبق ، وان الزواج الذي كان يقول فيه قول « دون كيشوت » [2] : ليس من المحتمل ان تراودني فكرة الزواج حتى مع الطائر الاسطوري « فينيق » [3] ، سيكون بالنسبة

---

١ ـ فئة من النساء الفرنسيات المبالغات في التظرف وادعاء المعرفة ، في القرن السابع عشر ، اشتهرن بالتفلسف والسماجة وحب الظهور ، وقد صوّرهن « موليار » في تمثيليته Les Précieuses Ridicules تصويراً بارعاً يثير الضحك . ومن مبتكرات هذه الفئة انها جعلت للحب خريطة جغرافية فيها انهار « امانة » و « هيام » ، ومدن « عاطفة » و « وصال » و « خيانة » ، الخ ...

٢ ـ بطل قصة شهيرة للكاتب الاسباني « سرفنتس » ، وهي من زبدة الادب العالمي . ويرمز هذا البطل الى الانسان المثالي الذي يصارع المثالب فتصرعه ، لانها قوية وهو ضعيف .

٣ ـ طائر اسطوري قيل انه كلما بلغ الف عام من العمر أحرق نفسه في الشمس ، ثم بعث حياً متجدد الشباب . وثمة مؤرخون يذهبون الى ان اسم الفينيقيين مشتق منه (راجع كتاب اساطير الاقدمين للخوري ميخائيل غبريل) .

اليه ، بوصفه كاتباً ، نهاية مؤسفة ، بل كارثة ، لما يفرض عليه من الواجبات ، وارهاق الاعصاب ، والحاجة الى المال واضاعة الوقت ، ناهيك بما يخسر. بوصفه رجلاً ، لان الحرية ضرورية له كالهواء الذي يتنفسه ليبقى حياً . اما « الهيبوغريف » فلا يمكن ان يحمله إلا الى جهنم ، ولكن الزواج بسولانج كان اشبه بهوة سحيقة القرار ، انفتحت امامه فجأة ، وراحت تجذبه اليها بقوة لا تُقاوَم .

من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

٢١ حزيران ١٩٢٧

ايتها الآنسة العزيزة !

لي ابن عم ، ما يزال يافعاً [١] ، صريح القلب ، لطيف المعشر ، ولكنه على جانب من الطيش (والذنب في ذلك ذنب ابيه الذي لا يطاق) ، كان يوماً يتنزه ، فتلفن لابيه ، وخاطبه قائلاً :

ـ ألو . أهذا انت يا ابي ؟

اجاب الأب :

ـ اجل ، ماذا تريد ؟

قال الفتى :

ـ لا شيء سوى اني مسرور ، اتمتع بما احب من التسلية ، وهذا ما اردت ان اقوله لك .

وانا كنت مسروراً ، أمس ، في مطبخ . وقد استيقظت طبيعتي في موجة سروري ، فأحببت ان اخبرك بهذا الحدث ، وان اعلم كيف احوالك . اخبريني باختصار . لا اكثر من صفحتين . اعتقد انك كتبت

١ ـ يقصد المؤلف ابنه غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى : «الصبايا» ـ المؤلف .

اليّ في الآونة الاخيرة ، ولكني اعترف لك باني لا أتذكر شيئاً مما جاء في رسائلك . قد اكون اكتفيت بقراءة بضع جمل من بدايتها . لا اسألك : أسعيدة انت ؟ لاني اعلم ان السعادة ليست مقدّرةً لك . وهذا أمر أراني مقتنعاً به كل الاقتناع . ولكن ، هل الاحوال حسنة نوعاً ما ؟

الى اللقاء . لا تستطيعين ان تتصوري كم انا طيب ومستعد لعمل الخير مدة ربع ساعة . « فرصة سانحة لمن يريد اغتنامها » .

ك

في حياتي كلها ما دخلت مطبخاً . انه مكان مدهش ، فيه كنوز من الامكانات . فكيف كنا نعيش الى جانبه ولا ندري به ؟



لو كانت هذه الرواية موضوعة ، حسب الاصول المرعية في فرنسا ، لتحتم ان يكون مشهد المطبخ في نهايتها ، ولكان الجميع على ما يرام من الرضى والسرور : العقلاء المتمسكون بالقواعد ، لأن المشهد القمة يجب ان يكون في النهاية من كل رواية موضوعة على الطريقة الفرنسية ، اي حسب المنطق ؛ ودعاة الاخلاق الكريمة ، لأن هذا المشهد يعلل الأمل بان بطلي الرواية سينتهيان الى الزواج ، وهكذا تتمّ القصة بـ« اطلالة على قطعة زرقاء صافية من السماء » كما يقولون ، فتكون الرواية درساً مفيداً من أولها الى آخرها ، لان الروايات الفرنسية ، كالنفوس المسيحية ، تحتفظ بقدرتها على الخلاص في النهاية .

ولكن الحياة التي لا تجيد العيش تزعم ، بكل غباء ، انها قادرة على التفلّت من لياقة الرواية الفرنسية . وفي القصة التي نرويها ، كما جرت بالحقيقة ، يقع مشهد المطبخ الذي اكتشف فيه كلٌ من كوستال وصديقته مناطق محارمة من شخصيهما ، وهما جنباً الى جنب ، موقع قمة حقيقية ، ولكن له من القمة مزاياها ونقائصها ، لانه ، بعد بلوغ القمة ، لا بد من الهبوط . وقد انتهى هذا المشهد دون ان تكون له نتيجة .

ولما التقى الحبيبـــان من جديد ، بعد ذلك المشهد ، لزمت سولانج الصمت ، وكادت تبدو كئيبة . ربما كانت لكآبتها اسباب ، وربما كانت دون سبب . وقد تكون بقيت كما هي في حالها العادية . إلا انهما كانا قد ارتفعا بعلاقتهما الى ذروة غير مألوفة .

كانت بعض ملامحها وبعض حركاتها العفوية تبعث فيه الشك بانها تحبه

حباً عميقاً ، اذ لم يكن وجهها يشرق ابتهاجاً عندما تراه ... ومنذ خمسة عشر يوماً لم تفكر بتظهير الصور الشمسية التي اخذتها له ... وبينما كانت كثيرات من النساء يغمرنــه بفيض مــن العنــاية والتحبب ، كانت هي متحفظة ، لا تبدي ولا تعيد ...

قالت له مرةً : « ليس في حبنا حماسة جامحة ، لا من جهتك ولا من جهتي ، وهذه ضمانة لمتانة مودتنا » .

وكانت هــذه الـ « لا من جهتك » صدى لمــا قاله لها في ما مضى من انه غير ولهان بها . ولكن الـ « لا من جهتي » بدت له على شيء من البرودة .

وراح يفكر قائلاً في نفسه : « ان سولانج مصباح محجّب . لا ريب في انه مضيء ، ولكنه لا يشع » .

وتبين له انه لا يكاد يبتعد عنها حتى يزول تأثيرها عليه كأن شخصيته المستبدة قد طغت على شخصيتها الضعيفة . فهو الى جانبها يؤمن باستقامته وطيبــة عنصره ، فاذا ابتعد عنهــا عادت تعتلج فيــه الرغبــات الملتوية الشريرة . انــه بطبعه شديد الحذر كــأمير متسلط ، ودائم الاستعــداد للاعتقاد ان الآخرين يريدون به الضرر الذي لا يستنكف هو عن الحاقه بهم . ودون ان ينتبه ، بدأ يُحِلُّ نفسه المقلقــة في شخصية الفتاة الماثلة في ذهنه ، فاذا هو امام سولانج اخرى غامضة ، معقّدة ، كأنها انعكاس له . لقد خلقها خلقة جديدة على صورته ومثاله في نظرته اليها .

سألها يوماً : « ما رأيك في مداعبتي الاولى لك ، في غابة بولونيا ، خلال لقائنا الاول ؟ » فاجابت بانها دُهشت دون استياء ، وبأن موجة من الكره استولت على شعورها . وعلى ضوء هذه الصراحة راح يبالغ في تقديره ، ويعتبرها بليدة جسدياً ، ويقارن ، على صعيد المتعة الجنسية ، بينها وبين غيغيت وغيرهــا مــن النساء الملتهبات ، ثم يتنهد آسفــاً ، ويعطيهــا على اجتهادها الغرامي علامة ٢٠/٥ . وامعن في التحليل مدفوعاً برغبته الدائمة

في ابتكار النظريات وفي المقارنة بين الرجـل والمرأة ، فشرع يقول : « الرجل لا يحب بقلبه إلا المرأة التي اشتهاها اشتهاءً جنسياً . اما المرأة فتحب اولاً بقلبها ، ومن هذا الحب تنبع الشهوة الجسدية . الرجل الدميم محبوب ، اما المرأة الدميمة فلا . المرأة المحبة لا يهمها ان يبقى الرجل الذي تحبه يومين دون ان يحلق ذقنه ؛ وليس هناك رجل واحد يرضى بان يقبّل امرأة ملتحية » .

وفي بعض الاحيان كانت برودة سولانج تعجبه ، اذ يجد فيها ذريعة للمستقبل ، ومخرجاً للفرار الى حب جديد ، والى غزوة موفقة يغنم فيها رفيقة من نوع آخر .

لو ظلّت سولانج كما كانت يوم الأحد في المطبخ ، لكان من المحتمل ان يقترن بها . ولكن اذا ارادت هجره ، وكانت البادئة في اعلان القطيعة ، فانه سيهجرها ولا يبالي . ليس في العالم انسان يحتاج الى وجوده إلا ابنه ... وليس في العالم مخلوق لا يحل محله مخلوق آخر .

وعلى هذا الاعتبار لم يكن كوستال يشعر بالغيرة ، بل كان يعتقد ان الغيرة من الاحاسيس الشعبية الحقيرة . وسواءٌ أتدلّهت الفتاة في حبه ام هجرته ، فالامران في نظره متساويان ، على ما فيهما من تناقض ، لأنه قادر على الانسجام مع كلٍّ منهما بسهولة ، وارتياح ، وباقصى السرعة . فهو يحتدم حباً بقدر ما يحتدم حب رفيقة الساعة ، وينساها اذا شاءت ان تنساه . وله من الامكانات النفسية والسيطرة التامة على عواطفه ما يمكنه من التصرف كما يريد .

وتبادر الى ذهنه ان علاقته بسولانج قد تكون آخذة في الافول ، فرأى انه يسيء اليها اذا تأخر في توضيح موقفه منها لاعطائه طابعاً شرعياً ، لأن حالة نصف العذراء التي كانت سولانج فيها لا ترضي فتاة مثلها توّاقة الى الكمال المطلق . واعتَقَدَ ان ساعة البت في هذه القضية قد ازفت ولم تعد المماطلة فيها جائزة .

ولهذه الغاية ، اجتمع بسولانج في منزله مساء ، وخلا بها في تلك الغرفة التي كان يسميها « قبر المرأة المجهولة » ، فاذا بالباب يُقرع ...

من يكون هذا الزائر غير المنتظر بعد الساعة التاسعة والنصف ؟

كان الخادم قد انصرف منذ ساعة ، فلا يمكن ان يكون هو الطارق .

نهضت سولانج مذعورة ، وجلست في السرير تحملق في الظلام ، فجعل كوستال يهدّيء من روعها . وكان اعلان كهربائي احمر يشع في الخارج طابعاً على ذراعي الفتاة وكتفيها نقطاً ارجوانية ؛ وتسلل النور الخارجي من خلال عوارض ستار النافذة فألقى على وجهها خطوطاً متوازية بعضها اسود وبعضها ابيض ، فبدت كأنها سجينة وراء قضبان حديدية . وكان هذا السجن الخيالي حبيبا لكوستال ، إلا انه لم يفكر بهذا الأمر .

وعاد الزائر الليلي المجهول يقرع الباب من جديد ، ثم أعاد الكرة للمرة الثالثة واطال القرع ، فنزلت سولانج من السرير وتوجهت الى المغسل .

وتبعها كوستال . ولما شرعت ترتدي ثيابها ، توسل اليها ألا تفعل ، ولكنها كانت قد فقدت رباطة جأشها وغدت فريسة الارتباك . ومرت دقيقة ، فجلست سولانج على احد المقاعد وهي نصف عارية .

وقُرع الجرس من جديد ، ثم راح الزائر يضرب الباب بقبضتيه ...

فذهل كوستال هذه المرة ، واحس بشيء من الخوف ؛ واسرعت سولانج فارتدت ثيابها ، فاذا هي فتاة في قيافة لائقة ، ولا يجهل ذووها انها تزور الكاتب الصديق في منزله من حين الى آخر . ولكن هذه الفكرة المرتجلة لم تكن كافية لازالة اضطرابه . فهو رجل عصبي المزاج ، قرع عليه باب مخدعه وهو في السرير مع فتاة عارية ، فكيف يستطيع تبرير موقفه لو وقعت عليه العيون ؟

ولكن الزائر توقف عن قرع الباب ، فمشى كوستال في الظلام على رؤوس اصابع قدميه الى البهو الخارجي ، ليتثبّت من ان الزائر غير متربص في

الشارع ، فرأى تحت الباب بطاقة دُسّت من الخارج ، واذا هي من اندريه !

رفع كوستال هذه البطاقة الى النور وقرأ فيها :

« احدثتْ رسالتك في نفسي تأثيراً عميقاً ، فاحببتُ ان نتفاهم ، وان نتفق على شيء ، فركبت القطار واتيت اليك . انت الآن في منزلك ، بدليل ان احدى الغرف مضاءة . ولكن لا بأس ... ارجو ان ترسل اليّ برقية الى العنوان التالي تضرب فيها لي موعداً ، واودُّ ان يكون موعدنا غداً اذا لم يكن ثمة مانع » .

تباً لهذه المرأة ! لم تكتفِ بارهاق اعصابه من بعيد ، فجاءت تقرع بابه بعد الساعة التاسعة والنصف ليلاً ... وضربت الباب بقبضتيها كأنها تسوق بغلاً ... وراقبت نوافذه كأنها من رجال المباحث ، وازعجته ومن يحب ، وهي التي لا يحبها .

قال لسولانج ان الزائر « صديق أبله » ، ولكن لما سألها أتريد البقاء معه ، اعتذرت لأنها مضطربة الأعصاب ، فقال لها :

– لا تعتذري ، فسيظل صوت هذا الجرس يرن في اذنيك طويلاً ، وستسمعين ضرب القبضتين على الباب ... فانا ما ازال اسمع ازيز الرشاشات على الرغم من مرور تسع سنوات على الحرب ... وضربُ القبضات على الباب يذكرني بالرشاشات . فلننْسَ سهرتنا في غابة بولونيا . وغداً انتظريني على مقربة من منزلك ، الساعة الرابعة إلا ربعاً ، لنذهب معاً الى منزلي الريفي .

وكان منزله الريفي بيتاً صغيراً تحيط به حديقة في شارع « بور رويال » ، ولم يكن كوستال يذهب اليه إلا نادراً .

ثم كتب برقية الى اندريه ، فكان شيطان المكر ينظر من فوق كتفه الى ما يكتب .

كتب اليها يقول :

صديقتي العزيزة ! (ومنــذ خمس سنوات لم يكتب اليهــا : صديقتي ، إلّا هذه المرة) .

كم انا مسرور بان اراك ! لو علمتُ انك انت التي قرعت الجرس ، لما ترددت في فتح البـاب ، على الرغم من اني كنت عاريـاً ، لاني كنت وحيداً اعاني الضجر ! تعالي غداً ، ٢٥ حزيران ، الساعة الرابعة والنصف ، الى شارع « بور رويال » ، المنزل رقم ٩٦ ، واقرعي الباب ثلاث مرات . ان ضرباً من الجنون البريء جعلني احب هذا المكان وامضي فيه بعض اوقاتي منذ سنوات عديدة ، وسنكون في نجوة من ازعاج الناس . لكِ :

لوِ

ملاحظة . — بكتابتي اليك الآن اخون امرأة اخرى . مـا ألطف الخيانة واحلاها !

●

وخرج مع سولانج .

كانت النجوم ترقص في السماء كـذرّات الغبـار في اشعـة الشمس ، فاوقف السيارة امام احد مراكز البريد ، وناول سولانج البرقيــة التي كتبها الى اندريه قائلاً لها :

— في وسعك ان تلقي نظرة على العنوان ، لتري ان هذه البرقية مرسلة الى امرأة ...

فنظرت اليه وفي عينيها مزيج من الاستفهام والخوف ، فقال :

— هذه امرأة أعاقبها .

— علامَ تعاقبها ؟

— على اني لا احبها .

ولما عاد الى منزله ، كتب في مفكرته :

« على شرفة منزلي ، الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً ، أتذوّق بكل

حواسي لذة المكر والخيانة . انها لحالة حافلة بالمتعة ، حتى اني لأسائل نفسي كيف يخرج منها المرء بدون سبب جوهري خطير . السماء فوق المدينة وردية اللون كالحديد عندما تلفحه حرارة النار . نسمات من الزمرّد تجري على وجهي » .



في اليوم التالي ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، وصل كوستال وسولانج الى منزله في شارع بور رويال . ولسنا بحاجة الى وصف هذا المنزل ، لأنه عش غرام بكل ما في هذه الصفة من قباحة . إلا انه يمتاز باشياء مبتكرة لا مثيل لها في البيوت التي هي من نوعه ، فكل قطعة من اثاثه تحمل لوحة على الطريقة الاميركية المنتشرة في فرنسا ، وكل واحدة من هذه اللوحات تحمل جملة من وحي صاحب البيت ، ومن هذه الجمل ما يلي :

سيداتي !

لا تقدّمن للرجال اكثر مما يطلبون اليكنّ .

السيد لا يتزوج .

السيد لا يعيد الرسائل الى صاحباتها .

●

لم تكن هذه الكلمات دليلاً على حسن الذوق ، ولكن لها عذراً في كونها من وحي طيش الشباب . وارتياد القمم الاخلاقية الشامخة يصبح اطيب مذاقاً عندما ينحدر منه الرائد احياناً الى السير على الارض المنخفضة .

قال كوستال لسولانج :

ـ ليست هذه الكلمات كلها موجهة اليك ، فلا تجزعي . ساعيد اليك رسائلك . والآن اتبعيني .

وكانت هناك عليّة يُرقى اليها بسلّم ، اطلق عليها كوستال اسم « البرج الحسام » ، وهي شبيهة به لانها تشرف على البهو ، ولأن

الحمامات البشرية تختبىء فيهـا كلما دعت الحاجة الى تواريهن . وفي بعض الاحيان كان يطلق عليها اسم « كولومباريوم »[1] ، اي المكان الذي يحفظ فيه رمـاد الموتى ، عملاً بخرافة قديمة يعتقد اصحابها ان الافكار الحزينة تثير الرغبة في التمتع باللذات ... مع ان كوستال لم يكن بحاجة الى ما يثير هذه الرغبة في نفسه .

وفي هذا المكان ، وقف كوستال في صمت شبيه بالهدوء الذي يسبق العاصفة ، ثم خاطب سولانج قائلاً :

– والآن ، يا صغيرتي الحلوة ، انتهت مرحلة اللعب والمزاح ، ولا بد لنا من ان نخطو الخطوة الحاسمة . فعلى هذا السرير ستصبحين امرأة بعد قليل . في وسعك ، منذ الآن ، ان تنظري بانتباه الى ما حولك ، وان تغرسي ما ترين في ذهنك ، اذا صحّ ما يقال من ان للعمل الذي انتِ مقبلة عليه اهميةً في نظر الفتيات . ولا ريب في انه عمـل مهم . فهو كبقعة الزيت في امتداده حتى يشمل حياة المرأة كلها . حاولي اذاً ان تقومي به قياماً حسناً . وبانتظـار الفترة الحاسمة ، عليك ان تقيمي هنـا بكل هـدوء كثمرة الخرشوف . فبعـد قليل سأستقبل زائراً في البهو . دونك هـذا الستـار ، فاحتجبي وراءه ، ولكن بوسعك ان تري وتسمعي كل شيء دون ان يراك احد او ان يشعر بوجودك . والى اللقاء . اما اذا كنتِ بحاجة الى ما يساعدك على الاعتصام بالصبر ، فهذه كتب تعلم مبادىء الاخلاق . فاليك بهـذا الكتاب ، مثلاً : « الاخـلاق قبـل الفلسفة » ، تأليف « لويس مينار »[2] ؛ انك تجدين فيـه الخطوة الواسعة

---

١ ـ استطاع المؤلف ان يتلاعب هنـا بالمعاني لمـا بين لفظتي Colombier و Columbarium من التقارب اللفظي على الرغم من تباعدهما المعنوي ، اذ ان اللفظة الاولى تعني : بيت الحمام ، ومعنى الثانية : بيت رماد الموتى .

٢ ـ عالم كيميائي (١٨٢٢ – ١٩٠١) اكتشف الكولوديون المستعمل لتضميد الجروح ولتظهير الصور الشمسية . خلّف مؤلفات قيمة ، اهمها : « تأملات وثني متصوف » و« دراسات في احوال اليونانيين القدامى » .

التي سجلتها الاخلاق بفضل الفلاسفة . آه ! ما اروع براعتهم في هذا الميدان !

ونزل الى البهو حيث جلس على احد المقاعد الوثيرة ، وهو يسائل نفسه عن الخطة التي سيتبعها في استقبال اندريه . ثم احس بامجاده الماضية في مثل هذا الميدان ، فرأى ان القضية ليست جديرة بالاستعداد ، واعتبر اهتمامه بالتحدث الى اندريه خطيئة تنال من كرامته ، فقرر ان يصرف تفكيره عنها .

وراح يتصفح احدى المجلات ، ويذكر سولانج المختبئة ، الغائبة والحاضرة معاً ! أليست شبيهة بالله في حضورها الراهن وبعدها عن الحواس ؟

غرق في لجة من الغموض النيّر الواضح ، وعصفت به نزعة روحية ، فنظم الابيات التالية :

إلهي ! لا تحتجب في جلالك العظيم

إلّا ظاهرياً عن رؤية عيني ؛

ومهما اوغلت بعيداً في صمتك البهيم

لا تصمّ اذنيك عني .

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ، لم تكن اندريه قد وصلت بعد . ومرت عشر دقائق اخرى ، فسُرّ كوستال بتأخرها لأنه وجد فيه مبرراً اضافياً للشر الذي ينوي انزاله بها ، فهو يستطيع احتمال الاهانة ، والعار ، والهجران ، وفقدان الحب ، والافلاس ، وجميع المصائب برباطة جأش ، وحتى بشيء من المرح ، ولكنه لا يطيق الانتظار . وكان يقول للنسائه ، منذ الموعد الاول : « الصفة الفضلى في العاشقة هي الدقة في ضبط المواعيد . وما خلا ذلك فثانوي كله » . قالها لسولانج ايضاً ، وكان يسجّل في مفكرة خاصة عدد دقائق التأخر عن الموعد لكلّ من صديقاتـه . فاذا بلغت جملة هذه الدقائق خمس ساعات بادر الى القطيعة مبدئياً على الاقل ، ولكن بعد ان يكون قد انذر الصديقة المذنبة ثلاث مرات : مرة عندما بلغت دقائق تأخرهـا ساعتين ، ومرة عندما بلغت

ثلاث ساعات ، ومرة عندما بلغت اربع ساعات ، وذلك عملاً بالمبدإ العربي ، القائل : « قبل ان تقتل الافعى ، انذرها ثلاث مرات » . ولم يكن تأخر سولانج قد بلغ ، حتى ذلك الحين ، اي طوال ستة اسابيع ، سوى ساعة وسبع دقائق . وكانت هذه نسبة مشرّفة لها .

وفي الساعة الخامسة إلا ربعاً قرع الباب ، ثم دخلت اندريه ، فبادرها بقوله لها :

– ها انك قد عدت ، ايتها الآنسة العزيزة ! فالمثل يقول : « القط الواقع في غليان المرجل لا يخشى الماء البارد ! [1] »

ولما صافحته احتفظت بيده في قبضتها فترة طويلة ، فتضايق . ورأى انها تبدلت نوعاً ما . فقد كانت في ما مضى تكتفي برش وجهها بقليل من البودرة ، وبرسم خط ضئيل من الحمرة على شفتيها ، فاذا بها اليوم متبرجة على نطاق واسع ، ولكن بطريقة ريفية تفتقر الى كثير من الذوق : فالحمرة صارخة ، والبودرة متراكمة في اماكن من الوجه ، وخفيفة في اماكن اخرى . وكانت ساقاها عاريتين . ويمكن تفسير هذا العري باشتداد القيظ ، إلا ان له ، بالحقيقة ، تفسيراً آخر ... وكان وجهها هزيلاً ، جافاً ، كوجه كاتب مجتهد لم يقرّظه احد في الصحف منذ زمن بعيد . وبالاختصار بدت له كأنها نبتة محرومة من الريّ . وكانت عيناها مطوقتين بدائرتين زرقاوين ، واسعتين ، باردتين ، يمتد منهما خطان الى جوار الصدغين ، كالخر الذي تخلّفه السفينة وراءها في مياه البحر . ولم يكن كوستال قد رأى هذه الدقائق من قبل ، فهاله منظرها القبيح في ضوء النهار الفاضح ، وتبادر الى ذهنه ان الفتاة الماثلة امامه غدت ضحية عادات سرية .

وأجالت نظرها في اللوحات الموزعة على قطع الأثاث ، فقال لها :

---

١ – يقال هذا المثل في اللغة الفرنسية لمن يواجه مصيبة صغيرة بعد مروره بكارثة ، ويقابله باللغة العربية المثل القائل : « من شرب النهر لا يغص بالساقية » .

ـ لا ، يا آنسيتي العزيزة ، لستِ في مكان رديء يُخشى شرُّه . كل ما في الامر اني اضع فيه هرتي في موسم السفاد مع هرٍّ فحل ، ولكن احد الاثنين يرفض دائماً التجاوب مع الآخر . وفي اغلب الاحيان يأتي الرفض من جانب الذكر . ما اغرب اطوار الطبيعة ! يجب ان اسجن الهر يوماً ما هنا مع فأرة ، فقد تولد في نفسه الرغبة !

قالت :

ـ الرغبة في ان يفترسها ، بعد ان يكون قد عذّبها طويلاً . وفي هذه الاثناء ، تكون انت وراء زجاج النافذة ، تنظر الى هذا المشهد بلذة وارتياح ... أكاد اراك في هذا الموقف العزيز على قلبك .

اجاب باشمئزاز :

ـ ما اقبح هذه الصورة التي ارتسمت عني في ذهنك !

وكانت واقفة حياله ، وهي تحت تصرفه المطلق . فراح يفكر باحثاً عن افضل طريقة لتعذيبها الى اقصى حد . ففي الليلة السابقة انفتحت في نفسه هوة سحيقة من الشر لما قرعت بابه . وكان منذ خمس سنوات ، وحتى ذلك الحين ، يكبت رغبته ويكبح جماح نفسه كي لا يتفوّه بكلمات جارحة ؛ اما الآن فقد ازفت الدقيقة المنتظرة بفارغ الصبر ليدفق ما في صدره من حمم الغيظ والنقمة . كل ما كان فيه من الشفقة ، والعطف ، والصبر ، حوّله قرعُ الباب في الليلة السابقة الى شراسة ، بعملية تكاد تكون كيميائية ، من تلك التفاعلات التي تقلب الاشياء الى عكسها ، فينقلب اللبن دماً .

وجعل يخاطب نفسه قائلاً : « اللبن والدم سيّان . احب اللبن والدم كما احب ارواح الموتى » .

وتصلب كل ما في عزمه وارادته ليزيد هذه الشراسة قسوة وضراوة ، وعاد يقول في نفسه : « كنت اشفق فاحس باني بطل . ولكن هذا الشعور كان يزعجني » . ولم يبق عليه إلا ان يطلق العنان لذلك الشخص الآخر الذي نشأ فيه بعد كبتٍ طويل ؛ لم يبق عليه إلا ان يلقي على اندريه

ذلك الوقر الثقيل الساحق الذي ما برح ممسكاً به ، فوق رأسها ، منذ خمس سنوات .

استيقظت فيه قدرته على تعذيبها وجعلت تتمطى ببطء الواثق بقوته ، فراح ينظر اليها نظرة المصارع الى خصمه ، ليختار الاساوب الافضل للقبض عليه والبطش به .

وتذكر انها كتبت اليه يوماً عبارة قالتها كليوباترا لانطونيو ، وهي : « ليس لجودتك فصل شتاء » . فقال في نفسه : « ولماذا اعطف عليها وارحمها ؟ اني لا ادرك لهذه الطيبة سبباً . ثم ، لماذا تكون جودتي خالية من الشتاء ؟ ان الشتاء فصل جميل للغاية عندما ينظر اليه المرء بالنسبة الى تأثيره في الآخرين . ليعش من يستطيع ان ينفخ من فمه البرد والحرارة ! اذا كانت نفوس الابرار كالاشجار الخيّرة ، كما قال الانجيل ، فمن واجبها ان تحب الشتاء بقدر ما تحب الصيف ، وان تحب الجدب بقدر ما تحب الخصب ، وان تحب الظلام بقدر ما تحب النور . لا بد من اشياء وعناصر عديدة لتكوين الانسان . أحِسّ ان في نفسي جميع فصول السنة ، وهي تتوالى بلا انقطاع . اني كونٌ يدور في الفضاء ، عارضاً للشمس ، على التوالي ، جنباته المختلفة . اجل ، على التوالي ، ودائماً على التوالي . وستعرف اندريه الآن ثمن الشفقة التي غمرها بها رجلٌ مثلي طوال خمس سنوات » .

قال لها متصنعاً اللطف :

— انك عارية الساقين . ويذكرني هذا المشهد بان الشبان الفرنسيين من الطبقة البورجوازية الرفيعة في الجزائر ، اذا ارادوا الايقاع بفتاة من الطبقة البورجوازية الرفيعة ، اخذوها بالسيارة الى احدى الغابات المجاورة للمدينة . فاذا رفضت الاستسلام لهم هناك ، انتظروا الليل ، ثم انتزعوا منها حذاءها وتركوها وحدها وعادوا بسيارتهم . فترجع بما تيسر لها من وسائل ، وهي عارية القدمين . ولا تقل المسافة بين الغابة والمدينة عن ١٢ كيلومتراً .

ـ ما اشقى فتيات هذا البلد !

ـ ما حيلتنا في الامر ؟ هذه طريقة تكره الفتيات على التصلب والجري على القدمين . اقولها دون تلاعب بالالفاظ . وعلى كلٍّ منا ان يجيد الدفاع عن نفسه ، أليس كذلك ؟

ـ اجل ، الدفاع عن النفس ! مساكين انتم الذكور ! انكم تدافعون تارة ضد المرأة التي ترفض ، وطوراً ضد التي تطرح نفسها على رؤوسكم .

وفجأة راحت تسرع في كلامها ، وتتدفق بحماسة ، وتكاد تتلجلج ، كأنها تهرول على سفح شديد الانحدار ، فقالت :

ـ اما انا فعلى الرغم من ظنونك بي وآرائك فيّ ، لم اطرح نفسي عليك ، لم اتوسّل اليك ، بل قدمت لك نفسي . وهذا نقيض ما تظن تماماً . ولكنك رفضتَ تقدمتي . فلا بأس . فمن يصبح محبوباً يفقد جزءاً من حريته . على ان هذه السنّة مفروضة على كل حيّ . ان استمرارك في الحياة يوجب عليك القبول باستبداد الزمن ، والمسافات ، والحرارة ، والاحوال الجوية ، والحاجة الى الطعام والنوم ...

ـ حياتي كلها قائمة على هذه القاعدة : تخلّص من كل ما لا تحتاج اليه .

ـ اذا كنت تود ان تخشى شيئاً ، ففي وسعك ان تختار غير الحب ، ولاسيما حبي ، لأنه لا يخيف . وانت ادرى الناس باني ما ألححت عليك إلا قليلا . فقد خرجت من حياتك صامتة ، وما ازال ألتزم هذا الصمت واغرق نفسي فيه . أتسمح لي أن اصارحك بالحقيقة ؟ كنت متعبة ، الى اقصى حد ، منك ومن هذا الحب الشقي الذي لم يتغذّ ، طيلة حياته ، إلا من نفسه . في عذابي الطويل بدأت اعتقد اني غدوت ، في نظرك ، ميتة لا تتحرك ، وانك حذفتني نهائياً من حياتك وفكرك ، فاذا بك تكتب اليّ . صحتَ بي : « أعيدي ، أعيدي » ، كي ارجع الى خشبة المسرح ، كأن الدور الذي امثله قد اعجبك ، وهو مزيج من المأساة والمهزلة . ما اقدرك

في فن القبض على النساء والمحافظة على احتدامهن في سبيلك ! لماذا جئت اليك الآن ؟ اولاً لأبرهن لك اني غير مستاءة منـك ، ثم لأني لم اتخلَّ بعد عن امنيتي على الرغم من كل ما كتبتُ اليك . فالطريقة الوحيدة التي تستطيع ان تكرهني بها على التخلّي عنك هي ان تصارحني بانك لا تحبني . لم تقل لي قط انك لا تحبني . منذ اربع سنوات وتسعـة اشهر لم اسمع منك مرة واحدة انك لا تحبني . هربتَ مني ، اجتذبتني ، ولكنـك لم تقطع علاقتك بي ، بل كنت تعود اليّ بطيبة خاطر بعد فرارك مـني ، لانك ضعيف في قرارة نفسك . .

رفع كوستال يده الى رأسه بحركة من يريد ان ينتزع شعره من شدة الغيظ وهو يقول في نفسه : « رأسي ! رأسي ! أكاد اصاب بالصداع ! » واستطردت اندريه قائلة :

– جئتُ لأسمع منك كلمة الرفض ، اذا كانت هي التي تريد حقاً ان تقولها . جئت لاسمعها من فمك . ومها يكن من الامر ، فيجب ان نلجأ حالاً الى المبضع لنعالج هذا الدمّل المزمن بيننا .

اجاب دون ارتباك :

– حسناً ، سننظر في هذا الامر .

ولم يكن قد قرر بعد مـا ينوي قولاً وعملاً . ونظر اليهـا بانتباه ، فادرك الغاية المبيّتة من تعرية ساقيها البيضاوين ، وتزيين وجهها بالبودرة والحمرة ، والتان تسريحتها ... ولكنه لاحظ ان ثوبها مفتّق قليلاً ، وان طرف قميصها المخرّم قد خرج من تحت الثوب وظهر على صدرها ، ولم يكن نظيفاً ناصع البياض ... وكانت اظافرها طويلة ، مهندمـة بعناية ، ولكنّ تحت صباغهـا الوردي اللمّاع خطاً ضئيلاً أسود من الوسخ ، ما يدعو الى التساؤل هل كانت اندريه تحسب هذا الوسخ مـن مقوّمـات الجمال كما تحسب الزنجيات تضخيم الشفاه ومدّها على اطباق الحديد ضرباً من الزينة ... ولعلها كانت تعتقد ان في القذارة نوعاً فن الوقاية الصحية ،

كنساء بعض القبائل المتخلفة اللواتي يحافظن على الادران الملتصقة برؤوس اطفالهن محافظة تكاد تكون ضرباً من التقوى ، ظناً منهن انها الضمانة الوحيدة لحفظ الصحة ...

ان الذين يدرجون على اهمال قيافتهم ونظافتهم يحاولون احياناً ان يتبرجوا ليظهروا بمظهر أهل الاناقة ، فتخونهم دقائق صغيرة ، وتفضح ما في مظهرهم من التصنع في مناسبة معينة . ومن سوء حظ النساء ان الرجال يحتملون الاهمال في قيافة الرجل ، ويرونه فظيعاً ، مقرفاً ، في قيافة المرأة .

وخلال هذه المقابلة كان كوستال يبتسم لأندريه ابتسامة طبيعية ، عفوية ، دون ان ينتبه الى انه يبتسم . اما اسباب هذا الابتسام فكانت :

١ – لأنه كان يشعر بفرح عميق تتدفق منه حيوية ساذجة شبيهة بتلك التيارات الكهربائية اللازوردية اللون التي تبهج النظر ، ولكنها تستطيع ان تصعق وتقتل .

٢ – لأنه كان يعلل نفسه بالمتعة التي سيغنمها بعد قليل عندما يباشر عملية التعذيب .

٣ – لأنه كان يعطف على اندريه . ولم يفارقه هذا العطف قط خلال علاقتها الطويلة . وقد يكون هذا هو السبب الاول لنقمته عليها ورغبته في تجريحها .

وبعد ان شبع نظراً اليها ، مدّ يديه ونقل وعاء الازهار من مكانه على الطاولة ، ووضعه في مكان آخر بحيث يحجب به وجهه عن انظار التي تحبه . فنقلت كرسيها لتراه . فنقل الوعاء من جديد وحجب به وجهه . فقالت :

– لماذا لا تريد ان اراك ؟

فاجاب بلهجة المداعب المرح :

– لازعجك قليلا ... ولكن لا بأس ! ساكون لطيفاً معك .

وازاح الوعاء .

قالت :

ـ ألا ترى اني كنت غبيةً وحمقاء الى حد بعيد في علاقتي بك ؟ لو ادرك الرجل كم تستطيع المرأة ان تكون بلهاء ، لأشفق عليها عوضاً عن ان يزقها .

ـ لا تنقطع المرأة عن المطالبة حتى تنال شيئاً ما . ومن حسن الحظ انه يمكن اعطاؤها كل شيء . مثلاً : الشفقة . فالرجال يمنحون دائماً هذه الشفقة دون ان ينتبهوا . انهم يسمون شفقتهم حباً . وهذه الشفقة هي التي تربط الرجل بالمرأة ، على الصعيد العام ، اكثر من الحب . وكيف لا يشفق الرجل على المرأة عندما يدرك « ما » هي ؟ لا يشفق المرء على الرجل العجوز لأنه في نهاية مطافه ، وقد كان له يومه ، ولا يشفق على الولد لأن عجزه عابر والمستقبل له ؛ امـا المرأة التي بلغت ذروة نموّها وما تزال هذا « الشيء » الذي تراه ، فما قيمتها ؟ ما كان ليخطر قط في بال المرأة انها عديلة الرجل ، لو لم يقل هو لها انها مساوية له ، تلطفاً منه ، وعلى سبيل الاحسان .

يبـدو ان هذه الشفقة تتحول احياناً الى رغبة ، الى شهوة .

ـ طبعاً . كل شيء يتحول الى كل شيء . ومـا نسميـه « حباً » ، « بغضاً » ، « لامبالاة » ، « شفقة » ، ليس في بعض الاحيان إلا عاطفة واحدة لها اسماء عديدة . والحمد لله على ان الشفقة لا تستمر إلا بعض الوقت ، وإلّا قضت علينا ... وقد كتب للمرء ان لا ينجو من عبودية الحب إلا ليقع في عبودية الشفقة . نستطيع ان ندفع الناس الى عمل كل شيء باثارة شعورهم بالشفقـة . أتدرين ان بعضهم يموت لشدة شفقتـه ؟ ان جميع الاعمال التي تحققت بفعل الشفقـة انقلبت شراً وانتهت الى مصيبة ، مـا عدا الشفقة على التفوّق والمتفوّقين . ولكن هذا النوع من الشفقة نادر للغاية . ان نصف عمليات الزوج الملعونة عُقدت في ساعة شؤم

لأن احد الزوجين اشفق على الآخر . وفي ايام الحرب ، لما جُرحتُ ، سمعت الناس يرثون لي في محطة القطار ، فاحتقرتهم بقدر ما غمروني بشفقتهم . وكنت اشعر بان شفقتهم تجعلهم تحت رحمتي ! وكان في وسعي ان احصل منهم على شيكات ، ان اغرّر ببناتهم ، ان انال ما اريد دون استحقاق ، ودون ان اكلف نفسي اقل عناء . كانت حالة مقرفة ، ولكنها كانت تفسح لي في المجال للافادة . ويبدو لي اني كنت قليل الذوق لو طمعت باشياء اخرى غير التي املكها في هذا العالم وسعيت اليها باستغلال الغباء والغرور او الجشع في نفوس الناس عوضاً عن استغلال الشفقة .

ودخلت فراشة من النافذة فتجاهلتْ وجود اندريه ، وبدأت ترف حول كوستال كأنها تلتمس مداعبته ، ولكن مداعبة الفراشة ليست من الامور السهلة .

قالت له اندريه بهدوء وبطء :

– بدأتُ افهم الآن . لم يكن شعورك نحوي إلا شفقة عليّ . ليس في نفسك للنساء إلا الشهوة ، والرغبة في التعذيب ، والشفقة . ولا مكان للحب في قلبك . انك تنتحل حق الشفقة على النساء ! أتدري ان تفكيرك على هذا الصعيد من اسخف مضحكات القرن التاسع عشر ؟ يطيب لك الزعم ، على غرار ميشليه ، ان النساء « بائسات شقيات » . اننا في غنى عن شفقتك . دع عنك حجر الدب [1] ولا تضرب به احداً ! ليست النساء بحاجة الى شفقتك . انك اشد الناس حاجة الى من يرثي لك .

– لماذا ؟ ألأني لا احبك ؟

– لانك لا تحب احداً . ليست لك امرأة ، ولا ولد ، ولا بيت ، ولا هدف في الحياة ، ولا ايمان . ويخيّل اليّ ان خجلك بهذه الحالة

---

[1] – اشارة الى خرافة قديمة نظمها لافونتين شعراً ، وفحواها ان دباً رأى ذبابة على وجه صاحبه النائم ، فأراد قتلها كي لا توقظه ، فأخذ حجراً كبيراً والقاه على الذبابة فسحق رأس صاحبه سحقاً .

يدفعك الى الاحتكاك بالذين يحبون ، الى دس نفسك بينهم ، الى استدعائهم لتكون معهم كأنك منهم . ولكنك لست منهم . لا ! لا ! انك أبرص ، أبرص ، أبرص .

– اجل ، هذا ما كنت اقوله لكِ . انا هـذه المصيبة كلها لاني لا احبك . وبعد ، يا اندريه هاكبو ، فانظري اليّ دون ضحك : أيبـدو عليّ اني رجل شقي ؟

– انك تخفي وجهك الحقيقي بقنـاع . وليست ابتسامتك إلا ضرباً من التكشير .

– الكتّاب يتصنعون التكشير ليحسبهم النـاس بؤساء . يريدون ان تكون وجوههم شبيهة بوجه باسكال [1] . أمـا سمعتهم يتغزلون بالكآبـة الباسكالية ؟ هنـاك طريقتان مضمونتان لدخول الاكاديمية : كتاب في راسين [2] ، وكتاب في باسكال .

– اعترفت لي مرة بالحقيقـة . أنسيت انـك قلت لي : « اني اكذب دائماً » ؟

– أذكر هذا القول بوضوح . قلته لك لاعطيك عني فكرة خاطئة . وعلى كل حال فلا قيمة مطلقاً لما اقوله لك ، لانـه لا شيء ! من يريـد التعرف الى امثالي من الرجال ، يبحث عنهم في مؤلفـاتهم ، لا في مـا يقولون على سبيل العبث او التسلية .

– يكفي ان يرى المرء صورتك التي نشرت هـذا الاسبوع في مجـلة « الحياة الادبية » ليدرك انك غير سعيد .

– يكفي أن يرى المرء صورتي التي نشرت هذا الاسبوع في مجلة « الحياة الادبية » ليدرك ان مصوّر المجلة ازعجني وضايقني . رويدك ، يا عزيزتي ، انك

---

١ ـ فيلسوف ورياضي فرنسي (١٦٢٣–١٦٦٢) ، أشهر مؤلفاته : « الخطرات » .

٢ ـ شاعر فرنسي (١٦٣٩–١٦٩٩) . اشهر مسرحياته : اندروماك ، وبيرينيس ، وبازيد ، رميتريدات ، وايفيجيني ، وفيدر ، واستير ، وعتليا .

تعانين ردة الفعل ٢٢٧ المكرّرة .

— لا يهمني ان اعرف ما هي ردة الفعل ٢٢٧ المكررة ، لانها ، ولا ريب ، مما لا يسرلي ... ولكن ما الذي تعنيه بها .

— سترين انها شيء لطيف للغاية . تعلمين ، ولا شك ، ان جميع النساء ينفعلن انفعالاً واحداً اذا فوجئن بصدمة قاسية ؛ وردة الفعل واحدة لديهن جميعاً . ليس في حياة النساء اسرار . أوهمهنّ الرجالُ بوجود هذه الاسرار على سبيل المجاملة ، ولاضرام النار فيهن ، لأنهم يشتهونهن . وسارت النساء على هذه الطريق المرسومة لهن واوغلن فيها . فالحياة تجري معهن دائماً على الطريقة التالية : في المرحلة الاولى نجد جماعة من النساء المتشابهات بكل شيء ، يردّدن الفاظاً وعبارات واحدة ، يضحكن من اشياء واحدة ، حتى ليخيّل الينا انهن مجبولات من مادة واحدة قابلة التبادل فيما بينهن دون ان يتغير فيهن شيء . وفي المرحلة الثانية ، اذا تعرفنا الى احداهنّ مزدانة بشعور مرهف نوعاً ما ، نرى انها تختلف عن الاخريات اختلافاً تاماً . ولا تستطيع ان تعرف شيئاً عنها من رفيقاتها ، فهي بالنسبة اليك لغز مغلق ، وتظل لغزاً مغلقاً ما دمتَ لا تمتلكها ، لان الشهوة هي التي توهمك بان هناك الغاز . ومتى امتلكت المرأة ونلت منها أربك ، عادت الى ما كانت عليه ، واصبحت في نظرك كالاخريات . ومن الواضح ان ردود الفعل عند النساء اوتوماتية ، تستطيع معرفتها قبل حدوثها ، وتستطيع تصنيفها ، وهذا ما فعلتُ . اعطيت هذه الردات ارقاماً متسلسلة ، فالردة ٢٢٧ المكررة هي الردة التقليدية الصرف التي تجعل المرأة البائسة تحاول اقناع الرجل الذي تحبه بانه هو ايضاً بائس ، لا لأنها تودّ ان تؤاسيه وتسبغ عليه ما فيها من حنان الامومة ، بل لأنها تلتهب غيظاً وحنقاً حين تراه سعيداً وتعلم انه لا يستمد سعادته منها .

والرجال ايضاً يصابون احياناً بالردة ٢٢٧ المكررة ، ولكن مبعثها عندهم الحسد . واخيراً ، نلاحظ هذه الردة لدى جميع الكثوليكيين تقريباً ،

رجالاً ونساء ، لأنهم يحاولون اقنـاع الكفار بان الكفر جعلهم يائسين .
ورقم الردة في هـذه الحلقة ٧٩ ك . م . وهـذان الحرفان يعنيـان :
« كثوليكي مؤمن »، لتمييز صاحب هذه الردة من الكثوليكيين غير المؤمنين .

– لا ادري ما فعلت لك النساء لتقول فيهن هذا القول . أغلب الظن انهن عذبنك عذابـاً مريراً . عفـــواً ! كدت أنسى انـه لا يجوز لي التحدث في هذا الامر . فهذه الردة ٢٢٧ المكرّرة ! كن مطمئناً ، فستتخلص يوماً ما من النساء . وكثيراً ما فكّرت بك وساءلت نفسي كيف ستكون حالك في شيخوختك . اني أرى منذ الآن انك لن تكون على شيء من الجمال . وقد استطيع ان اصف مسبقاً اخاديد وجهك ، فخطوطها ظاهرة اليوم كالخطوط التي يرسمهـا المصور بالقلم الرصـاص عندما يباشر تصميم احدى لوحاتـه . ان في جبينك اخاديد جديدة لم يكن لها وجود منذ ثلاثة اشهر ...

فراح يضحك مغتبطـاً بوقاحتها الساذجة ، واحس بقوة غير مألوفـة تجذبه اليها . وكان متردداً في اختيار احدى شخصياته المختلفة لانزالها الى الميدان ، ثم فكـّر بأنه كان من المحتمل ان « يأخذ » اندريه بطيبـة خاطر ، لو لم تكن سولانج هناك ، في برج الحمام ترى وتسمع كل شيء .

وجعل ينظرُ الى ضيفته المرتبكة قائلاً في نفسه : « لها نقرة لا بأس بها ، ولكن أتكفي النقرة الجميلة ؟ يقول الخياطون ان قفا القماش لا يقل قدراً عن وجهه ؛ ولكن ! »

وللمرة الاولى احس برغبته في امتلاكها . وربما كانت الدوائر الزرق حول عينيها هي التي اثارت فيه هذه الرغبة . وقد يكون اشتهاها لانها اقرفته . فهو من القائلين بان مفاتن الفظاعة لا تُسكِر إلّا الاقوياء .

وكان في هذه الاثناء ينظر الى ذبابة جامدة منذ ثلاث دقـائق على رمـاد السواكير واعقابها المتراكمة في المنفضة ، كأنها تجد من اللذة مـا تجده عندما تجثم على قطعة حلوى ، وقـد انتشت بالرمـاد حتى اصبح

يسهل القبض عليها بالاصابع . وتبادر الى ذهنه انه كهذه الذبابة ، لا فرق عنده بين الرماد والحلوى . واعجبته غرابة الانقلاب المفاجىء في شعوره نحو اندريه ، وفي السياسة التي انتهجها حيالها منذ خمس سنوات .

لم يكن يبغضها ، انما لم يكن يبالي بها ، ولكن بشيء من العطف . ومثل هذه اللامبالاة يمكن ان تؤدي الى اشياء كثيرة . ولم يكن يزعجه ان يجننها من شدة الفرح ، فلماذا لا يمنحها النعمة الكبرى ما دامت قد استحقتها بصبرها الطويل ؟ ولم يكن يزعجه ان يجننها من شدة الالم ، فقد استحقت ايضاً هذا العقاب . وكان من المعقول ان يعذبها ليعوّض عن الخير الذي اسبغه عليها دون مبرر ، وان يسعدها ليعوّض عن الضرر الذي ألحقه بها دون مبرّر . وبعد ، فهل كان بحاجة الى القيام بعمل معقول ؟

كل شيء سهل عليه الآن ، كما كان كل شيء سهلاً عليه ساعة كان جالساً الى مكتبه وامامه ورقة بيضاء . لم تكن قساوته ناجمة عن خمود شعوره الانساني ، بل كانت نتيجة قدرته على تطوير شعوره وتحويره على هواه ، كأنه يضغط على زرّ فينبعث فيه الاحساس الذي يريد .

ان حياة الانسان خاضعة لعوامل استبدادية لا حدود لها ، بعضهم يحاول مقاومتها ، وبعضهم لا يعرف ماهيتها ، بينما كوستال يعرفها ، وعوضاً عن ان يتألم منها يفضل ان يحبها حتى العبادة ، لأنه استطاع اخضاع حياته للفكرة التالية : ما دام العالم يقدم لنا وسائل كثيرة لاغتنام المتعة والسرور ، فمن الغباء ان نتعذب ونتألم ، لاننا ندفع ثمن عذابنا في هذه الحياة ولا نجد تعويضاً عنه في الحياة الاخرى .

وعملاً بهذه الفكرة تألم كوستال من النكسة التي حلّت بفرنسا ، ثم قرر ان يحب هذه النكسة ، اذ رأى ان هذه هي الطريقة الوحيدة للخلاص من الالم . وليست الوطنية شعوراً فطرياً ، بل مكتسباً . وكل ما هو مكتسب عرضة للفقدان .

وبهذه الطريقة عالج الجور الاجتماعي كما عالج الشر في جميع اشكاله .

وكان يقول في نفسه : « اذا كنت مضطراً الى التألم من الشر ، تصبح حياتي عذاباً جهنمياً ، اي حماقة ، اذاً فلنحب الشر ايضاً » .

وتردّد برهةً ، اذ خطر في باله ان يضرب موعداً لأندريه في اليوم التالي ، فيمنحها ما تشتهي من الوصال ، ولكنه سأل نفسه أتبقى رغبته الحاضرة فيه الى اليوم التالي ؟ ثم تذكر قولها السخيف المضحك : « انك لا تدري ما تستطيعه ارادة المرأة » ، فانتهت المشكلة فوراً ، ووُضع لها حدّ نهائي ، لان هذه العبارة أيقظت في ذاكرته جميع الاسباب التي جعلته يستنكف عن « أخذ » اندريه منذ خمس سنوات . وتذكر ايضاً عبارات اخرى من هذا النوع دفعته الى التصلب حتى العناد . ولكنه فقد رغبته في تعذيبها ، ولم يشأ ان يمثل دوراً في مأساة هزلية ... لم يشأ ان يكون هراً يعذب فأرة لما في هذا الدور من السهولة والصغارة ، فقرر ان يُنهي هذه اللعبة حالاً ، فقال لاندريه :

— اعذريني اذا نبهتك الى ان الساعة بلغت الخامسة والنصف . وفي الساعة السادسة ستأتي صاحبة هذا البيت لادفع لها بدل الايجار . فاذا كان لديك شيء خاص تريدين اطلاعي عليه ...

فقاطعته قائلة :

— ألست انت الذي استدعاني اليه ، يا كوستال ، لان لديك شيئاً خاصاً تريد اطلاعي عليه ؟

— انا ؟ علامَ تريدين ان اطلعك ؟

ورأى وجهها يتجهّم ويقسو ، فيصبح شبيهاً بوجه البغايا حين يقول لهن مفوّض الشرطة انه لا يستطيع اطلاق سراحهن ... واحسّ بشيطانه يلامس كتفه قائلاً له : « لا تكن شريراً مؤذياً ! » واجابه في سره : « بلى ، بلى ، لماذا لا اكون شريراً مؤذياً مع هذه ، ما دمتُ سأكون طيباً محسناً مع تلك التي تنتظر في برج الحمام ؟ » وهمس الشيطان : « وهذه ، متى يأتي دورها ؟ » فاجاب : « مرة اخرى ! »

وقالت اندريه :

– ان تصرفك معي اهانة مزمنة ، وتراني اسائل نفسي احياناً كيف استطعت احتماله .

– وانا ايضاً طرحت على نفسي هذا السؤال . ما اطول بال النساء ، وما اقدرهن على احتمال اساءة الرجل اليهن !

– طبعاً ... عندما يستولي عليهن الحب ؛ أمّا انت فلا تفكر إلا باساءة استعمال قدرتك وسلطانك . ان حيـــاة رجل على شاكلتك لشيء رهيب ... لا حدود لقباحته المسخ .

– كل « كاتب » جدير بهذا الاسم لا يستطيع إلا ان يكون مسخاً .

– انك تقرّر ببعض الناس ، وتحرم البعض الآخر حقه الطبيعي في الحياة ، ولا تنسجم مطلقاً مع المجرى الانساني الذي يسير فيه الجميع ... انك تقتل كل شيء في البيضة ، تخنقه في المهد . حياتك برمتها سلسلة من الاجهاضات . تجهض مـا في نفسك ، وتفرض الاجهاض على الآخرين . أنسيت انك كتبت اليّ يوماً تقول : « ان تعذيب النساء امر في غاية السهولة اتركه للصعاليك » ؟

– هذا الـ « يوماً » قديم جداً ، يعود الى زمن كنتِ فيه تكتبين اليّ : « ان الفتاة لا تتعب من الحب الطاهر العذري قبل صديقها ، ولا يمكن ان تكون البادئة في طلب التخلي عنه » . وعلى كل حال ، فانت فتاة ذكية يتعذر تعذيبك ، وفي وسعك ان تتلاعبي بآلامك .

– لا ، لا ، لا تسترسل في هـذا الاعتقاد . لستُ ذكية بقـدر ما تظن .

– أليس العذاب في الحب ولأجل الحب نوعاً من السعادة ؟ واذا هجرك هذا العذاب أفلا يترك في نفسك فراغاً ؟

– انك تتكلم كما يطيب لك !

– لست ادري ، هذا ما تقوله النساء .

وفي هذه الفترة ، بدأت تخافه . وكان خوفها غريزياً كخوف الحيوان ... كخوف من يرى نفسه سجيناً ، في غرفة مقفلة ، مع مجنون يلمع في عينيه وميض الاجرام . وفي موجة الذعر الطاغية عليها ، راحت تحاول تهدئته واسترضاءه ، فقالت :

– اتوسل اليك ، يا كوستال ، ألّا تكون شريراً . لستَ شريراً بطبعك ، ولكنك تجهد نفسك للتظاهر بالشر .

وراحت تبذل جهدها لتقنعه بانه فاضل ، كما كانت نساء اخريات يحاولن اقناعه بانه « مسيحي على الرغم منه » ، ثم قالت :

– أتحسبني مجرمة لاني احببتك ؟

– اجل ، بكل تأكيد .

فصاحت بقوة ونزق :

– لا ! انك مخطىء . لا تنتقم مني لأجل وهم في خيالك لا حقيقة له . تذكر انك لم تتعذب بسببي ، وانما انا التي تعذبت بسببك . لم تكن فورات غضبي إلا موجات من العذاب تفيض بها نفسي ، وقد تألمتُ منها بقدر ما تألمتُ من التظاهر باعراضي عنك ونقمتي عليك . ولكنك لم تشعر باني كنت اعرض عنك وانقم عليك ! لا تهدم هـذا السلام البائس الذي بنيته في نفسي خلال ثلاثة اشهر من الصراع والدموع . قلت لك في مـا مضى : « عوضاً عن سكوتك وعن غمرة الشك التي اتخبط فيها ، اضربني ضربات قاسية ، لانها وحدها تمنحني القدرة على التخلّص منك » . أما الآن فاقول لك : « لا ! ارحمني ، ولا تضربني بقساوة » . وبعد ، ما عساي اخسر اذا أبيتَ أن تعاملني بلطف ؟

لم يشعر كوستال باقل سرور لما رآها مرتعبة منه . جلّ ما كان يريد ان يعذبها وهي صافية الذهن ، كاملة الوعي .

قال لها :

اعترفت منذ حين ان حبك لي ليس من الصنف الرفيع لانك تفضلين سعادتك على سعادتي . فاطلب اليك ان تفضلي سعادتي ولو مرة واحدة . دعيني اعذبك ، احب فيك الألم الذي أسبّبه لك . وهكذا اجد نفسي فيك واحبك . اعطيلني لذة مقاومتي اياك طوال خمس سنوات ، فاعطني الآن لذة قسوتي عليك . لا تريد النساء ان يعلمن كم يتراكم من الكذب ، والانانية ، والعياء ، والصدفة في الحب الذي يبوح به الرجل لهن . اما معي فستعرفين حقيقة هذا الحب . وهذه المعرفة ستكون كبيرة الفائدة لك ، تمكّنك من معرفة الحياة . ان ما تحتاج اليه في هذه الدنيا ليس الاستقرار الشبيه بالجمود . فالحياة لا تكون طيبة إلا اذا زخرت بالرجولة .

— من اخبرك اني اتمتع بالرجولة ؟ هل من شأني انا ان ازخر بالرجولة ؟ اني امرأة ، امرأة ، ثم امرأة ، أفلا تريد ان تفهم ؟

— للنساء وسيلة مضمونة تحميهنّ من العذاب .

— وما هي ؟

— لينظرن الى المرآة عندما يتعذبن ، فيعمدن فوراً الى تغيير ملامحهن ، وثمة طريقة اخرى للتخلّص اوتوماتياً من العذاب ، هي ان تفكري بالحالة التي ستكونين فيها بعد خمس سنوات . تعلمين حق العلم ان حبك لي سيزول بعد خمس سنوات ، وان هذه القصة التي نمر بها الآن ستبدو لنا كالاخبار التي تنشرها الصحف تحت عنوان : « منذ مائة عام » ، مهزلةً مضحكة . فالحياة شبيهة بكثبان الرمال : يتكوّن كثيب ، فيأتي كثيب آخر ويطمره ، وهكذا دواليك . تقمصي اندريه هاكبو التي ستكون بعد خمس سنوات . فالمسألة لا تحتاج إلا الى شيء من الخيال .

اوشكت ان تجيب بعنف ، ان تنفجر ، إلا أنها رأت على الطاولة نوعاً من الحريش[1] ، وكانت تكره هذه الحشرة ، فصاحت :

---

١ – حشرة سامة تسميها العامة ام اربعة واربعين .

— اقتلها ! اقتل هذا الحيوان القبيح .

— لماذا اقتلها ؟ لم تؤذني .

— وانا ، هل اذيتك ؟

وألقت على الحشرة جريدة ، ثم سحقتها . فنظر اليها كوستال نظرة قاسية تنم عن الاستياء والحقد ، ثم قال :

— انك تتعبينني جداً ، يا آنسة هاكبو . كنت منذ ايام في مطبخ مع فتاة صغيرة جعلتني سعيداً . وشعوري بهذه السعادة حداني على ان اشتهي السعادة لك ايضاً ، فكتبت اليك ، فجئتِ امس الساعة التاسعة والنصف تضربين بابي بقبضتيك كالعلج الخالي من الذوق . وكنتُ مع الفتاة الآنفة الذكر ، وكنا قد اتفقنا على ان اجعلها امرأة ليلة امس ، فعرقلتِ بمجيئك هذه العملية وخرّبتها . ومع ذلكِ تساهلت فضربت لك هـذا الموعد ، لانك جئت من سان ليونار لاجلي ، ولم اشأ ان يذهب تعبك سدىً . ولو لم تتأخري ربع ساعة ، لكانت لنا ساعة ونصف الساعة للتحدث بلطف وانسجام . اما الآن فلا ادري ما هو قصدك .

— ما الذي تبحث عنه ؟ أتريد ان تُفرغني حتى اريحك من وجودي معك ؟ أرى انك ما دعوتني إلّا لهذه الغاية : لتروي لي قصة قذارتك مـع فتـاة المطبـخ ! قلتُ وأقول دائمـاً انك عاجز عن ان تحب في المساواة ...

— لا احب في المساواة لأني ابحث في المـرأة عن الطفـولة . ولا استطيع ان اعطف على امرأة ، ولا ان اشتهيها ، إلا اذا كانت علاقتي بها تذكرني بايام حداثتها .

— اذاً ، ستكون نهايتك في محكـمة الجنح ، بتهمة الشذوذ والتغرير بالقاصرات .

— ان حب القاصرات دليلٌ على استفحال الذكورة .

— أهـذا هـو « عطفـك » الذي حدثتني عنـه في رسالتك ؟

راى انك نصبت لي هنا شركاً معنوياً ، خلقياً ، بعد ان اعددته وهيأته بكل عناية كما تُعدّ وتهيّىء كل شيء ... ولكن ، قل لي ، ألم تخرج من صمتك الطويل لتكتب الي : « فرصة سانحة ، فاغتنميها » ؟

– كنت امزح .

– كان نيرون يضحك ويقول انه يمزح كلما انقضّ على احد اصحابه ليطعنه بخنجره ، فاخطأه .

اجاب بلهجة تنم عن منتهى السخرية :

– رباه ! ها نحن قد وصلنا الآن الى نيرون !

ورفع يده يلامس بها احدى عينيه قائلاً :

– لا تؤاخذيني . ما ذنبي اذا كنت احب المزاح ؟ ان الحياة تصبح لذيذة سائغة حين نعرّيها من الجدّية ومظاهر الوقار . ولكنك ، مثل جميع النساء ، تظنين دائماً اني لا امزح حين امزح ، واني امزح حين لا امزح .

– لم يبقَ عليك إلا ان تعترف بانك استدعيتني لتعذبني ، ولتراقب فيّ نتائج تعذيبك البارع ، ولتنظر الى شعوري وافكاري تتخبط في نفسي ، كما تنظر الى فصيلتين من النمل تتصارعان حتى الموت ويفترس بعضها بعضاً ، او الى قتال يجري بين سكان القمر ، وانت بعيد ، بكل حذر ، عن الميدان ، ويرعبك حتى التفكير بان تتورط فيه . تحب الاحتفاظ بي في متناول يدك ، كما يحتفظ زعيم أكلة اللحوم البشرية بالرجل الابيض الذي وقع اختياره عليه ، ليقتطع منه شريحة كلما طاب له الاكل ... اواه ! ما اجمل شفقتك على النساء ! وكيف تكون حالك لو لم تكن شفوقاً ! انها شفقة الطاهي على البطة وهو يقطع رأسها .

– اعترف بان تصرفي معك لم يكن خالياً من الدجل في بعض المناسبات . اما الآن فلا اريد بك شراً . منذ قليل احببت ان اعذبك ، اجل ، وطلبت اليك السماح لي بتعذيبك ، ولكني عدلت الآن عن تلك

الرغبة ، لأن لك في نفسي مودّة كبيرة .

وفي هذه اللحظـة ، رأت أندريـه شيئاً بدا لهـا عجيباً مستغرباً : رأت عينيه تتألقان بالجد والاحترام ، فتبادرت الى ذهنها كلمة « اخوي » التي كانت ، في ما مضى ، تحب ترديدهـا كلما فكـّرت بـه . وطفرت هذه الكلمة من صدرها الى شفتيها كأنهـا وحدها تستطيع التعبير عمـا اعتلج في صدرها تلك اللحظة . إلا ارن ذلك التألق المشجع ، المنعش ، ما لبث ان تلاشى من عيني كوستال .

قال لها ليبعث في نفسها املاً خلاّباً كاذباً :

— أتعتقدين اني استطيع ان اكون سخياً معك ؟

— لم اعـد اؤمن بـك ولا بما يأتيني منك . لقـد خدعتني طويلاً ، وضللتني وبالغت في تضليلي عـن قصـد وتصميم ، حتى غـدوت اعرف الرجال . انهم لجج بعيدة الغور من الفظاعة والخفايا والتناقض امام نساء لا يعرفن غير الحب ، لا يعرفن إلا تضحية الحياة في مقابلة الشر بالخير ، مهما كنّ حمقاوات ، ومهما تكن قدرتهن على الحب ضئيلة .

— اعتقد اننا لا نطلب اليهن هذا القدر مـن الحب . امـا التناقض فاقول فيه انه يجد مجالاً اوسع في حياة الرجال لأنهم اذكى من النساء .

— دعني منك ومن ذكائك . واذا كان لي في نفسك ذرة من العطف ، كما قلت ، فانقذني . انقذني ، يا كوستال . لا يكلفك هذا الانقاذ شيئاً ، ولكنه الحياة كلها بالنسبة اليّ . وبعد ، فيجب ان احيا !

وكانت الى جانبـه ، على مسافـة بضعـة سنتيمترات ، وقد اغمضت عينيها . وظلت مغمضـة العينين كمن يتوقع ضربة . وكانت اشبه بالشبح في استسلامها الملتهب ، وبعينيها المطوقتين بدائرتيها الزرقاوين . ولم يكن يسمع إلا نقر العصافير على زجاج النوافذ ...

ولما ظل كوستال صامتاً ، وكانت قد لاحظت انه لم يطرف له جفن عندما قالت : « وبعد ، فيجب ان احيا » ، ادركت انـه قال في نفسه :

« وما الفائدة من حياتها ؟ » وابتعدت عنه بضع خطوات وهي منكسة الرأس ، ثم قالت متلعثمة :

— التمس منك المعذرة ، ففي عيني ذرة تراب .

واستدارت نحو الحائط لتكفكف دموعها بمحرمتها في صمت رهيب ، لا تنهّد فيه ، ولا زفرة واحدة .

انتظرها كومستال حتى فرغت من بكائها . ثم رأى ان هذه الرواية قد طالت أكثر من اللزوم ، فقال في نفسه : « لم يفت الوقت بعد ، ففي وسعي ان اجعلها سعيدة حتى الجنون بكلمة واحدة » . ولكنه لزم الصمت ، ولم تتحرك شفتاه بتلك الكلمة . فعادت اندريه الى جوار الطاولة ، ودنا كومستال منها خطوة ، فوقع نظره على يدها اليمنى ، ورأى ما لم يكن قد رآه بعد ... رأى اظافر اندريه كلها طويلة ، مهندمة بعناية ، ما عدا ظفر الاصبع الوسطى ، فقد كان مقطوعاً من ارومته .

وارتفعت عيناه من يد الفتاة الى الدائرتين الزرقاوين حول عينيها ، وجعلت جفونه تطرف بسرعة تحت تأثير موجة عارمة من الشهوة تدفقت في جميع انحاء جسده . ولكن الفرصة المؤاتية مرت سراعاً ، وانتهى بعدها كل شيء .

— متى انكسر ظفرك ؟

فاجابت ، وهي منكسة الرأس :

— ليس لهذا الامر اهمية !

واطبقت يدها بحركة عصبية لتخفي انامله . فاستطرد كومستال قائلاً :

— اذهبي في سبيلك ، يا صغيرتي . اعتقد اننا انتهينا من حديثنا .

وفكر بانها قد تكون مسلّحة ، وقد تحاول قتله او صفعه على الاقل ، فدنا منها ليتمكن من تحويل ضربتها عنه اذا حاولت ان تضرب ... دنا منها كما يدنو مصارع الثيران من الثور ليتحاشى نطح قرنيه . فرفعت رأسها ،

وبدت ذاهلة ، مشدوهة . وحدّقت اليه بامعان دون ان تتحرك وفي عينيها ذلّ وانكسار . فادرك انها لا تريد قتله ، وان هذه الفكرة لم تخطر في بالها ، فقال في نفسه : « ما اغرب النساء الفرنسيات ! »

وخاطبته قائلة :

— كوستال ، لن اراك بعد اليوم . ولكني اطرح عليك سؤالاً اخيراً : أفاقد الشعور انت ؟

— انا فاقد الشعور ؟ هذه نكتة طريفة . لو كنت فاقد الشعور لما كنت مذنباً .

— ما معنى هذا القول ؟ أأفهم منه انك تريد ان تكون مذنباً ؟

لم يجب عن هذا السؤال ، بل قادها برفق ، ممسكاً بذراعها ، وسار بها صوب الباب المؤدي الى الحديقة الصغيرة ، فالشارع .

وكانت في السماء غيمة لها شكل جناح ، فقال كوستال في نفسه : « أأطبع قبلة على جبينها قبل ان اطرحها في الشارع ؟ » ولم يجد من الاسباب ما يشجعه على هذه البادرة او يثنيه عنها . وكان جرس الباب معطلاً منذ حين ، لا يرن إلا نادراً اذا فتح الباب من الداخل . فقال كوستال في نفسه : « اذا رنّ الجرس ، اقبلها » . وفتح الباب ، فظل الصمت سائداً . وكانت زقزقة العصافير تغزل فوق رأسيهما خميلة من الألحان . فابتسمت اندريه .

واغلق كوستال الباب . وخطر في باله انها ستعود ، وستقرع الباب ... وان شيئاً ما سيحدث . إلا انه كان واهماً . وطالما خدعته ظنونه .

ولما عاد الى البهو ، انتظر قليلاً ، ثم صعد الى برج الحمام ، او غرفة رماد الموتى .

ـ والآن ، يا صغيرتي ، ما رأيك في ما حدث ؟

وكانت سولانج واقفة في برج الحمام ، في المكان الذي احتلته وراء الستار لترى وتسمع ما يجري في البهو . فنظرت الى كوستال بعينين شاردتين مشربتين بالاحمرار ، وقد توردت وجنتاها كما كانتا تتوردان حين كان يضيء الكهرباء بعد ان يلهب جسدها تقبيلاً ومداعبة . وكان وجهها يبدو ملفوحاً ومتورماً قليلاً من حرارة القبل ، فاذا به في ذلك اليوم متعب ظاهر العياء ، مع ان كوستال لم يكن قد قبله إلا ثلاث مرات او اربعاً ، منذ ساعة ونصف الساعة . وكان شعرها منتفشاً ومبعثراً ، لأنها لم تبلله صباح ذلك اليوم .

وأعاد عليها سؤاله قائلاً :

ـ ما رأيك في هذا المشهد ؟ ألم يكن صراعاً حسب القواعد المتبعة في مواسم الارياف ؟

ـ ليتني ما رأيته ! لما قرأت لي بعض رسائل هذه المرأة ، اشفقت عليها ، اما الآن ، بعد ان سمعت ما سمعت ، فقد زالت من نفسي كل شفقة . لما اعطاها هذه الرسائل أصيبت بصدمة ، واعتبرت عملها فضولاً وقلة ذوق ، مع ان كوستال لم يكن قد اطلعها على اسم اندريه . وقد صارحته بما يساور نفسها في هذا الشأن ، فاجابها :

ـ اني ازيح قبعتي من مكانها [1] .

---

[1] ـ قال « بريي ليسكورتي » ، في مذكراته عن بلاط ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، ما يلي :

قالت : ماذا تعني ؟

قال : سأشرح لك معنى هذه العبارة عندما تتقدمين في السن .

ولكنها احست انها اصيبت بصدمة قاسية . وتململ في اعماقها شعورٌ غامض بتضامنها جنسياً مع اندريه ، فخيل اليها ان كوستال قد أذلها هي ايضاً لمّا أذل اختاً لها في الانوثة . إلا ان ثقتها بنفسها كانت كبيرة ، فلم يخطر في بالها ان تسائل نفسها : « أتراه يعاملني مثل هذه المعاملة يوماً ما ؟ »

وخاطبها كوستال قائلاً :

– ان رؤيتك تنعشني . ويسرني ان ارى امرأة تبقى على صعيد الحقيقة . اصارحك بانك احدى النساء النادرات اللواتي عرفتهن في حياتي وايقنت انهن غير مجنونات . فالكتّاب يجتذبون المجنونات كما يجتذب اللحمُ الذبان ، فماذا بنا ، في نظرهن ، مسؤولين عن عزلتهن ، عن كبت شهواتهن ، واذا بهن ناقمات لأجل اوهام وخيالات في رؤوسهن . اما انت فانك الشذوذ الذي يؤكد هذه القاعدة . واني احبك لانك شاذة .

– ولكن ، لماذا تجيب عن رسائلهن ؟

– وما حيلتي في الامر ؟ عندما ارى الذبان على قطعة اللحم اقول في نفسي : « يجب ان يأكل الجميع » .

* « اخبرني سكرتير الكونت دي غيش ، قال : كان الكونت يوماً في حاشية الملكة ، وقد تحلقت حول جلالتها الاميرات والدوقات ومن جالسات ، بينما بقي كثيرون من الحاضرين وقوفاً ؛ فاحس الكونت ان يد احدى السيدات ، من صديقاته ، قد امتدت اليه وراحت تعبث بمكان من جسمه لا يليق ذكره ، او بالحري يحسن عدم ذكره بدافع التواضع ، وكان الكونت قد ملأ هذا المكان بقبضته ؛ ثم لاحظ ان السيدة ادارت وجهها عنه ، فرفع قبضته بخبث ، وراح الحاضرون يضحكون متهامسين . ولك ان تدرك كم كان خجل تلك السيدة كبيراً ومذلاً ...

« وكان الكونت يبتكر كل يوم لعبة جديدة من هذا النوع ليزعج النساء ، ومع ذلك كنّ يتنافسن عليه من كل صوب » . – المؤلف .

وطوّقها بذراعيه ، ثم جعل ينشق ما في وجهها من دفء ونضارة .
وسمت احدى يديه حتى بلغت كتف الفتاة من تحت حمّالة الثياب التحتانية ،
وكان من أرهب مقطّمي هذه الحمّالات ، وراح يمزقها بالقاء نظره عليها ...
وكان قد تاق الى الانغماس اخيراً في شيء يشتهيه ، واحتدمت رغبته
في الاستيلاء على سولانج كأنه التقاها بعد غياب طويل .

وكان عائداً ، بالفعل ، من بلد بعيد ، من جحيم اشخاص لا يحبونه ،
فكاد يرسل ذلك النباح الخافت المخنوق الذي ترسله الكلاب في نشوة
سرورها لدى عودة اصحابها الاخيار او الاشرار .

قال لسولانج :

ـ جئتك الآن بردائي ، وهي ما تزال حارّة . هذه الرداءة هي عطفي
عليكِ . والرداءة والعطف شيء واحد . ما معنى ان يكون المرء عطوفاً ،
او ان يكون رديئاً ؟ لا فرق بين الحالين . قد نروي احياناً عطشنا
بسيكارة ، والسيكارة تحرق ، بينما الماء يرطّب . إلا ان الحالين شيء واحد .
لا تحاولي ان تفهمي ، فعبثاً تحاولين !

أرأيت هذه الفتاة ؟ ان مثيلاتها يملأن الاسواق ! وهن جميع النساء
اللواتي رفضتهن لانهن لا يعجبنني . انهن لا يصلحن إلا لعملية تغريق على
طريقة « كاريه »[1] . وهكذا انتهي معهن دائماً : رتروب ... اشق
تحتهن المغواة ... وعليهن سلام الشيطان . ان ما يجب الآن هو ان تلتحم
هذه الفتاة لأتخلّص منها تخلصاً حقيقياً ، نهائياً . أريتك هذا المشهد لتدركي
ما يحل بي لا احب . هذه فتاة نشأت من لا شيء ، وارتقت وحدها
بلا مساعدة ، في اصعب الاحوال واقساها . انها مثقفة ، مرهفة الاحساس ،

---

١ ـ جان باتيست كاريه (١٧٥٦ – ١٧٩٤) عضو في مجلس الـ « كونفنسيون »
الفرنسي في اثناء الثورة الكبرى . اشتهر بالظلم والضراوة اذ كان يأمر باغراق
مئات المشبوهين في نهر اللوار ، بمدينة نانت . وقد اتهم اخيراً بالخيانة ، وانتهى
بان لقي حتفه على المقصلة .

متوقدة الذكاء ، مفعمة نبوغاً ، تحبني منذ خمس سنوات . فاذا وضعنا استحقاقها ومزاياها في الميزان بالنسبة اليّ ، تبين لنا ان استحقاقك انت ومزاياك لا شيء . ولكني لا احبها . لم اعطها شيئاً قط . لم اتصدق عليها بقبلة . لم آخذ يدها بيدي ، لاني لا احبها .

اما انت ، فما كدتِ تظهرين حتى اعجبتني . اني اعطيك كل شيء : عنايتي ، وعطفي ، وقوتي الجنسية ، وذكائي . تذكري هذا ، واحفظيه لليوم الذي ستضطرين فيه الى الشكوى مني . فهو آتٍ حتماً .

انك تنعمين بكل شيء دون سبب ، ودون استحقاق . لا مبرر لاعطائك انت دون سواك . لا مبرر لهذا التفضيل وهذا الانحياز . اذكر بيتاً من الشعر لا ينفك يقفز في ذهني كلما فكرت بك ، وهو :

« لا ادري لماذا اخترتها » .

ولا اتذكر متى قرأت هذا البيت ، ولا اين قرأته .

من انت ؟ انت فتاة كالاخريات . انت قطرة ندى على عشبة في مرج . فلو تجمعت فيك جميع المثالب ، جميع « الصفات السلبية » في العالم ، أتظنين اني كنت عدلت عن حبك ؟ كان عليك ان تعجبيني . ولم يكن هذا الامر في يدك ، ولا كان رهن ارادتك . مررتُ بك واخذتك بالصدفة تقريباً . وهكذا تجري الحياة ، من صدفة الى صدفة . لماذا نختار هذا دون ذاك ؟ بالحقيقة ، ليس لهذا الاختيار اسباب . واذا وجدنا له سبباً فهو سبب ضئيل ، تافه ، لا يستحق الذكر . كل شيء لك انت . وللاخريات لا شيء على الاطلاق غير الخيبة . اننا هنا في وهدة من الظلم سحيقة ، ولهذا اراني مرتاحاً ومبتهجاً . ولكن هذا لا يعني اني لا احب الانصاف والعدل . اني افضل تارة الظلم على الانصاف ، وطوراً الانصاف على الظلم . ولا بد من اطلاعك على هذا الأمر . وانت تعلمين اني احب ان اقول لك اشياء مزعجة . فهذا جزء من حبي لك .

وكانت تستمع الى حديثه دون ان تفهم جيداً كل ما يقول ، وهي

في غمرة من التعجب والذهول . ولا غرابة اذا تعجبت وذهلت ، فهي من محيط اذا تحدث افراده عن احد الكتّاب قالوا : « انه كاتب ، ولا يجوز ان نأخذ ما يقول على مأخذ الجد » . وكان هو مسروراً بصمتها واحجامها عن الرد عليه ، لان ردها لا يمكن ان يكون إلا مختلفاً عن فكرته هو مهما قالت .

قال لها ايضاً :

-- كم هناك من اشياء ليست انت ! كون المعارف ، كون الآلام ، كون العدالة ، كون المسؤولية ... انها اكوان لا يخطر وجودها في بالك ، وانا لا اراهـا إلا كما ارى البرق الخلّب . ينطلق سهم ناري في الجو ، فيلقي عليها ضوءه لحظة . ثم تعود الى الليل ، ليلي انا .

ومع ذلك ، أراني كبير الاهتمام بك ، اعطيك من مادتي ، واخاطبك احياناً كأني اخاطب عالماً مجهولاً .

كم كلمة من كلماتي بلغت هدفها ؟

ما اكثر ما اضعت من الطلقات النارية ! أعتقٌ انا ؟ أمخطىء انا ؟

انت فتاة صغيرة ، بورجوازية ، باريسيـة ، في العشرين مـن العمر . وهناك اناس يقولون لي في سرهم : « أبهذا الشيء تهتم ، بينما الطبقات الاجتماعية ... بينما الشعوب ... بينما الامبراطوريات ... ألا تشعر بالخجل ؟ » ويقول آخرون : « ان هذه النفس الصغيرة وحدهـا تساوي نفس شعب بأسره . جميع الآلام التي فجّرتهـا الحرب في العالم لا ترجح على دمعـة واحدة تذرفها هذه الطفلة . واذا لم يكن في حياتك شيء إلا انك غمرتها بالحب ، فقد قمتَ بدورك الانساني على هذه الارض خير قيام ، واستثمرت بقعة الارض الانسانية التي جعلتها الحياة في كل منا ، فحرثتها ، وزرعتها ، واستنبتّها خيراً وجمالاً » .

بين هذين الرأيين ، أيها الصحيح ؟

ان هذا السؤال يطرح دائماً ، وهو دائماً حقير وفاسد . فالرأيان صحيحان

كلاهما . يجب ان تستوعب احدهما وندركه كلياً ، ثم نستوعب الآخر وندركه ايضاً . فهما وجهان اثنان لحقيقة واحدة . ان اصحاب القلم الأنيق يكتبون ان الحقيقة ألماسة ، ولكنهم ينسون دائماً ان يأخذوا بعين الاعتبار عدد الصفحات الملساء المشعة في هذه الألماسة .

والآن ، الزمي الصمت ! لا تردي عليّ . لستِ بحاجة الى ان تفهمي ما اقول . ولكني ، انا ايضاً ، لستُ بحاجة الى الاطلاع على انك لم تفهمي ما قلت .

وراح يغلق النوافذ[1] ويسدل الستائر . وكانت على الطاولة ورقة ملوّنة الطبع ، كُتب عليها باحرف كبيرة عنوان اعلان هذا نصه : « ارى كل شيء » ، فطواها بخفر وحياء ، كي لا ترى شيئاً .

وكانت نفسه محتدمة كأنها تهضم جرعة كبيرة منعشة من الكحول . ولم تكن هذه الجرعة إلا المتعة العارمة التي غنمها من قسوته على اندريه .

دفع سولانج الى السرير وقلبها عليه ، وهي مرتدية ثيابها ، ثم مد ساقيها بعناية .

وبعد هذه المقدمة ، تقمصه علج مصارع ، لا همّ له إلا ان يسيطر على خصمه سيطرة تامة .

كان عادةً يخشى ان يضمها بشدة لئلا يوجعها ، فهي ما تزال رخصة العود ! اما الآن فقد عمد ، للمرة الاولى ، الى الشراسة الوحشية . ولم يلجأ الى العنف ، لان سولانج كانت تتخبط محاولة الافلات ، بل تعمد القسوة لأنه اراد ان يترك ذكرى متميزة لا تغرب عن الذهن .

راحت الفتاة تصيح : « لا ! لا ! » ، وفغرت فاها ، وجعلت تحرك

---

[1] ـ كان برج الحمام يطل على حديقة احد الاديار المديدة في هذا الحي . وكثيرا ما كان يُسمع قرع الاجراس ، وتقع عين كوستال من النافذة على الراهبات . ولم يشأ المؤلف استغلال التناقض بين اعماله وحياة الدير ، مع ان هذا الاستغلال كان في غاية السهولة . ـ المؤلف .

رأسها يميناً ويساراً . فنشق انفاسها ، واشتم منها رائحة جديدة غير التي كانت لها ... رائحة منبعثة من الاعماق ... رائحة كانت الصيحات الملهوفة تغارفها من قرارة الروح والجسد .

لم يستطع ان يجمّد رأسها إلا لما عضّ لسانها ، وراح يشد عليه باسنانه كلما حاولت حراكاً . وباعضاء جسده جميعاً ، جعل يحرك ، في انتظام ورتابة ، هذا الشيء الغامض الذي كان يدعى الآنسة دنديّو .

وفجأة ، اصبح كل شيء سهلاً ، فانساب كوستال في شعور جديد .

اغمضت سولانج عينيها وانقطعت عن الشكوى ، بينما كان صاحبنا في وضع المتكف المتأمّل في احساسه الذي بدا له زهيداً واقل من معتدل .

لم تعطه إلا متعة عقلية ، فقال في نفسه : « قضي الامر ! » واكب عليها ينشق وجهها ، كأسد يزق لحم فريسته ، ويضع عليه قائمتيه ، ثم يتوقف من حين الى آخر عن تمزيقه ليلحسه .

كان جبينها وانفها رطبين ، يرشحان بقطرات الهبة من الندى ، فمسحها باحدى المحارم التي طرّزتها له اندريه هاكبو . وكان رأس سولانج قد انزلق بين المخدتين مستلقياً الى وراء ، فتجلّى جمال العنق الاصفر الطويل ، والنحر الممتلىء ، والصدر الناهد ، وحجب جمال الوجه .

وكانت نظراتها ملمعة بتعبير بليغ عن العطاء الكلي ، اللامحدود ، حتى انه ارتعد خوفاً ، ومدّ يده الى عينيها فاغمضها . وكانت شفتاها منفرجتين ، وقد بدت تحتها اسنانها الصغيرة كاسنان الخروف عندما يفصل الجزّار رأسه عن جسده . هناك ثلاث ابتسامات متشابهة : بسمة الميت ، وبسمة المرأة السعيدة ، وبسمة رأس الحيوان الذبيح .

حدّق اليها برهة بكل انتباه ، ثم اخذ يحاول تمييزها من سواها ، ليرى ما الذي يجعلها اكثر من جسد انثى ، وشيئاً آخر غير الاداة اللازمة لتمرّن فن المداعبة ، او شيئاً آخر غير مرآة رأى فيها نفسه وهو يتمتع .

استلقي الى جانبهـا ملتصقاً بها . واحس بفكرة كئيبة ترفرف في روحه ، ثم انطلقت هذه الروح تجول حول كل ما هو غير سولانج .

انها الفترة الدهرية التي يقول فيها الرجل قول الانجيل : « ما لي وما لكِ يا امرأة ؟ » انها فترة الرحمة للنساء .

ولا ريب في ان الغيوم حجبت وجه السماء في هـذه الاثناء ، لان الغرفة غدت احلك ظلاماً . فتذكر كوستال النساء المترهلات الاعصاب ، البيضاوات الاجساد ، الغارقات في المعـاصي والذنوب ، اللواتي يأخـذهن الرجل بـين ذراعيه ، في ساعـة الغسق ، في مكان مرتفع ومشرف على المدينـة حيث يبـدأ تدريجيـاً اشتعـال الانوار ، فتقول المرأة : « هوذا ضوء يلتمع ... » ويحتفظ الرجل بهـا ، رحمـةً لهـا ، وهو يوهمهـا بأنه يحبها .

وجرّت هذه الذكرياتُ ذكرياتٍ اخرى الى ذهن كوستال ، فانفتحت حياته كلها امـام بصيرته انفتـاح ريش الطاووس ، فاذا بهـا ، ماضيـاً ومستقبلاً ، مبقّعة بصور وجوه تبقعَ ريش الطاووس بالدوائر المذهبة ؛ فاشفق على تلك المخلوقة الصغيرة المنطرحة الى جانبه ، ووجهها في حفرة كتفه اليسرى حيث غرقت قبلها وجوه كثيرة . فلو كانت هـذه الحفرة لوحة تصوير تلتقط صور الوجوه التي تنعكس عليها ، لبدت فيها صورة مذهلة مؤلفة من تراكم تلك الوجوه على صفحة واحدة ...

اشفق عليها لانها جازفت بحياتها ، وألقت بنفسها بين يديه . ولكنه على الرغم من هذه الشفقة احس انـه لن يتردد في لومهـا وتوبيخها اذا لجأت الى اقل حيلة في تصرفهـا معه ، او اذا اتخذت بعض الاحتياطات على سبيل التحفظ .

اشفق عليها لأنه لا يحبها اكثر ، ولم يجد من الاسباب اكثر من التي وجدها لتزداد حرارة حبـه لهـا ... ولانها بالنسبة اليـه واحدة بـين كثيرات ، بينما هو الوحيد بالنسبة اليها ؛ ثم لانها تعتقد انه يعطيها نفسه ،

بينما هو يعلم انه لا يستطيع اعطاءها هذه النفس .

وجعل يفكر قائلا في نفسه :

« يصرف المرء ايام الشباب في حب اشخاص لا يستطيع امتلاكهم إلا امتلاكا ناقصاً ، سيئاً ، لشدة خجله . وفي سن النضج يصرف ايامه في امتلاك اشخاص لا يستطيع ان يحبهم إلا حباً ناقصاً سيئاً ، لانه شبع واكتفى ».

كانت احدى ذراعيه تحت رأس سولانج ، ولكن وجهه وجسده كانا متحولين عنها . وكان من حين الى آخر ، يحس ان خيانته لها تزداد قسوة عليها في اعماقه ، فيمد يده باحثاً عن يدها ، ليشجعها ويقويها ، كأنها تقرأ ما في نفسه وتحتاج الى التروث .

وبما انه نال منها كل شيء ، ولم يعد ينتظر مزيداً ، شعر بحاجته الى مضاعفة تظاهره بملاطفتها والعطف عليها ليقاوم مجرى الوقت الذي يدفعه بسرعة الى يوم محتوم ينتهي فيه حبه لها .

استدارت صوبه وقبّلته على خده دون ان تفوه بكلمة . وعلى الرغم مما جرى بينهما ، احتفظت قبلاتها بنضارة الطفولة وبراءتها . وقد خرجت من ركودها الطويل لتطبع على خده هذه القبلة ، كما ترتفع موجة وحيدة فوق بحر هادىء . فانفجرت من قلبه صيحة تقول : « من المحتمل ان تتعذب بسببي . احبها ، ولكنها لا تملك القدرة على تعذيبي . يجب ان اضع حداً لهذه اللعبة ، لهذا التفاوت المقيت الذي لا يخسر فيه الا الضعيف ! »

وارتفع فيه صوت يهمس في اذنه : « تقول انك تحبها ، ولا تستطيع ان تتعذب بسببها ، وهذا يعني انك لا تحبها » . فردّ على ذلك الصوت قائلا : « ما أغرب هذا الاصرار على اعتباري شبيهاً بالآخرين ! احبها ولا يمكن ان اتعذب بسببها لاني اختلف عن سائر الناس . لست من الذين يسهل تعذيبهم » .

واستولت عليه شهوة جامحة الى اعلان الحقيقة . وكانت هذه الشهوة تحتدم فيه احياناً فيضاً من الانوار او غمراً من الغموض ، او هالة من المجد او نزوة من الرذيلة ، حتى ان احدى صديقاته سمّتها : « الاستقامة الكارثة » . وفي هذه اللحظة المفعمة بالاحاسيس احب ان يقول لسولانج : « يا صغيرتي الحبيبة ، يا صغيرتي الحبيبة ، من الافضل لك ان اتركك : لا احبك كفاية ، ولا بد لك ، انت ايضاً ، من التخلي عني يوماً ما لامرأة سواك . وسيأتي يوم لا اعود فيه اتذكر ملامح وجهك . اني من النوع المتشرّد بين الرجال . سأحب نساء اخريات ، جديدات ، وقد اكون بدأت احبهن منذ الآن (لم يكن هذا القول صحيحاً) . وربما لم اعد احبك ... ربما اني لم احبك قط ، يا ابنتي الحبيبة ... » ولكنه كان يعلم انهما كالآخرين ، كمعظم هذا العالم ، تعيش وتتغذّى بالكذب دون سواه ، وقد تموت اذا لم يكذب احد عليها . وان الحقيقة مكروهة وممنوعة تحت طائلة التأديب البوليسي ، اذا تنزهت عارية كما هو معروف عنها[1] .

لزم الصمت ، ولكنه ضغط بشدة على يدها ، وهو يقول في نفسه : « ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . اما هي فقد امعنت بدس وجهها في عنقه ، وارسلت هديلاً لا ننصفه اذا شبهناه بهديل الحمامة ، لانه كان هديل الحمامة بالذات .

سألها ما معنى هذا الهديل ، فاجابت : « يعني اني على ما يرام ... » وكان صوتها بعيداً ، عميقاً ، كأنه آتٍ من ذاتٍ اخرى لها ، من شبحها وهي طفلة ، وكأن هذا الشبح يتكلّم من اعماق وجدانها الذي وقع فيه .

فتذكر ، عندئذٍ ، انه عرف نساء لم يبعثن فيه مثل هذه الرغبة في الفرار ، حين كان يستلقي الى جانبهن ، بعد الوصال ، كما هو مستلقٍ

---

[1] ـ اشارة الى المثل الفرنسي القائل : « الحقيقة تخرج عارية من البئر » .

الآن ، الى جانب اولئك النساء وفي مثل هذا الوضع ، كان يخاطب نفسه قائلاً : « قد اموت هكذا ، ولا يهمني ان اموت الآن » . اما الى جانب سولانج فلم يتبادر هذا القول الى ذهنه ، ولم يفكر بانه راغب في الموت .

وعاد يردد : « ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . فرأى ما تنطوي عليه هذه العبارة الصغيرة من المعاني ، وتبين له ان هذه المعاني لا تختلف مطلقاً عما كان يشعر به نحو اشخاص كثيرين ومن مختلف الانواع . وليس المهم ان نعرف كيف يكون المرء مع الذين يحبهم ، بل مع الآخرين .

وتذكر ايضاً ما انتابه من التأثير العميق لما قرأ كتاب : « الحياة المرحة في الكتيبة » ، ووقعت عينه على اقوال النقيب الهرم « هورلوريه » الذي قال يوم احيل الى التقاعد : « خدمتُ اربعين سنة في الجيش . وكل ما له قيمة في هذه الخدمة كان نجاحي في منع بعض الجنود من ارتكاب الحماقات ، وانقاذ البعض الآخر من العقوبات ، وجعل حياة الثكنة اقل كآبة واوفر مرحاً وسروراً . فاذا وُجد يوماً أناسٌ تذكروا نقيبهم وقالوا : « كان هذا النقيب رجلاً طيباً » ، اكون قد حصلت على افضل جزاء اطمح اليه » .

ما كاد كوستال يقرأ هذه الكلمات حتى رفع رأسه ، واحس انها تغلغلت الى اعماق اعماقه ، ثم قال في نفسه : « اني رجل من طراز هورلوريه . لا ريب ان في نفسي اشياء اخرى ، ولكني هورلوريه » .

ورأى بوضوح ما تمنيه عبارته بشأن سولانج ، ورغبته في « ان تكون مسرورة » لان هذه الرغبة لم تكن تختلف عما احس به حيال رجاله في جبهة القتال . فقد كان يسائل نفسه : « أتراهم مسرورين ؟ أتراهم يحتاجون الى شيء او يشكون من شيء ؟ »

وفي منزله كان اهتمامه يتجه الى الخدم ، فيزعج نفسه ليسمح لهم

بالحصول على اوفر نصيب من المسرات والانشراح . وفي المستعمرات ، كان اذا سمع احد الخدم الزنوج يسعل وهو نائم ، يهبُّ من فراشه ويغطيه بحرام ليدفئه .

لو عرضنا حياة كوستال على هذا الصعيد لتبين لنا انه كثيراً ما كان يرى شريداً مجهولاً ، فيأويه في بيته ، ويستضيفه ، ويتضامن معه في ظل هذه الضيافة ؛ وكان يلتقي كثيرين من الرجال والنساء المحتاجين ، فيعطيهم اكثر مما يعطيهم سواه في مثل حاله . وكان يعطي دون ان يكون مدفوعاً بمبدإ يدين به ، ودون ان يؤمن بان الخير افضل من الشر ؛ كان يعطي دون ان يكون له رأي ثابت في هذا العالم ، لانه ادرك عن كثب ان تحديد شؤون الحياة غير ممكن ، وان « الشعب » لا يحصر في نطاق ثابت من الاعتبارات ، وان هذا النطاق لا يصلح لاظهار حقيقة سكان المستعمرات ، ولا حقيقة النساء ، او الفرنسيين . فكل شيء موجود في كل شيء ؛ والاخيار اشرار ايضاً ، كما ان الاشرار اخيار ؛ واعطى ، اخيراً ، دون ان يخامره اقل فكر بان هذا العطاء محسوب له في مكانٍ ما من قلوب الرجال والنساء الذين اعطاهم ، والذين نسوه بسرعة ، او في اعتبار الرأي العام الذي يجهل اعماله ، او امام المحاكم البشرية التي يوزع منها الاوغاد مظالمهم ، او امام المحكمة السماوية التي لا يؤمن بوجودها ، وكل ما يستطيع قوله فيها انها لو وجدت ومثل امامها في قفص الاتهام لجاء مئات من الناس يشهدون له . وليس من العجب ان يمثل امام المحكمة لانه لم يبالِ قط بالقوانين .

وفي تلك اللحظة ، رأى ان سولانج دندينّو واحدة من الجمهور الذي تراءى له ، فاشفق عليها لانها لم تكن معه في عزلة عن الآخرين .

وظل مستلقياً ، لا يفكر بها ، فسألته :

— بمَ تفكر ؟

لان صمته الحالم كان قد اقلقها ، فاجاب :

— بلى .

والشاب في ضميره خيط من السأم في منتهى الخفة والدقة ، فقال في نفسه : « سأضع ، يوماً ، في احد مؤلفاتي ، صورة" لاسنانها الشبيهة باسنان الخروف الذبيح ! » ولدى تفكيره بانه « سيستعمل » سولانج ، احس" بغصة تشد على عنقه كأنه على وشك البكاء . ولكن فكرة مفاجئة ، مرحة ، قفزت من ذهنه كما يقفز الدلفين فوق مياه البحر الهادىء ، فراح يخاطب نفسه قائلاً : « ما اكثر ما سمعت الناس يرددون اني مذنب ، وحتى « مجرم » ، لاحجامي عن أخذ فتاة تقدم لي نفسها ! فيا ايتها الطبيعة ، ويا ايها المجتمع ، ويا ايها الرأي العام ، أراضون انتم هذه المرة ؟ اراهن على انكم تجدون في تصرفي شيئاً من النقص حتى في هذه الساعة » .

وسلّته هذه الفكرة بقدر ما شجعته على البوح بما في صدره ، على قول ما كان يصعب عليه قوله ، فجلس ، وانحنى على سولانج ، وابتسم لها قائلاً :

— انت خليلتي الآن ، يا صغيرتي دنديّو ! وقد رأيت كيف تجري شؤون الحياة ... وانا مستعد ان اشاري لك كرزاً اذا استطعت الانفصال عني .

فقطبت حاجبيها قليلاً ، فجعل يمسّد بابهامه جبينها المتجعد بين الحاجبين ، وهو يقول :

. قلت : « لا » ، بينما كنت تفعلين معي ما فعلنا ، فانقذت شرفك . ولكن ثمة اشياء مزعجة . أتدرين ما ينبغي للمرأة ان تعمل في مثل هذه الحال ؟

وهمس في اذنها كلمات لها علاقة بالصيدلة . وودّ لو ان الحجرة التي تحتويهما اشد ظلاماً ، لو انها تحضن حلك الليل كله . وردد مرات عديدة قوله : « يخجلني ان اقول لك بعض الاشياء ... » ولكن الحقيقة ان خجله لم يكن

ناجماً عن هذه الاشياء ، ولا عن اضطراره الى قولها ، لانه كان يعلم انها مفيدة ، وان كل مفيد ينطبق على قواعد حسن الاخلاق ... بل خجل لانه كان يردد كثيراً هذه الاقوال في مناسبات شتى .

واخيراً ، نهضت سولانج دون ان تفوه بكلمة ، وتوارت في الغرفة المجاورة .

وجلس كوستال في مقعد وثير ، وراح يصغي الى ضجة الماء الجاري من مختلف الانابيب والحنفيات في المغسل ، ويقول في نفسه : « ها هي تعمل كذا الآن ... ثم تعمل كيت ... » فكأنه كان يرافق حركاتها بفكره دون ان يراها ، فاذا بالشبه الكبير بين هذه الدقيقة ومئات الدقائق الاخرى التي عرفها في مثل هذا الموقف يغرق نفسه في خضم من الكآبة ، فقال مخاطباً نفسه : « هذا شيء جديد ، مدهش ، بالنسبة اليها ... اما بالنسبة اليّ فهو عادي عتيق » . ولو انه غنم من هذا الوصال متعة كبيرة لكانت كآبته اخف وطأة ، ولكن الحصول على المتعة الكبيرة يتطلب مزيداً من الجهد . وقد لاحظ ان سولانج لم تغنم من عملها لذة تفوق لذته .

وعادت من المغسل ، فاتكأت بيديها الى مسندي المقعد الجانبيين ، وانحنت على كوستال ، بحركة كلها رأفة ، وفيها أغنى معاني الانوثة ، فاذا بهما شخصين نجَوَا من الغرق ، واستلقيا جنباً الى جنب على رمال الشاطىء يلتفسان الصعداء . وتوغّلت بقوة في اضطرابه حتى تقلّص هذا الاضطراب ثم تلاشى ، فانتقل الى مقعد وسيع ، واجلسها الى جانبه ، ثم قال لها :

— اجل ، كل ما جرى مزعج ومؤسف . ومع ذلك فقد أريتك منذ قليل تلك المرأة لتدركي مصير الفتاة التي لا تقوم بما يجب عليها القيام به في الوقت المناسب . ثقي بان ثمة طريقة واحدة لحب النساء هي : الوصال ، وطريقة واحدة لاسعادهن هي : احتضانهن . فالبخور بحاجة الى

الحرارة ليتضوّع منـه العبـير ؛ والنساء يحتجن الى هـذه الحرارة لتفوح عطورهن . وكل ما تبقى ، كالصداقة ، والاحترام ، والتجاذب الفكري ، يظل كشبح الوهم اذا خلا من الوصال . والشبح قاس . دائماً ... جميع الاشباح قاسية . اما الحقـائق فلستطيع التفاهم معها . ألا تذكرين قول القديس بولس : « الحرص على الجسد هلاك للروح » ؟ اني اعرف عائـلات عديدة شقية بسبب « احترام » الرجل لزوجته . يجب ان تُعامل المرأة كأنها خليلة باستمرار ، وليس مرة واحدة ، في اندفاع حامي عـابر . وليست المشكلة في ان هذا الاستمرار سهـل او صعب ، انما هناك اعتبارات اخرى اود اطلاعك عليهـا : لا ريب في انك مُنيت بخيبة مرة ، منذ قليل ، في ذلك التواصل الابله الذي تمّ بيننا ، كما مُنيتُ انا ايضاً بالخيبة . ذلك ان الفتاة الفرنسية تحتـاج الى ستة اشهر من المران لتتعلم كيف يجب ان تجني المتعة ؛ اما الفتاة الايطاليـة ، او الاسبانية ، فيكفي ان يقبض الرجل على كتفيها لتنهار بين ذراعيه ، وتغرق في اللذة العارمة . اما الفرنسية فبطيئة الانطلاق ، يضطر الرجل الى بذل جهود كبيرة ليعطيها قليلاً من اللذة ، وقد اعتدت أن اعالجها ستة اشهر حتى تبلغ النضج المرتجى . ربما حصل لك بعض الشر من اخذي لك ، ولكني لو لم آخذك لحصل لك شر آخر لانك تحبينني . ثم انك بلغت الحادية والعشرين من العمر . لا أعني ، طبعاً ، انك في خريف حياتك ، ولكن تذكري ما جرى في المباراة الاخيرة لاختيار ملكة جمال العالم : فقد تم الاتفاق على اعتبار الثانية والعشرين من العمر حداً اقصى لنضج الجمـال وتألقه ... تشجعي ، يا حسناني ، ودعي الوقت يأخـذ مجراه ، فسيأتي يوم تشعرين فيه بشهوتي من بعيد ، وتغمرينها بحبك . وسلتتناسق وننسجم معـاً كرفيقين في مبـاراة ركض طويـلة ، فنسير متفـاهمين ، متشاركين ، نتخاطب في فترات صمتنـا ، فتريدين ما أريد ، واريد ما تريدين . وعندئذ لا تلتمسين الظلام كلما احتضنتك ، بـل تطلبين وضح

النهـار لتريني ، وستريني ... ما الذي سيسعفني في شيخوختي ؟ انتاجي الادبي ، وذكريات السعادة التي منحتها للنساء في حياتي ... وستكونين احدى هذه النساء .

وكانت تلامس شعره برفق ، ثم عقدت يديها على ام رأسه ، والقت جبينهـا على صدره بحركة تعبّر عن الخضوع اللامتناهي ، فلم يعـد يرى غير شعرها .

وبعد قليل خرجا . رأيا رجـلاً عجوزاً جـالساً على بنـك ، يطعم العصافير ، فانحرفت سولانج عن طريقها ، وابتعدت كي لا تنفر العصافير المتجمعـة حول العجوز . وفي الشوارع ، حول بعض الوجوه المشرقـة ، كانت تجري الحثالة المقرفة الحاقدة ، حثالة الذين لا يحبون ، ولا يجدون من يحبهم ، ناهيك باشكال اخرى من الدمامة اشتهر بها الباريسيون .

واحس كوستال للمرة المائة — دون ان يفقد احساسه شيئاً من جدته وفتوته — بنشوة الاعتزاز الملكي لأنـه يسير الى جـانب امرأة تسترعي بجمالها الانتباه ، وتكاد تثير حولهـا صيحات الاعجـاب ، وهو يرافقهـا مرافقة المالك الشرعي لها .

وكانت حتى ذلك الحين تخاطبـه بصيغة الجمع التي لا تستعمل إلا بين الذين لم ترتفع بينهم الكلفة بعد ، وتجهل انها تمنح كوستال بذلك سروراً ممتعاً ، لأنها تسمح له بان يخاطبها بالمثل ، وبان يلقي على علاقتها الحميمة ستاراً من مظاهر الوقار والاحتشام المتبادل ، فيخلق ، الى جانب الحالة الحقيقية ، حالة اخرى تناقضها ، ويتلاعب بهذه الازدواجية وهذا التناقض على هواه . وقد كان هذا التلاعب طابع شخصيته الخاص .

وفي بعض الاحيان ، كان يضع يده على خصرها ، كأنه يريد التثبّت من انها الى جانبه . إلا انها ما لبثت ان تأبطت ذراعه ، فكانت تلك المرة الثانية التي اقدمت فيها على هذه البادرة ، أما المرة الاولى فكانت يوم نشب بينهما ذلك الخلاف الكبير . وفي كلا المرتين فعلت ما فعلت

بعد ان اساءت اليه وآلمته ، فتأثر ، واحس بعطفه عليها يزداد ويتدفق .
ولكنه ما لبث ان تضايق من تعلقها بذراعه ، لانه منذ ايام شبابه ، ومنذ ان خرج للمرة الاولى مع امرأة ، وكان في التاسعة عشرة من العمر ، ما برح يرفض بعناد توقيع سيره في الشارع على سير رفيقاته . كان يعتبر هذه المسايرة بمهزلة تحط من قدر الرجل . لذلك مشى مع سولانج مشية مرتجة حوالي خمسين متراً ، وهو يسائل نفسه لماذا يعجز الرجل عن السير مستقيماً عندما تكون المرأة التي يحبها وتحبه متأبطة ذراعه ! أفليس في هذا العجز رمز عويص المغزى ؟

وكأن سولانج شعرت بارتباكه ، فأصلحت خطوها كجندي يسير في عرض ، ووقعت مشيتها على مشيته ، فلاحظ دقة انتباهها وارتاح الى بادرتها ، ولكنه تضايق اذ خيّل اليه ان ثقل سولانج كثقل سلسلة تكبل ذراعه . لقد احبت المسكينة ان تتقرب منه ، فنفّرته ، وجعلته يكره ان تكون الى جانبه امرأة . واغتنم فرصة تعرقل السير ، والمرور بين السيارات المزدحمة ، فانفصل عنها برفق دون ان يشعرها بنفوره . ولما تحرر منها ، احس بعطفه وحنانه يفيضان عليها من جديد .

وكانت سولانج مدعوة ، ذلك المساء ، الى تناول العشاء عند احدى صديقاتها ، فتوجهت مع كوستال الى بيت هذه الصديقة . وفي اثناء الطريق ، مرّا باعلانات كبيرة علقتها مكاتب السياحة والسفر ، عليها صور نساء سمراوات فاتنات لاغراء السياح الفرنسيين ، وصور ماسحي احذية صغار لجلب السياح الانكليز ، وصور اخرى ، ورموز تدل على هذا الاختراع الشيطاني المليء بالمماكسات ، والمزعجات ، والاخطار ، واضاعة الوقت ، وتحطيم الاعصاب ، الذي يسمونه : السياحة ، ولا مثيل له إلا الحرب ، مع العلم ان المرء في السياحة يبذل امواله ، وفي الحرب يتقاضى اجراً عن عمله .

وفي هذا الجو من التفكير خامرت كوستال رغبة في ان يقدم شيئاً

لسولانج ، واحس انه ينفر من السياحة ولا يروقه دوار البحر حتى ولو كانت الى جانبه . إلا انه احب ان يبذل مبلغاً كبيراً لاجلها ، لأن هذا البذل لم يعد يعني الشراء بعد ان سلمته نفسها وكانت له بكليتها . وكان في هذا الشعور ما فيه من الرقة واللطف حتى في بعض الاعمال الوضيعة التي يقوم فيها المال بدور كبير . وكثيراً ما خيّل لكومستال ، حين كان يبذل ماله في مثل هذه الاحوال ، ان الاوراق النقدية تتململ في محفظته كالحصان الاصيل المتحفّز للانطلاق عندما يُرفع امامه الحاجز .

قال لسولانج :

— يا صغيرتي الحلوة ، احب تبذير المال في سبيل النساء . هذا جزء من شرف حياتي . وبعد حين ، عندما امسي عجوزاً شقياً ، لا مورد لي سوى معاش سنوي قدره ثمانمائة فرنك خصتني به جمعية اهل القلم ، وعائدات التبرع الذي فتحته لاجلي جريدة « الفيغارو » ، فسأحلم بان المال ، الذي اغدقته على من احببت في حياتي ، يتجمع في مكان ما تجمعاً مرئياً ، ملموساً ، فامضي من هذه الدنيا مسروراً بما فعلت ، وعيناي شاخصتان الى هذا الجبل من الذهب — من ذهب اعتبره مستخرجاً من صلبي . اقول هذا وليس في نيتي ان اجرح شعورك . فالغاية من هذه المقدمة هي اني متضايق لاني لا اصرف في سبيلك إلا القليل من المال عندما نخرج معاً . اشعر اني مع امرأة شريفة ، وهذا ما يزعجني حتى الايلام ...

ما معنى هذه الغمزة ، او بالحري هذه الوخسة اللئيمة ؟ ألم يتمخض بها ذهنه بعد ان ...

يا للذكور ما أخبثهم ! ان أفضلهم لأشدهم مكراً !

وأكمل حديثه قائلاً :

— ثمة اوراق نقدية ما وُجدت الا لتتحول الى سعادة ، وانا خبير فيها . ولا اخفي عنك اني احذق الافادة من الحياة والخليقة . أتريدين مرافقتي في سياحة تستغرق شهرين ؟ اقول « شهرين » لأن هذه المدة هي

الوقت اللازم لافناء حب صادق جميل . وقد تطول هذه المدة اكثر من شهرين ، الى ان يرتوي احدنا من رفيقه ويساوره السأم .

قال : «احدنا» على سبيل التورية ، وهو يعلم انه سيكون البادىء بالقطيعة . واستأنف حديثه قائلا :

- نذهب الى حيث تشائين . الى ايران . الى مصر . او الى ترنسلفانيا . او الى بنسلفانيا . او الى جبل ارارط . لا اقول لك كلمات خالية من المعنى للتسلية . ما عليك إلا ان تتفوهي بكلمة ، باسم بلد ما ، وهيّا بنا . في حياتي وفي فني استطيع كل شيء . الصعوبة عندي هي ان اشتهي شيئاً . وها اني قد اشتهيت هذا الشيء . وانا على ما يرام ، لاني احب شهواتي . يخيّل اليّ ان الله اعطاك اهلاً يريدون سعادتك قبل كل شيء . وستعودين من رحلتنا مزوّدة بشهرين من السعادة . وبهذه السعادة تضمين يدك بقوة على المستقبل ، اذ تصبحين افضل حالاً للزواج . لستِ عذراء ، على الرغم من اني اصر على ان ادعوك « فتاة » ؛ فالاجتهاد في التسمية من حقوق الكتّاب الكبار . ولا استطيع ان استعمل كلمة : « امرأة » ، إلا اذا كنتُ مكرهاً ، لاني احب الشباب . وكلمة « امرأة » تبدو لي قديمة ، نابية . لستِ عذراء ، ولكني اعرف الرجال ... فبقليل من الحنكة والذكاء تستطيعين اقناع زوجكِ بانكِ مثال الطهارة والنقاء . واذا عرف الحقيقة ، فلن يفوه بكلمة احتجاج ، فلسنا شعباً همجياً في فرنسا ! فإما ان يجعلك سعيدة فلا يبقى لك مجال للندم ، وهذا ما اسمح لنفسي بان ارجوه لك ؛ او تصبحين شقية معه ، وفي هذه الحال لا اكون بعيداً عنك ، فنطلقك منه ، اذا دعت الحاجة ، ونعود معاً الى جبل ارارط . وامر هذه الرحلة متروك لك ، فان شئت جعلناه سرياً ، وان شئتِ أعلناه للجميع . واذا اعلناه فسيكون لك مبعث مجد وفخار . انك لا تهتمين مطلقاً بامجادك ، فلا بد من ان اقوم عنك بهذه المهمة . ولكن في وسعنا ان نحيط سفرنا بالكتمان ، فقد قمت بعشر

رحلات عسل في حياتي ، فما عرف احدٌ عنها شيئاً . وافضل الذهاب الى المنفى والقيام بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، على ان افشي بسر امرأة احببتها . واعلمي اخيراً اني اقترح عليك مشروعاً لا يمكن رفضه ، ولا نجد بين الذرائع الخلقية والاجتماعية وغيرها ما يحظر علينا تنفيذه . لا ريب في اننا سنلتقي باناس سخفاء يقولون لي : « انت ، يا رجل ، مخلوق سافل قذر » . إلا اني ساجيبهم : « لست مخلوقاً قذراً . اني روح ترفرف في الهواء . والحقيقة الساطعة اني لست من جبلتكم وطبيعتكم ، الخ ... » واعلمي ايضاً ان على من يريد ادخال السرور الى قلب شخص ما ان لا ينظر بعيداً ، وان لا يهتم بالعواقب والذيول . اذا اراد المرء ان يُسرّ احداً ، فكأنه يضع مؤلفاً ادبياً ، ومن واجبه ان يعمل عمله دون ان يبالي باحد ، لانه اذا فكّر كثيراً بما يعمل فقد يحجم عن العمل ...

وشرد برهة في تفكيره ، وهو يحلم بان يرى معها جمال العالم ، وان يكشف لها عن هذا الجمال ، وان يصبح وحدةً متماسكة معها ومع هذا الجمال . ثم تفكك حلمه ، وخفق قليلاً ، وسار على طريق جديدة . وتذكر انه احب يوماً ان يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه اراد السفر وحده . ولم يكن بين البلدان الجميلة التي راودت خياله بلد لم يزره مرتين : مرة وحده ، ومرة مع امرأة محبوبة . وكلما اراد ان يبعث في نفسه صور هذه البلدان ليخدم بها فنّه في الكتابة تراءت له المشاهد التي كان فيها وحده ، ووجد فيها ما تتوق اليه نفسه من القوة ، والشعر ، والفعالية .

لا يستطيع الرجل ان يكون وحيداً بكل معنى الكلمة اذا كانت الى جانبه امرأة . هذه شريعة عظيمة خالدة . واذا كان الله قد قال : « الويل للرجل الوحيد ! » فلأنه يخشى الرجل الوحيد . وقد جعله « زوجاً » ليضعفه ويجعله تحت رحمته .

ولكن كوستال نفى من ذهنه التفكير بالانفراد والعزلة ، وهو يقول

في نفسه : « مهما يكن من الأمر فكل ما قد اعمله بسولانج سيكون لاجلها . وليس قليلاً ان يُسعد المرء مخلوقة جديرة بالسعادة ... »

وجرّها الى تحت قنطرة باب كبير حيث وقف ينظر الى وجهها باهتمام باحثاً فيه عن المكان الافضل ليطبع عليه قبلة ، ثم لثم احدى عينيها بلطف وخشوع ، وأبقى شفتيه طويلاً ملتصقتين بجفنها .

وعندما همّا بالافتراق قال لها :

.. أتدرين اني سأضع في احد كتبي صورة جاءتني منك ، من اسنانك ؟ سأشبهها باسنان خروف ذبيح .

.. يا للفظاعة !

.. هذه هي الحقيقة ، ولا بد من قولها . ولكن ألا يزعجك ان « استعملك » في مؤلفاتي ؟

– لا ، بل يسرني ان اكون مفيدة لمؤلفاتك .

– هذا قول حسن ... ولستر الاول في قوله ... اجل ، انه قول حسن ... وهكذا استطيع ان احبك اكثر مما احبك الآن .

والقى عليها نظرة تشع بالعطف ، فاتخذت ملامحها طابع جدّ بليغ التعبير ، فبدت اقل حسناً مما كانت . وفكر كوستال بانه اذا استمر على هذا المنوال الى نهاية المطاف ، واذا اقترن بها اخيراً ، فلن يكون اقترانه إلا رحمة لها . فساوره الخوف من الرحمة .

ولما عاد الى مخدعه وطفق يرتب سريره ، رأى على الشرشف بقعتين مستطيلتين من الدم . ففكر بان هذا الشرشف سيرسل الى الغسالة لينظف ، ولو انه تلوث هكذا منذ خمس عشرة سنة ، لاحتفظ به كما هو تذكاراً للحادث الجلل .

واعتلجت في صدره غصة موجعة ، اذ تبادر الى ذهنه انه لا يعطي سولانج بقدر ما تستحق . ولكي يعوّض عليها ، استلقى على السرير ، ثم رفع الشرشف الملوث ، ووضع دمها على قلبه ، وغرق في النوم وهو

يشعر بانه في حماية ما يكنّ لها من المودّة .

وفي الايام التالية ، انتظر اشارة من اندريه تنبئه بانهـا ما تزال في قيد الحياة : رسالة ، او برقية ، او زيارة ... وجنّد البوّابين ، والخدم ، وجميع الذين يلوذون به ليقطعوا عليهـا طريق بيته ، فكان في حذره سخيفاً مضحكاً ...

اواه ! ليتـــه يستطيع نفيهـا الى جزيرة الكلاب ، بالقرب مـــن القسطنطينية ، او الى بلد بعيد من هذا النوع !

إلا انه لم يتلق من اخبارها شيئاً .

أتراها انتحرت ؟

ما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى اسبغت عليه ارتياحاً عميقاً .



من العادات المستهجنة ، لدى جميع الفتيات تقريباً ، رغبتهن في تعريف ذويهن الى الرجل الذي يحببنه ، حتى ولو كان ذووهن بلهاء ، تافهين ، ينفّرون منهن هذا الرجل الحبيب . وعلى هذا فقد كان لا بد من دعوة كوستال الى تناول الغداء في بيت دنديّو .

وكان ظهور العائلة امامه يثير في نفسه ثلاث عواطف : الخوف من الـ « هيبوغريف » المهدد ، فيقول في نفسه : « ها هم يباشرون الحصار » ؛ والشعور بالسخافة ، لان فكرة السخافة مقترنة في ذهنه بفكرة العائلة ؛ والنفور الشديد ، لانه لا يستطيع إلا ان يكره الاهل ، ما دام من المحتمل ان يصبحوا يوماً اعداءه .

وقد اجتمعت هذه العواطف الثلاث في نفسه حيال دعوته الى بيت دنديّو ، فساوره مزيج من الاهتياج والغيظ ، فيه شعور بالمجازفة ، وبالتجربة التي لا بد من بذل الجهد لاجتيازها .

وكانت سولانج قد ارادت تشويقه وتحريك رغبته بقولها له : « سترى ان اهلي لطفاء ، سيجدّابون » ، فراح يفكر قائلاً في نفسه : « يجدّابون بالنسبة الى من ؟ بالنسبة اليها ؟ هذا امر لا يهمني . بالنسبة اليّ ؟ ما يدريها ؟ »

وتذكر اولئك الناس الذين يكتبون على بطاقات دعواتهم انواع الطعام التي يقدمونها في حفلاتهم ، ليشجعوا المدعوين على تلبية الدعوة : « شاي ، بورتو ... »

يا لتهذيب الاوروبيين ما اغلظه اذا قيس بتهذيب المتوحشين : كالصينيين ،

الخ ...

وما كاد كوستال يرى السيدة دنديّو حتى بدت له بقامتها كأنها حصان ، وبقبافتها من رجال الدرك . كانت اطول من زوجها ومن كوستال بمقدار الرأس ، فهال الكاتب ان يرى فيها صورة كاريكاتورية لابنتها : الانف ذاته ، إلا انه مشوّه ؛ والشفتان نفسها ، إلا انها كالحتتان لا لون لهما ؛ النظرة ذاتها ، إلا انها مثقلة بعبء السنين . واذا لم يكن هذا المشهد مريعاً ، لانه من الامور الطبيعية ، فكان بالغ التأثير ، على كل حال .

وجعل كوستال يخاطب نفسه قائلاً : « في الخمسين من العمر ، ستصبح خليلتي في هذه البشاعة . وبعد خمس عشرة سنة ، ستكون كتلة ضخمة من الشحم واللحم . هذا انذار من السماء : لا يجوز لنا ان نضيع دقيقة واحدة من حياتنا » .

وتألم في اعماق نفسه اذ درى ان السيدة دنديّو على علم بالعلاقة القائمة بينه وبين سولانج ، وانها قد تكون أملَتْ على ابنتها ما يجب عمله في بعض المناسبات . وكان تفكيره بان سولانج لا تستطيع الكذب يرهقه كيوم شديد القيظ .

اما السيد دنديّو فكان ، بخلاف زوجته ، وسيماً ، وفي وسامته نبل ، حتى ان من يراه لا يحسبه فرنسياً . وكان حليق الوجه ، يكسو رأسه شعر كثيف كشعر الشبان ، ولكن الشيب بيّض اكثره ، فبدا كأنه طبيب حنون ، كاولئك الاطباء الذين نرى صورهم في اعلانات العقاقير . وكانت ابتسامته مشرقة جذّابة ، تكشف عن اسنان سليمة ناصعة البياض . إلا ان جميع قسمات وجهه كانت متوترة من شدة الألم ، تدل بوضوح على دمغة مرض عضال . ولما جلس الجميع الى مائدة الطعام ، لم يفه السيد دنديو إلا بكلمات قليلة على سبيل المجاملة .

لا شيء يلبىء بحقيقة المرء كمنزله . هذا ما يردده الناس في اغلب

الاحيان . وكان منزل اسرة دنديّو يدل على فقدان الذوق الفني في ترتيبه ، على الرغم من وجود هذه الاسرة في محيط اجتماعي راقٍ ، وفي باريس . فكانت هناك اشياء جميلة جداً الى جانب قذارات رخيصة تدل على الادعاء والغرور . ولم يكن لأحد عذر في عرض هذه القشور ، لانها كانت معروضة على سبيل التبرج والمباهاة .

لو رضي رجل اعزب بمثل هـذا البيت ، لكثرة اشغاله ، او لعـدم مبالاته بالمظاهر الخارجية ، لوجد له كوستال عذراً . اما ان ترضى بـه اسرة محافظة ، وفيها فتاة كسولانج ، وان تحجم هذه الفتاة عن اجبار ذويها على جعل منزلهم لائقاً ، وان تحتمل هذا الاثاث الذي يؤذي العين ، فأمر لا يطاق ... وقد اعتبره كوستال كافياً لادانة سولانج . فلا ريب ان فيها شيئاً من القبح يرتاح الى الاقامة بين ما يحيط بها من سقط المتاع . وبدا له الامر في غاية الخطورة لانها لم تتردد في اطلاعه على هـذه الاشياء ، ولم تفكر بالصدمة التي تسببها له ، ولا بما قد يستنتج ضدها من هذه الصدمة .

وبدأت السيدة دنديّو تتحدث عن ابنتها كأنها تعرض بضاعة للبيع ، فقالت ان سولانج لم تُصب قط بمرض ، وانها لا تحب العطور ، ولا الحلي . ولما اجابها كوستال بانه لا يحب هذه الاشياء ، قالت بدلال واضح المعنى : « هذه نقطة تشابه جديدة بينكما » . وقال كوستال في نفسه : « يا للمصيبة !... انها تعتبرنا خطيبين منذ الآن » .

وتحدثت السيدة دنديّو عن زوجها كي لا يظن كوستال انها تزوجت بجثة ، فقالت انه مؤسس الحركة الرياضية في فرنسا ، وانـه تولىّ ادارة الجمعيـات الرياضية ، وشجع الفتيـان على الاهتمام بالحيـاة الرياضية ، وكان « رجل عمل » . فكبت كوستال نفسه ، وبلع ما كان يريد قوله من ان هـذا العمـل ضرب من الجرب يسبب الحكة لا اكثر ولا اقل ، وان العمل الوحيد الجدير بهذا الاسم هو العمل الداخلي ؛ وان كل

رجل عمل يستطيع تبرير عمله اذا جودل فيه ، لان الدفـاع عن العمل مستحيل ، الخ ...

وكانت سولانج مُطرقـة تنظر الى صحفتها ، ولا تفوه بكلمة ، فقد تضايقت الى اقصى حد لوجود كوستال بين ذويهـا ، فتصلّب وجهها ، وبدت خبيثة وشريرة .

فيا ايتها الحياة العائلية ، هذه احدى ضرباتك ! انك تشوّهين ملاك اللطف والدماثة باعطائه وجـه امرأة شريرة ماكرة . فمن يرى سولانج للمرة الاولى كما كانت في تلك اللحظة لا يستطيع إلا ان يقول في نفسه : « انها خلاصة الخبث ، فالحذر الحذر ! »

وظل كوستال والسيدة دنديّو يتحدثان عن لا شيء ساعة كاملة . فكانت السيدة دنديّو تردد ، بعد فترة مناسبة من الوقت ، ما سبق ان قاله كوستال ، كي لا تقول حماقات ، ولتكون واثقة من ان حديثها يعجبه . فاذا قال لدى تناول المقبلات على المائدة : « ان مزاولة الصحافة لا تمنع الكاتب الحقيقي من مواصلة عمله الادبي » ، أعلنت لدى تناول القهوة ، بلهجة واثقه كأنها تريد اقناع كوستال بصدق ما تقول : « لا شيء يمنع الكاتب من وضع المؤلفات الادبية والكتابة في الصحف » . وكان كوستال يحس انه في موقف زري يزداد سخفاً وانحطاطاً ، لان وجوده في ذلك البيت بصفة « خطيب ممكن » ، كان يبدو له شائناً يحط من قدره !

خطيب ! « صهر » ! على الرغم من جميع الجهود التي بذلها لم يستطع ان ينفض عنه الشعور بهذا الذل .

وراح ينظر الى السيدة دنديو وزوجهـا ، ويحتقرهما لقلة حرصها على ابلتها قائلاً في نفسه ؛ « سواء أكان تصرفها ناجماً عن غرور ، ام عن مناورة ، ام عن جهل ، فالنتيجة واحدة : تركا سولانج تخرج مع رجل مثلي . ويصعب عليّ التسليم بانهما لا يعلمان اني اضاجعها . ربما كانا يظنان اني سأقترن بها ، ولكنهما لا يعلمان شيئاً ممـا يجول في خاطري . ما

وُجدت سولانج إلا لتكون فتاة حقيقية ، فقد كانت فيها نواة فتاة حقيقية ، فما دافعا عنها ضد نفسها ، فتباً لهما من قذرين ! لا دين لهما ، ولا تقاليد ، ولا ثقافة ، ولا كرامة ، ولا درع تقيها صروف الحدثان . ان مهمتي هي الهجوم ، وعلى المجتمع ان يدافع عن نفسه ! ولكن الواقع اني كلما حاولت الاستيلاء على الاجساد ، او اشاعة الاضطراب في العقول والنفوس ، لا اجد اقل مقاومة ، لا اجد إلا جبنة طرية . اني ألعب لعبتي ، والناس يتقاعسون عن لعب لعبتهم ».

ومنذ ذلك الحين ، بدأ يفاوض انه قد يُستدرج بطريقة ما الى الاقتران بسولانج ، وبدأت فكرة تقرّبه الى ابويها الخاليين من الذوق تعمل في نفسه ضد مشروع الزواج .

ولا بد من الملاحظة ، في هذه المناسبة ، ان ارضاء كوستال امر عسير ، فلو كان دنديو وزوجته مهذبين ، حريصين على التمسك باصول الآداب ، ولو لم يسمحا لابنتهما بالخروج معه وحدهما ، لنقم عليهما وعليها ، ولأتهمهم جميعاً بكل فرية ، ولصرف الفتاة عنه قائلا : « لا اعرف شيئاً في العالم اقبح من الصون والحشمة » .

واذا به يدين بمنطق عجيب فيحتقرهما اذا كانا مهذبين ، ويحتقرهما اذا كانا قليلي التهذيب ، فيجعل من احتقاره كماشة يقبض بفكيها عليهما كما يقبض على سولانج . واصبح في وسعه ان يطبق عليها كماشته هذه ساعة يشاء ، ساعة يزول حب الفتاة من نفسه . فقد اصبحت الآلة التي أعدها على اتم الاستعداد للعمل .

وبعد الغداء وصل اناس في زيارة تقليدية ، فاستقبلتهم السيدة دنديو وسولانج في ردهة الاستقبال ، ودعا السيد دنديو كوستال الى مكتبه .

وشرع كوستال يفكر بما قد يدور من حديث بينه وبين مضيفه ، فقال في نفسه : « اذا قال لي : اني اضع مصير سولانج بين يديك » ، (واحس بغصة من التأثر العميق والعطف تقبض على عنقه) فساجيبه :

« انها ستكون لي بمثابة اختي الصغيرة » . وهـذه عبارة سهلة ، لا تنطوي على اقـل وعد . فخليلتي ، بالنسبة اليّ ، لا تختلف عن الاخت الصغيرة .

ولما وصل السيد دنديو الى مكتبه ، ارتمى على مقعد واطيء عميق ، فبـدا صغيراً كذبابـة تنطوي على نفسهـا اذ تموت . وارتسمت صورة ساقيه الهزيلتين تحت البنطلون كأنهما ساقا هيكل عظمي . ولا نَصِفُ المكتب لأننا نعلم ان القراء يقفزون من فوق الوصف حـين يطالعون روايـة .

وافتتح السيد دنديّو الحديث قائلاً :

– يا سيد كوستال ، لستُ كالصورة التي رسمتهـا عني في ذهنك . اذا كنتُ قد لزمت الصمت على المائدة ، فلأني اتناول طعامي كل يوم مع السيدة دنديو منذ احدى وثلاثين سنة ، فلم يبق ما يقوله احدنا للآخر . اجل ، فقدت عادة الكلام ، او بالحري تعوّدتُ مخاطبة نفسي وانا وحيد في غرفتي . اما انت فقد احببت ان اخاطبك على انفراد ، لاني اود ان اتحدث اليك جدياً . ولكني اجد فيك ناحية غامضة تحملني على التردّد ، واشتهي ان افرغ جعبتي قبل ان اتحدث عن نفسي ، أفتسمح لي بان اكلمك بصراحة مطلقة ؟

اجاب كوستال :

– حاول ، ولا حرج عليك ، فسنرى ما سيكون .

واحس كوستال بانفاس الـ « هيبوغريف » تعصف بنقرته .

فقال السيد دنديّو مبتسماً ، ومتظاهراً بانه يحسب كوستال مازحاً :

– هيا بنا ، اذ لا سبيل الى التردد ، فمن يكتب مثـل هذا الكتاب الضخم (واشار الى احد مؤلفات كوستال على الطاولة المجاورة) جدير بان نكون معه صريحين الى اقصى حدود الصراحة . اذاً ، اليك ما اريد قوله : لماذا تحمل هذه ؟

ودلّ باصبعه على الشارة الحمراء في عروة كوستال اليسرى .

فاجاب كوستال :

ــ لا احب الشذوذ عن المألوف . فلو رفضت هذا الوسام ...

وكان ينوي ان يكمل جوابه قائلاً : « ... لكان تصرفي على مذهب : خالف تُعرف » ، ولكنه توقف مدركاً انه قد يرتكب هفوة .

فقال دنديو :

ــ حسناً ، وما عليك لو رفضت ؟ اود ان اطلعك على شيء .

ونهض والد سولانج ، فتناول ملفاً من احدى الخزانات ، وانتزع منه قصاصة جريدة قدمها الى كوستال ، فاذا هي تحتوي خبراً منشوراً في جريدة « اسرار مدينة ر... » بتاريخ تموز ١٩٢٣ ، تحت عنوان : « مواطننا شارل دنديو رفض وسام جوقة الشرف » . وقد نشرت الجريدة نص الرسالة التي وجهها دنديو الى الوزير صاحب العلاقة ، وهو التالي :

سيدي الوزير !

علمت انك تنوي اقتراح منحي وسام جوقة الشرف ، فاعلم اني كرست حياتي للشبيبة الفرنسية بعيداً عن اضواء الشهرة ، ولم افعل ما فعلت للحصول على مكافأة لا بد لي من اقتسامها مع ايٍّ كان .

ثم اني بلغت السابعة والخمسين من العمر . فاسمح لي ، يا سيدي الوزير ، بالاعراب عن امنية : على الحكومة ، في المستقبل ، ان تعتمد على مخبرين أكفاء ، عندما يكون الامر متعلقاً بمعرفة الاشخاص الذين عملوا شيئاً لخدمة الوطن .

وتفضل ، يا سيدي الوزير ، الخ ...

لم يجد كوستال في هذه الرسالة إلا نقمة رجل يعبّر عن خيبته لانه لم يمنح الوسام وهو في الثلاثين من العمر ، فقال في نفسه : « لا بأس بهذه الرسالة من حيث كونها شكراً بارعاً موجهاً الى وزير خامرته فكرة

القيام بمبادرة لطيفة » . اما وان السيد دنديّو اعطى رسالتـه للنشر في جريدة « احرار ن ... » فالمسألة فيها نظر ...

وتحدث السيد دنديّو بعدئذٍ ، فالقى محاضرة في « العفة » . وكان كوستال يعرف هذه المحاضرة ، ويلقيها على الناس في بعض المناسبات . اما رأيـه الحقيقي في شارات الشرف فكان شبيهاً برأي « ابيكتيت » [1] القائل ان هذه الشارات « اشياء لا يبالى بها » . ولكن الرسالة المنشورة في « احرار ن ... » تدل دلالة واضحة على ان السيد دنديّو يقيم وزناً كبيراً لهذه الاعتبارات الشرفية .

وبينما كان دنديّو يبحث في احد ملفاته ، القى كوستال على كتابـه نظرة مؤلف : فالكتّاب يرمقون اسماءهم المطبوعة على مؤلفاتهم كما ترمق المرآةَ النساءُ الجميلات ، او اللواتي يحسبن نفوسهـن جميلات ، فرأى ان ذلك « الكتاب الضخم » لم يفتح منه الا حوالى عشر صفحات . والحق يقال ان قراءة عشر صفحات فقط تكفي لمعرفـة الكاتب ، ولتكوين فكرة عن مستواه الادبي .

ولما فرغ السيد دنديّو من محاضرته في « العفة » سأل كوستال قائلاً :

— ألم تخبرك سولانج باني مريض ولا امل لي بالشفـاء ؟ ليس مـن الثابت ان الأمل مقطوع ، لكني اعتقد ان لا سبيل الى الرجاء .

— لم تقل لي الآنسة دنديو شيئاً في هذا الموضوع .

— سأموت بعد شهر . والموت نهاية الاوهام !

— اما انا فارى ان الموت نهاية الحقائق .

— ولكنه نهاية الاوهام بالنسبة اليّ . سأموت في الحادية والستين من العمر . وهذا اخفاق ذريع بالنظر الى رجـل مثلي ، عـاش منذ ثلاثين

---

١ ـ فيلسوف رواقي عاش في القرن الاول للميلاد . اقام في روما وكان عبداً رقيقاً يملكه عبد حرّره نيرون يدعى إيبافروديت . جمعت احاديثه الفلسفية في كتاب عنوانه : « كتاب ابيكتيت » .

سنة على بعض مبادىء الحياة الطبيعة التي كان من المنتظر ان تضمن له عمراً طويلاً . ان الحادية والستين هي العمر الذي يموت فيه الجميع . ولكن تصوّر الجهود التي بذلتها : منذ اكثر من ثلاثين سنة وانا انام في غرفة مفتوحة النوافذ ، لا اتناول شراباً كحولياً ، ولا ادخن ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة لم تلامس وجهي او جسمي قطرة واحدة من الماء الساخن او الفاتر ، حتى لو كنتُ متوعكاً ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وانا انهض من النوم كل يوم في الساعة السادسة صباحاً ، وامارس الرياضة البدنية عارياً ؛ ومنذ سنة واحدة ، كنت انصب خيمتي في الجبل ، وامشي مسافة اربعين كيلومتراً كل يوم ، وكيسي على ظهري ، كالشاب ، ورأسي مكشوف للشمس او للمطر . واذا كان وجهي متخدداً الآن ، فان جسمي كان منذ شهر واحد كجسم رجل في ريعان الشباب . وحتى في هذه الساعة ، لا تحسبني أكرش . . .

قالها مشيراً الى بطنه ، ثم استطرد :

— اني اشد خصري بزنار قطني يبدو كأنه كرش . فقامتي رقيقة ، هيفاء . والخلاصة ان حياتي كانت « طبيعية » . واعتقد انك تزن كلمة « طبيعية » بدقة ، وتقدرها حق قدرها . . . بذلت هذا الجهد كله لأموت في الحادية والستين ، اي على عتبة الشيخوخة . وحين افكر بان هناك اناساً يعيشون في الرخاء ، والاستهتار ، والانغماس في الملذات ، ويتجاوزون السبعين والثمانين ، ارى اني بذلت جهودي جزافاً ، واني خُدعت فكنت خاسراً .

ورأى كورستال ان دنديو على حق ، وان اتعابه ذهبت سدى ، فتذكّرَ قول الكتاب المقدس : « ما دمت سانتهي الى مصير الجاهل ، فلماذا كنت حكيماً ؟ » ثم قال :

— المهم ان نعلم أصعباً عليك كان امتناعك عن الخمر والتدخين وغيرهما ؟

– بلى، كان صعباً عليّ في اغلب الاحيان، ولاسيما النهوض من الفراش في الساعة السادسة صباحاً. ولكني كنت اريد ان اقهر نفسي. لو اني كافحت في سبيل رغيفي ورغيف ولديّ لقلت في نفسي: لم يذهب تعبي سدى. ولكني عشت من عائدات املاكي، ولم اكافح إلا ضد نفسي، فكان كفاحي ضرباً من البذخ. وها انا اقول في نفسي اليوم: «اتعبت نفسي للاشيء». واعلم، يا سيد كوستال، انه ليس من الواجب ان يكون المرء شجاعاً في الحياة، فلا فائدة من الشجاعة. اما انا فمضطر الى المثابرة. يجب ان اتابع طريقي حتى النهاية.

وبحركة من رأسه ردّ خصلة من شعره تدلّت على جبينه، فكانت حركته شبيهة بحركات الاولاد الطوال الشعر.

قال كوستال:

– ولِمَ تصرّ على مواصلة الطريق حتى النهاية؟

– أتريدني ان اكفر بمثلٍ أعلى آمنتُ بــه اثنتين وثلاثين سنة؟ وان افرض على نفسي هذا التكذيب القاسي لكل ما كنت اعتقد به؟ اعرف اناساً قد يسخرون مني بطيبـة خاطر، اعني بلؤم الشماتة. فقـد جعلت الذين عرفوني عن كثب يكوّنون عني فكرة معيّنة، كأني نوع خاص من الرجال. وعليّ ان احافظ على هذه الفكرة في اذهانهم الى النهاية، ولو كنت مخطئاً. وها انا امامك الآن، وقد انطفأت عيناي، وانطفأ قلبي، وانطفأت روحي. واعلم حق العلم ان جرعة من الشمبانيا تنعشني، وتعيد اليّ شيئاً من الحيوية والنشاط. ولكن كيف يجوز لي ان اطلب هذه الجرعة؟ لو فعلت لكنت كمن يهدم في لحظة ما بناه طيلة حياته. لا، لن افرّ من الميدان.

قال كوستال في نفسه: ما اغرب هذا الانحراف العقلي! هكذا يصبح المرء «رجلاً اكذوبة» وهو يحسب نفسه «نقياً».

واستطرد دنديّو قائلاً:

– سأموت قريباً . واذا لمّحت الى مصيري تلميحاً ، زعموا اني خائف احب التهويل ، ولكن صمتاً ...

وسمعت حركة في الغرفة المجاورة ، ثم قال دنديّو بصوت خافت : « ان للجدران آذاناً » . وكانت ملامحه كملامح ولد قبض عليه وهو يرتكب خطيئة . ولما زالت الضجة ، استأنف حديثه قائلاً :

– اجل ، سأموت قريباً ، ويجب عليّ ان امزح ! يجب ان اتظاهر باني لا اعلم الحقيقة ، ولا ارى شبح الموت ، لتستطيع عائلتي ان تمرح خالية الذهن من القلق . وعندما أشرف على الاحتضار ، يجب ان اقول كلمة تشرّفني ليرددها الأهل مفاخرين بها الناس . وانت ما رأيك ؟ أتقول كلمة تاريخية متى رأيت نفسك على فراش الاحتضار ؟

– اعلل الأمل بالمحافظة على وضع لائق ، ساعة احتضاري ، اعني اني سأحذر التفوّه بكلمات تاريخية . واذا اضطررت الى قول شيء ، فاعتقد اني سألتمس الصفح من القراء لاني لم اعبّر عما في نفسي تعبيراً افضل مما فعلت ...

– انت رجل عمومي ، تكتب للجميع ويهتم بك الجميع . وحالك تختلف عن حالي . فانا كنت اعتقد ان لي ملء الحق في ان اضع حداً لهذه المهزلة المستمرة منذ ثلاثين سنة ، وان لي ملء الحق في ان اعيش ثلاثة اسابيع من الصدق والصراحة قبل ان اغادر هذا العالم . ولكن لا ! فالعكس هو الواقع ، والمهزلة مستمرة . انها الآن في بدايتها . امس ، جاءني الطبيب ، وكان عليه ان يجري لي عملية مؤلمة ، فرحت اتحرّق توقاً الى التوجع والشكوى ، لا لشيء إلا ليطلبوا الي ان اتشجع واقاوم آلامي ، فيتسنى لي ان اصيح بهم : « المقاومة ؟ علامَ المقاومة ؟ اذا كان لي الآن رمق من النشاط ، لاني بذلت نشاطي ، في ما مضى ، دون حساب ، أفيجب عليّ ان احرق هذا الرمق اكراماً لعيونكم الفاتنة ؟ أيجب ان تمشي جثتي مشية موقعة ، كأنها جندي في عرض ، وان تسير صابرةً على ما تعاني

من الآلام ، لتكونوا مسرورين ، وكيلا تحتقروني ؟ إيه ! احتقروني ما طاب لكم ! فما يهمني احتقاركم في المكان الذي انا ذاهب اليه ؟ » هـذا ما كنت اود ان اصيح به . ولكن عوضاً عن تحقيق هذه الرغبة تمثلت بالتصلب الروماني ، وتظاهرت باني رجـل من البرونز ، فما اشرت الى اني اعرف حقيقـة دائي ، ولو اشارة مبهمة ، عـابرة ، ولا شكوت ، ولا توجعت . وبينما كانوا يعجبون بي (اقول هذا على سبيل الأفتراض) كنت احتقر نفسي لقيـامي بتمثيل هـذا الدور السخيف ، المضحـك ، مـن مظاهر البطولة .

– انت اذاً تكذب على نفسك . واخطر ما في الامر انك تكذب لمسايرة آراء الناس .

– آراء الناس ! لو قدّرت الامثولة التي اعطيتها لهان الامر ، ولكني رجـل غريب الاطوار في نظر اكثرية الذين اعرفهم ، فهم يتحدثون عني متندرين فيقولون : « ان دنديّو لا يأكل معلّبات لأنها ليست طعاماً طبيعياً ... اذا رأيت دنديّو فانزع الوشاح عن رقبتك لئلا يلقي عليك محاضرة . أتدري ؟ انه يحطم الجليد على وجه الماء ليغتسل في ايام الشتاء » . ان زوجتي تهزأ بي علانية . وتتظـاهر سولانج بالقـاء نظرة جدّية على آرائي ، ولكني اعلم انها تسايرني لطفاً منها . وكان ابني يعمل عمداً كل ما يناقض مبادئي ليضايقني . اذاً ، فنتيجة حياتي سلبية في جميع مراحلها . ولم يقتصر اخفاقي على اني قدمت قدوة لم تكن لهـا قيمة القدوة ، بل من المحتمل ان تكون القدوة التي قدمتها غير جديرة بان تحتذى . وكان من الممكن ان تكون الحال غـير ما هي الآن ، لو كانت لي مؤلفـات مثل مؤلفاتك ... آه ! هنيئاً لك ، انك مرتاح !

قال كوستال في نفسه : « سيعتقد الناس ان السيد دنديّو مات بداء السرطان . وربما كانت الحقيقة انه مات بداء آخر هو : انه لم ينل التقدير الذي كان يعتبره حقاً له . فكما تحتاج المصابيح الى بترول ، يحتاج الرجال

الى تغذية نفوسهم بكمية معينة من اعجاب الناس بهم . واذا لم يجدوا من يعجب بهم كفاية لاقوا حتفهم . والوسيلة الوحيدة التي كانت صالحة لتهدئة آلام السيد دنديّو في ايامه الاخيرة هي امتداح غروره ».

وتأثر كوستال بكون العجوز يحسده ، بسذاجة ، او بنبل ، على انتاجه الادبي ، وهو ما يزال في الرابعة والثلاثين من العمر ، فتصور فظاعة المأساة الرهيبة التي يعانيها العاجزون عن التعبير عما في نفوسهم .

وتحدث دنديّو بلهجة الصديق عن « مستقبل » كوستال ، فقال له : « ستنال من دنياك كل ما تريد ، الخ... » ولكن الحديث كان يدور على فكرة اخرى هي : « على الرغم من مواهبك ونجاحك لم تحتل بعد في الرأي العام المقام اللائق بك . ولا ادري اذا كنت قد لاحظت هذا الاجحاف... »

قال كوستال في نفسه : « هذا الرجل متشائم وناقم . وها هو يحاول اقناعي بان لدي اسباباً كافية لتجعلني مثله متشائماً وناقماً ، ويجد في نجاح محاولته هذه نوعاً من التعزية ، مع ان الظاهر فيه انه يريد لي الخير . ولكن لا يجوز ان نطالب الناس بالكثير » . وبدت له هذه الحال عذبة سائغة لاقتناعه التام بان السيد دنديّو لم يقرأ قط من مؤلفاته اكثر من عشر صفحات .

واستأنف كوستال الحديث قائلاً :

- لا تظن ، يا سيدي العزيز ، ان امثولتك ذهبت سدىً . فقد القيت عليّ الآن امثولة تعزز طريقتي في معالجة الحياة . فانا اعتقد انه من الجنون ان يكبت المرء نفسه ويعاند رغباته دون اسباب في منتهى الوجاهة .

وكانت في السيد دنديو - على الرغم من حالته اليائسة - بقية من الحيوية تمنعه من تكذيب نفسه والتنكّر لما كان يعتبره لباب الحياة ، فلم يعجبه استنتاج كوستال ، فرد عليه بقوة قائلاً :

— كل ما في العالم من خير هو وليد كبت النفس ومقاومة الرغبات .

فاجاب كوستال بنزق :

— لا اصدّق شيئاً من هذا !

ثم قال في نفسه : « هذا نموذج من الآراء المبتذلة التي تحاول الانسانية المسكينة ان تبرر بها متاعبها » .

وقال السيد دنديو :

— دعني اقتنع ، فكرياً على الأقل ، باني على صواب . واذا كان مـا عملتـه باطلاً ، فيلبقَ لي يقيني باني بذلت منتهى جهـدي لاحقق فكرة حسبتها صالحة .

فـادرك كوستال عندئذٍ كم كان هـذا العجوز مغلوباً على امره ، فاشفق عليه من اعماق قلبه .

وتذكر ان سنيك [1] كتب شيئاً شبيهاً بالآراء التي ابداها السيد دنديو، فلفته الى هذا الامر . إلا ان العجوز تميز غيظاً لدى سماعه اسم سنيك ، وقال :

— لا اريد ان اسمع شيئاً من اقوال هؤلاء الدجاجلة ! فقـد ملأتُ دفاتر عديدة بآراء علماء الاخلاق ، واقوالهم ، ونصائحهم ... ولن اموت قبل ان احرقها واجعل من نارها شعلة ابتهاج وسرور . لم اعـد اتذكر اين قرأت منذ ايام هذه العبارة : « زبالة فلسفة » [2] ، فما رأيك ? انت. يا سيد كوستال رجل قـلم . ولا ريب في انك تعلمُ ، بهذه الصفـة ، ان ضاربة على الآلة الكاتبـة تنقل كتاباتك بذكاء واتقان افضل لـك من نظرية جديدة في ماهية الكون . تباً لهم من مشعوذين ! اني احب الحياة ،

---

١ ـ فيلسوف روماني (٢ — ٦٠) وضع مؤلفاً ضخماً في الاخـلاق مستوحى من فلسفة زينون الداعية الى شدة الطبع والعزم للتغلب على الخوف والألم . وتعزى اليه تمثيليات عديدة اهمها : ميدي ، والطروادیات ، واغاممنون ، وفيدر .

٢ ـ بنائيت اسارالي . — المؤلف .

ولا اجد فيها غير المسرات ، ومع ذلك يريدون اقناعي بانه يجب علي ان اعتبر مغادرتها الى الأبد شيئاً سائغاً يفرح القلب ! يدخلون المسبر في جسدي ، ومن واجبي ان اجد الألم لذيذاً ! عرفت شيوخاً كانوا يتحدثون عن نهايتهم القريبة بطلاقة وهدوء ، ويواصلون ادارة اعمالهم كأنهم في أمان ، على الرغم من معرفتهم بان موتهم على مسافة بضع خطوات منهم . ولا اغالي اذا قلت لك ان جميع هؤلاء حمقى ، بلهاء . فالاذكياء يخافون ، يشلهم الخوف . اما الفلاسفة الاوغاد ، فالى الحجر ، اذا كانوا يؤمنون حقاً بما يقولون . اما اذا كانوا يهزأون بي ، فليسقط هزؤهم نصلاً قاطعاً على اعناقهم . انه ليأخذني العجب كلما فكرت بان البشرية لم تنجب امبراطوراً يبيد طغمة هؤلاء الفلاسفة جملةً كما كان اباطرة روما يبيدون المسيحيين .

قال كوستال في نفسه : « ان السيد دنديو متحمس اكثر من اللزوم بالنسبة الى كونه على وشك الوفاة . ولكن ربما كانت الامور تجري هكذا في مثل حاله » . ثم خاطب العجوز قائلاً ، كي لا يقطع الحديث :

— اراك نسيت ان اكثر الفلاسفة هلكوا على ايدي الملوك والامراء الذين يمثلون اداة العدالة الفورية الحاسمة .

فاغمض السيد دنديو عينيه ، وقد بدت على قسمات وجهه معاني العياء كافة ، فخاطب كوستال نفسه قائلاً : « هذه نتيجة السير مسافة اربعين كيلومتراً في الستين من العمر . فالنشاط لا يبذل عبثاً ، لأن له ثمناً باهظاً ، ولكن هذه الحقيقة لا تقال . فلنلازم الصمت ، ولنحترم خبرة الكبار » .

ورفع السيد دنديو ذراعيه ، ثم القاهما على مسندي المقعد بحركة فيها ابلغ تعبير عن الاذعان والكآبة ، وظل مغمض العينين ، ثم قال :

— اود ان انام ، ان اظل نائماً ، ولكن السيدة دنديو وسولانج توقظانني دائماً لتعطياني بعض العقاقير ، مع ان العقاقير عديمة الفائدة ، والنوم عذب مريح . ولكن لا اهمية لراحتي . يجب حرماني النوم لاجل العقاقير ...

يجب ان نتصرف حتى النهاية حسب المألوف ، لا بموجب ما تقتضيه الحقيقة .

كان كوستال قد حسب هذه الدعوة الى الغداء شركاً أعدت له فيه اصفاد الزواج ، وتبادر الى ذهنه ان السيد دندير دعاه الى مكتبه ليحدثه ، على حدة ، عن حسنات سولانج ، وفضائلها ... فكم كانت دهشته كبيرة لما رأى العجوز لا يأتي على ذكرها ، ولا يعتبره خطيباً ممكناً ، ولا يحسبه من جملة « ذويه » الذين تكلم عنهم كلاماً لا يدل على المحبة والصداقة .

وبدأ كوستال يعتقد ان السيدة دندير وحدها مطلعة على ما يجري بينه وبين سولانج ، فإما ان تكون مسرورة بهذا الأمر ، لأنها تجد فيه مجالاً للافتخار ، دون ان تنظر الى النتائج البعيدة ، وفي مثل هذه الحال تكون على جانب كبير من الغرابة ؛ وإما ان تكون غايتها القساء ستار « الخطبة » على هذه العلاقة لانقاذ المظاهر ، فيبقى مشروع الخطبة مظهراً ، لا حقيقة . وربما كانت السيدة دندير مصممة على متابعة هذه القضية لبلوغ المأرب الذي تطمح اليه . ومهما يكن من الامر ، فقد اتضح ان السيد دندير كان شخصية مهملة ، لا شأن له في هذا الموضوع . وهذا امر بديهي لأن وفاته كانت منتظرة بين يوم وآخر ، حتى بات يُعتبر كأنه في عداد الاموات .

وفتح السيد دندير عينيه ، وبدا كأنه يشير ، بحركة مبهمة من يده ، الى كل ما في الغرفة من اشياء ، ثم قال :

– هذه الاشياء كلها ، ماذا تفيدني ؟ انها حماقات ، سخافات ، يستعين بها الناس على قتل الوقت . بدأت الآن ارى بوضوح ... هذه الاشياء كلها تكذب . الساعة المعلقة بالحائط مخطئة ، تدل على غير الساعة التي نحن فيها ، انها معطلة ؛ ميزان الجو مختل ، لوحة « كورو »[1] المعلقة الى جانب الساعة

١ – رسام فرنسي (١٧٩٦–١٨٧٥) اشتهر برسم المشاهد الطبيعية ، وبرع في اغداق «

مزيفة . اما الكتب فالسكوت عنها افضل . كل ما ارى دجل ونفاق . وقد عشنا في هذا الجو حتى ألفناه، وغدونا منه وفيه . فلو تسنى لنا يوماً ان نكتشف هذا النفاق لهلكنا كالمدمنين على المخدرات الذين يموتون اذا حرموها .

وهبّ جالساً بقوة كأنه يتصلب، ثم خاطب كوستال قائلاً :

– اني اشكرك على شيئين : اولاً على انك لم تحاول التمويه علي بخصوص حالتي الصحية، وثانياً على انك لم تبذل جهودك لتعزيني . فلو كانت ثمة فكرة تستطيع تعزيتي لوددت ان تكون فكرة الموت الطبيعي، لا فكرة الموت في سبيل « قضية » ...

ولزم كوستال الصمت، فاستطرد السيد دنديو قائلاً :

– ومن المحتمل ان اموت ميتة اخرى غير طبيعية .

واشار الى الخزانة وهو يقول :

– لديّ هنا ما يستعجل النهاية اذا اشتدت آلامي : قارورتان من الفيرونال، اذوّب محتواهما في الماء واشربه، وينتهي الامر .

– اجل، ولكن اذا كانت الكمية غير كافية، وعاد اليك وعيك، فما عساه يكون رأي عيلتك فيك !

فابتسم دنديو ابتسامة ضيقة كابتسامة الاطفال واجاب :

– أتظن ؟ لا ! اذا شربت الفيرونال فلا أمل لي مطلقاً بعودة الوعي اليّ .

– لماذا لا تستعمل المسدس ؟

ثم استطرد مزمجراً :

– ألأنك تخشى ان تقع الشبهة على عائلتك ! ؟

– نعم، لأجل سولانج . ولكن المسدس خطير، فمن المحتمل ان تنحرف

= الاضواء على لوحاته، وفي ابراز جمال العمران . من اشهر لوحاته : تيفولي، ومشهد الكولينه . وفي لوحاته ايضاً مشاهد شعرية بما فيها من الوان النور المتدفق، او ظلال الضباب .

فوهته ، فتخطيء الرصاصة هدفها .

— ما عليك إلا ان تسدد الفوهة الى العظمة الكائنة فوق الصدغ . فاذا فعلتَ فلا خطر من الاخفاق إلا اذا تعطل المسدس . اني اعرف ذلك . تباً للاسلحة النارية ! افظع ما فيها انها لا تضمن لصاحبها إلا سلامة وهمية . اذا اراد المرء ان يقتل احداً ، فدونه المدية القاطعة . لم يجد الانسان بعد افضل منها .

— وبما اني لا استطيع الانتحار بالمدية ، فلا غنى لي عن الفيرونال . أتظن ان من ينتحر جبان ؟

— ان الرعاديد الذين يعجزون عن الانتحار لشدة جبنهم هم الذين يزعمون ان من ينتحر جبان .

— هذا هو رأيي تماماً .

وساد صمت ثقيل كأن كلا منهما ادرك انهما فرغا من الموضوع الذي كان مطروحاً على بساط البحث . ثم قال السيد دنديو :

— صرفت اربعين عاماً من حياتي للقيام باعمال كلفتني تضحيات جمة ، ولم أكن مكرهاً على القيام بها . ففي ايام الشباب ، اذبلتُ زهرة العمر مكبا على كتب القوانين بذاكرة ضعيفة لا تقوى على الاستيعاب ، مع ان جميع افراد عائلتي كانوا يعلمون ، كما كنتُ اعلم ، اني لن اكون محامياً إلا للمحافظة على المظاهر مدة سنة او سنتين . تزوجت دون حب ، ودون غاية نفعية ، ودون رغبة في الزواج . انجبت اولاداً لأن زوجتي ارادت ان يكون لنا اولاد . واستطيع ان ابوح لك باني لم افرح بولادة سولانج . أقمت في باريس ، مع اني احب الطبيعة والعزلة . وأكرهت نفسي على القبول بما لا تحب ، عملا بقول الناس : « هذا واجب ... وهذا لا بد منه ... » . وثابرت زمناً طويلاً على الذهاب كل سنة الى الاماكن الشهيرة بينابيع المياه المعدنية ، على الرغم من كوني خبرتها عن كثب ، عاماً بعد عام ، فايقنت انها لا تعود عليّ باقل فائدة .

قمت بجميع هذه الاعمال دون سبب ، لان الذين عاشرتهم كانوا يقومون بها ، او لانهم كانوا يقولون لي انـه يجب عليّ ان اعملها . وهـا انا على وشك الموت ، ولا ادري لماذا رضيت بحياة لم تعجبني ، مع اني كنت قـادراً ان اعيش عيشة حافلة بالمسرات . أفليس هـذا امراً في منتهى الغرابة ؟

— لا غرابة مطلقاً في مـا تقول . فالانسان ينقاد للتيـار الذي هو فيه : هذه هي القاعدة . والانسان يعيش على الصدف : هذه هي القاعدة .

وفجأة ، فُتح الباب ، ودخلت السيدة دندبو ، فخاطبت زوجها قائلة :

— جئت اسألك هل انت بحاجة الى شيء .

— اشكرك ، لا اريد شيئاً .

— ألا تريد ان افتح لك النافذة اكثر ؟

— لا ، فضجة الشارع تتعبني .

— ارى ان زجاجة الكولونيا فارغة . فسأشتري لك زجاجة جديدة .

— لا ، فالكولونيا باردة ، لا اطيقها ...

— أسخن لك الكولونيا ؟ عذراً ، اني ادعكما لخلوتكما .

ولزم كومتال والسيد دندبو الصمت فـترة من الوقت . ولا ريب في ان السيدة دنـدبو وقفت وراء البـاب قبل ان تدخـل ، وسمعت القسم الاخير من الحديث الذي كان يدور بينهما .

قال السيد دندبو بصوت خافت :

— آه ! كم اود ان اذهب الى احد المستشفيات ! كم اود ان ارى ، قبل ان اموت ، جواً جديداً ، ومحيطاً جديداً ، ووجوهاً جديدة غـير التي اراها منذ ثلاثين عاماً ! ولكن هذه امنية احلم بها ، ولكنها محظورة عليّ . أتدري ما هو العمل الوحيد الذي استطيع احتماله وانا في هذه الحال التي انتهيت اليها ؟ انه حرق ما لدي من الرسائل . خمس واربعون سنة من الرسائل . فلو جمعت الساعات التي صرفتها في كتابة الرسائل وقراءتها ،

وفي اعمال اخرى من هذا النوع عديمة الفائـدة ، لرأيت اني اضعت من حياتي سنين عديدة . وبما انك لا تزال شاباً يطيب لي ان اسدي اليك بنصيحة : لا تجب عن الرسائل التي تتلقاها ، او اجب عنها في ما ندر . ولا تخشَ ان يؤدي استنكافك عن المراسلة الى ما يؤذيك ، لان النـاس لن يؤاخذوك على هـذه المقاطعة : يكفي ان تعوّدهم شيئاً ليـألفوه ويعتبروه طبيعياً . وانا ، حين احرق مـا لديّ من الرسائل ، اعبر عن انكاري لكل ما كان حياتي ، فاغنم بعض السرور . ويسرني ايضاً ان احرم السيدة دنديو المتعة التي قد تجدها بالبحث في شؤوني الخاصة . ومن العجب حقاً ان اخاطبك ، انت الذي لا اعرفه ، بهذه الصراحة .

كان العجوز يتكلم كمن يود لو يطرح سرّه في هوة سحيقة القرار . فتذكر كوستال انه كثيراً ما لجأ ، هو ايضاً ، الى هذه الوسيلة للتنفيس عن كربه ، وباح لسولانج بما في نفسه ، فاذا بالسيد دنديو يعامله بالمثل ، دون ان يدري ما بينه وبين ابنته ، ويفتح له صدره بلا تحفظ ، ويطلعه على مـا يعتلج في اعماقه بثقة مطلقـة كتلك التي وضعهـا الكاتب في سولانج ... وحيـال هذا التجـاوب العجيب بـين شعور الرجلين ، لزم كوستال الصمت ، وغاص في تفكير عميق .

واستأنف السيد دنديو حديثه قائلاً :

— ان شعور زوجتي الديـني كشعور السواد الاعـظم من الفرنسيين المتوسطي الحـال ، فهي لا تمـارس الشعائر كلهـا ، ولا تتقـبل الاسرار المقدسة ، إلا انها تحضر القداس يوم الاحد . وتزعم سولانج انهـا غـير مؤمنة ، ولكنها تحضر القداس مع امها ، وتستاء اذا حدث لها ما يحول دون ذهابها الى الكنيسة يوم الاحد . ولكن سولانج لا تعرف شيئاً ... ولا ريب انك خبرتها ، فهي لا تزال برعمـاً . اما انا فقد عشت وثنياً طيلة حياتي . لا يستطيع احد ان يحب الطبيعة كما احببتها . وقد احببت ايضاً يسوع المسيح . ولديّ البرهـان الساطع على ان الديانـة المسيحية

مقصّرة عن بلوغ القمم الفلسفية التي بلغتها الوثنية . وهذا البرهان ماثل في انتصار المسيحية على الوثنية . ونحن نعلم نوع الاشياء والاشخاص الذين ينتصرون في هذا العالم .

وتغضّن وجهه تغضناً يدل على مرارة الخيبة ، ثم قال :

- لا اعني بهذا القول اني غير معجب بتعاليم المسيح ، فكل ديانة ، مهما تكن ، تستطيع انقاذ نفسها من السخافة المضحكة بدعوة الناس الى الاحسان . ولكن القديس بولس اساء التصرف . من ابرز معتقداتي اني لا اريد ان ارى كاهناً الى جانب فراشي ساعة موتي . وما يزال هذا الاعتقاد راسخاً في ذهني حتى الآن ، ولكن ، بعد التقلبات التي جرت في نفسي منذ حين ، بدأت ادرك ان هذا « الاعتقاد » خسر كثيراً من المعنى الذي كنت اجده فيه . وانت ، يا سيد كوستال ، أتسمح لي بان اسألك اين انت من العقائد الدينية ؟

-- اني مسيحي عتيق ، مسيحي عتيق من ذوي « الدم الازرق » . ولكن من البديهي اني لا اؤمن ، ولا امارس الشعائر الدينية .

- آه ! هذا ما يسرني . لا استطيع ان اصافح بصراحة وصدق رجلاً يؤمن بديانة مهما تكن عقائدها . هات اعطني يدك .

وصافحه بقوة ، ثم قال :

- وعلى الرغم من كل شيء ، أفلا تريد ان يقام لك مأتم بحسب الطقوس الدينية ؟

- - اود ان تنقل جثتي رأساً من فراش الموت الى الحفرة العمومية ، وان لا تدفن في مكان عميق لتتمكن الكلاب من نبشها وأكلها .

- هذا هو الصواب . ولكن ما رأيك في الكاهن ؟ ألا تريد ان ترى كاهناً وانت على فراش الموت ؟

-- هذه مسألة منوطة بالحالة التي اكون فيها . فاذا كنت بين ذويّ ، رحبت بحضور الكاهن لسببين : اولاً لارضي اهلي دون ان اتكلف شيئاً ،

لانهم يرغبون بحرارة في ان اتمم واجباتي الدينية ، وثانياً لارتاح من إلحاحهم في ارشادي لانقاذ روحي من الهلاك . فاصرار الناس على تعذيبك وارهاق اعصابك في هـذه الساعة التي لا تتوق فيهـا الى غير الراحة ، انمـا هو ضرب رهيب من الضراوة الفاشمة . أتريـد رأيي كاملاً في هـذه المراسم الدينية ؟ لا اهمية لهـا مطلقاً . ولا شك في اننـا نخلع عليهـا اهمية لا تستحقها عندما نتصلب في التنكر لهـا . اما اذا متُّ بعيـداً عن اهلي — وهذا ما اتوق اليه بكل قواي — واذا لم يحدثني احد عن الكاهن ، فلن اطلب حضوره .

— انك لعلى حق : « لا اهمية مطلقاً للمراسم الدينية » ، هـذا الرأي هو فصل الخطاب . وما خلا ذلك ، فانظر الى هذه الغرفة : كل ما فيها مرتب ، مصنّف ، معنوَن ، مبوّب ، تستطيع ان تجد فيها مـا تشاء بسرعة وسهولة . فلو كان الامر على عكس ما ترى ، وكنتُ فوضوياً لا اعرف النظام والترتيب ، فما الفرق بين الحالين بالنسبة اليّ في هذه الساعة ؟ واليك بمثل آخر : حرصت دائماً ، عملاً بمبدإ اعتنقه ، على ان لا اشتري من السلع إلا أجودهـا . ولكن تبـين لي ان الثوب الكامل يرثّ ويهترىء بعد عدد معين من الشهور ، سواءٌ أكان ثمنه الفـاً وخمسماية فرنك او سبعماية فرنك . ولا بد من استبداله بعد مدة معينة . وهذا يعني حتماً ان لا اهمية للثوب ، أجيداً كان صنفـه ام رديئاً . ولهذا السبب ، لا فرق بين الرجل الصالح والرجل الشرير .

ورفع السيد دنديو يـده الى جبينه ، وبسط كفه فوق عينيـه كأنه يحمي نظره من النور الذي يتعبه ، مع ان النوافذ كانت مغلقة تقريباً ، لا يتسرب منها إلا القليل من الضوء ؛ ثم استرخت يد العجوز على خده ، وبقي فترة في هذا الوضع ، وهو يقول :

— احببت الشمس حتى العبادة . ظننتها تشفي من جميع الامراض : من الاحتقان في الرئتين ، من القرحة في المعدة ، من الكسر في الساق .

وكنت اعتقد انه يكفي ان يستلقي المريض في نور الشمس ليشفى . أجل ، كان هذا اعتقادي الوطيد ، الراسخ في اعماقي . كان ضرباً من الوثنية الهمجية . وادهى ما في الامر ، اني بشرت بصحة هذا الاعتقاد ودعوت اليه مئات الشبان . اما الآن فاذا كانت السماء صافية قليلاً ، ضايقني نورها ، وغدوت عاجزاً عن احتماله . واذا خرجت من البيت ، فاني ألجأ الى الاماكن الظليلة ، وما كنت اطيق رؤية السماء الغائمة . فهل هناك حقيقة للاحياء ، وحقيقة اخرى للمشرفين على الموت ؟ لقد انتشيت بجمال العالم وجمال المخلوقات ، واستطيع اعلان هذه الحقيقة بصدق واخلاص ، لاني ما سعيت قط وراء النساء والملذات الجسدية . اما الآن فكل ما هو حيّ يؤذيني كأنه اهانة موجهة اليّ ، واراني مستعداً لمقابلته بالبغض الشديد . لم اقرأ الصحف ، ولا يهمني شيء من شؤون الحياة ، لاني مزمع على مغادرتها . تحاول زوجتي احياناً ان تأخذني في نزهة بالسيارة الى غابة بولونيا ، فارفض . لا اريد ان ارى جمال العالم ، لاني بعد قليل سأصبح عاجزاً عن التمتع به . فرؤية هذا الجمال تؤلمني ، ولا اريد ان أتألم .

- من العجب ان تأثير النور فيك هو عكس ما حدث لغوته وهو على فراش الموت .

اجاب السيد دندير بلهجة من ضاق صدره :

- دعني من هذه الاسماء الكبيرة التي تحب ترديدها ! ما يهمني غوته ؟ ليمت كما يطيب له ان يموت . لم يبقَ لأحد قدرة تجعله قدوة لي . لقد

---

١ - اديب ومفكر الماني (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ومن كبار عباقرة العالم . جمع بين عمق الفكر والخيال الواسع الخلاق ، فاستطاع الابداع والتفوق في مختلف الفنون الادبية . من اشهر مؤلفاته : فرتر ، والبيجاني ، وفاوست ، وهرمن ودوروتي ، وغوتز . عالج ادق المسائل الفلسفية فاجاد في تحليلها وعرضها . وضع مؤلفات فلسفية كبيرة الاهمية ، منها : « الحقيقة والوهم » . وكان شاعراً مجيداً ومن كبار العلماء .

بدأ غوتــه يدرس علم الطبيعيات وهو في الخامسة والسبعين من العمر ، ومن البديهي ان تُعتبر هذه البادرة جديرة بالاعجاب . اما انا فاردد قول مونتيني[1] : « من الحماقة ان يصبح العجوز تلميذاً ابتدائياً ! »

فاشمأز كوستال من هذه الملاحظة لأنه كان قد اقنع نفسه بان غوته من عباقرة تاريخ الفكر البشري ، إلا انه كان يعتقد في قرارة نفسه ان شهرة هذا الكاتب الكبير مبالغ فيها مبالغةً تكاد تكون فضيحة .

وفي هــذه اللحظــة دخلت سولانج ، لان الزائرة التي كانت عندهــا ذهبت ، فساور كوستال شعور غريب هو الانزعاج من حضور شخص محبوب .

ولما لزم السيد دنديو الصمت ولم يقل كلمة ليصرف ابنته من مكتبه ، استأذن كوستال وخرج . وفي البهو التقى السيدة دندبو فبادرته قائلــة :

— لا ادري ما حلّ بزوجي . فهو يئن اذا نزل من سريره ، ويــئن اذ لبس بنطلونه ، حتى ليتبادر الى الذهن انه يتعمد هذا التصرف ، مع انه لم يفقد طيلة حياته ما كان يتحلى به من قوة الارادة ورباطة الجأش .

— ألا تدرين ما به ؟ كل ما به انه يموت ، يا سيدتي .

— لا بد من الملاحظة ، والحمد لله ، ان موته ليس اكيداً في وقت قريب . ثم ، اذا افترضنــا انــه يعتبر نفسه مهــدداً بالموت ، أفليست هذه فرصة سانحة لاظهار قوة ارادته ، وقدرته على التجلّد ؟ متى يُظهر ما فيه من المزايا الكبيرة ان لم يظهرها في مواجهــة التجارب القاسية ؟ انه يتصرف على نقيض ما يجب ان يفعل . أتدري ما قال للطبيب امس ؟ قال له : « دكتور ، لا توجعني ! » اجابه الطبيب : « لا تخف ، فالمسألة

---

[1] عالم اخلاق فرنسي (١٥٣٣ – ١٥٩٢) امضى حياته في وضع مؤلفه القيم : « محاولات » . وصف فيه نفسه وصفاً جعله خالداً . تبسط في عجز الانسان عن ادراك الحقيقة المطلقة والعدالة . قام برحلة طويلة في البلدان الاوروبيــة ، وعاد منها مؤمناً بالنسبية في كل شيء . وهو يقول : « ان فن الحياة قائم على الحكمة والحذر والذوق والتساهل » .

في غاية البساطة ... » فقال حانقاً : « نعم ، نعم ، اعرف طريقة الاطباء في تطمين مرضاهم . لذلك اقول لـك ، واصر على ان تفهم ما اقول : « لا اريد ان اتوجّع ! ليرضَ الآخرون باحتمال الاوجاع اذا طاب لهم الألم . اما انا فارفض الوجع رفضاً باتاً » . انه ليؤسف الذين يحبونه ان يسمعوه يتفوّه بمثل هذا الكلام امام الناس .

فاجاب كوستال بكلمات مبتذلة من وحي الحديث ، وخرج ، وهو يقول في نفسه : « اذاً ، فقد استدعاني ليبوح لي بما في صدره ، وكذب ! سيموت بعد شهر ، وهو يكذب ! يا للعجب ! ما اغرب اطوار الناس جميعاً ! »



من

اندريه هاكبو

كابورغ

الى

بيار كوستال

باريس

٣٠ حزيران ١٩٢٧

اقرأ او لا تقرأ ، فهذه آخر رسالة اوجهها اليك ، وما كتبتها إلا لتدرك اني اعلم .

بعد ان حطمتني تحطيماً ، انتابتني الحمى ، وبلغت الدرجة التاسعة والثلاثين — وهي ناجمة عن الكآبة وشدة الأسى لا غير [١] — فغدوت مهددة بمرض عضال ، او بالجنون ، واضطررت الى تغيير المناخ فوراً ، فجئت الى كابورغ ، واقمت عند احدى صديقاتي . وفي الكازينو تعرّفت الى جماعة من النساء الكاتبات والشاعرات ، بينهن البارونة فليشياه .

قالت هذه البارونة علناً :

— أتسأل عن كوستال ؟ لا يقتصر شذوذه على انه لم يعانق امرأة في حياته ، بل انه لم يشتهِ في حياته امرأة ، وهو الذي اعترف لي بهذه الحقيقة [٢] .

---

١ ـ اختراع محض ، لم تصب بالحمى . لكن فساداً في الدم سبب لها دملاً في فخذها . — المؤلف .

٢ ـ ليدرك القارىء معنى هذه النبذة وما يليها ، يجب ان يعود الى ما كتبه

وجرى الحديث عن بروست [١] ، فانقضضتُ على مؤلفاته ، لاني لم أكن قد قرأت له شيئاً بعد . فيا افظع ما اكتشفت ! لقد انجاب ستار الوهم عن عيني ، ، وكاد النور يعميني : فالسيد دي شارلوس هو انت [٢] !

كل ما فيه يدل عليك ، وكل ما فيك يدل عليه . انك مثله ، تحب القوة ؛ ومثله تحب ان تمشي مسافات طويلة ؛ ومثله لا تضع خواتم في اصابعك ؛ فجميع الادلة تتناسق وتتوافق لتدل بقوة عليك . وعندما التقيتك في مخدعك منذ حين ، كنتَ ترتدي قميصاً ذا طوق مفتوح على طريقة دانتون [٣] . ونبهتني ذات يوم الى انك تنتعل حذاءً كبيراً انكليزياً لا ينتعل مثله احد في باريس . وحدثتني عن رجليك لتقول لي انهما مرهفتا الاحساس [٤] ! وها انا اكتشف الحقيقة الآن : ما كان تظاهرك بالرجولة إلا

= كوستال ، في احدى رسائله ، الى صديقه « بايايدس » ، في الحلقة الاولى من هذه السلسلة ، عن الحادثة التي جرت له مع البارونة فليثياه التي عرضت عليه نفسها بوقاحة ، وهي التي تجاوزت الخمسين من العمر ، فاضطر الى ايهامها بانه لا يشتهي النساء ليتخلص منها ، وقال لها انه لم يعانق امرأة في حياته . ولما كان شديد التكتم في ما يختص بعلاقاته الجنسية ، فقد راج خبر شذوذه ووجد بين الناس من يصدقه ، ومنهم اندريه التي ظلت مخدوعة بضعة ايام . — المؤلف .

١ ـ مرسيل بروست (١٨٧١ - ١٩٢٢) كاتب فرنسي . ألف رواية طويلة عنوانها : « البحث عن الوقت الضائع » . وهي حكاية عن سرد ذكرياته الشخصية . وقد حلل فيها بدقة وعمق مشاعره ومشاعر الذين عاشرهم . واشتهر بدرس الشذوذ الجنسي .

٢ ـ بطل رواية بروست ومثال المخنث المنغمس في الشذوذ ، وقد احدث وصفه تأثيراً كبيراً في فرنسا ومختلف انحاء العالم حتى أصبح اكمل نموذج لحب الذكر للذكر .

٣ ـ جورج جاك دنتون (١٧٥٩ - ١٧٩٤) محام وثائر وخطيب فرنسي . اسس نادي الكوردلياه ابام الثورة الفرنسية ، وكان عضواً في مجلس الـ « كونفنسيون » . اشتهر بالبلاغة وقوة الحجة . اتهم بالخيانة وقطع رأسه في عهد روبسبيار . كان يرتدي دائما قميصا مفتوح الطوق ، فعرف هذا القميص باسمه .

٤ ـ امعنت اندريه هاكبو في سرد هذه الصفات التي لمستها في كوستال لانها شبيهة بصفات شارلوس ، بطل رواية مرسيل بروست ، ومثال المخنث الذي لا يرجى له شفاء .

خداعاً ، وذرّ رماد في العيون .

ما معنى ما لمستُ من التناقض بين مختلف مواقفك مني ؟ انه الارتباك الذي يقع فيه السيد دي شارلوس . وما رأيك في ما يتوالى على تصرفاتك من السمو والحقارة ؟ لقد ذكر بروست سمو شارلوس وحقارته ، فقال : « عرفت حتى سموّه وحقارته في العلاقات التي قامت بيننا » .

قلتَ لي يوماً ، في شارع مارسو : « أترين كم اثق بك ؟ اني اخاطبك كما اخاطب رجلاً » . طبعاً ! لا عجب اذا كانت ثقتك بالرجال كبيرة !...

وكم سمعتك تقول : « رقة الشعور التي يمتاز بها الرجال ... » ويستطيع عارفوك ان ينفوا عنك كل شيء ، ما عدا رقة الشعور .

وقلت لي مرة ان الشبان بلهاء . وهذا ما يقوله شارلوس حرفياً !

وصف بروست بطله شارلوس قائلا : « ... اننا لنعجب بما في وجه هذا الرجل من اللطف الشديد التأثير ، ومن الملاحة والبساطة الطبيعية في التحبب ... » وانا ، كم قلتُ فيك : « انه لطيف ، حسن الوجه ، بسيط التودد ، طبيعي التصرف ! »

كم كنتُ حمقاء ! وما افظع الهبوط الى هذه الجحيم ! لقد بدّل هذا الاكتشاف نظرتي الى العالم .

واني لأذكر اليوم قولك في روايتك « الوهن » : « لقد تحولتُ الى كريستين » ، عندما تحدثتَ عن هذه الفتاة . وفي كتاب بروست اعترافات جزئية من هذا النوع ادلى بها شارلوس في بعض المناسبات !

وكثيراً ما كنتَ تردد قول فلوبير [1] : « السيدة بوفاري هي انا » .

---

١ - غوستاف فلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠) كاتب فرنسي شهير ، من مؤلفاته : السيدة بوفاري ، وسلمبو ، وتثقيف الاحساس ، وتجارب القديس انطونيوس ، ومجموعة قصص . مؤسس مدرسة الفن للفن ، وقد اعطى في مؤلفاته ابرز مثال على اتقان ☚

ولكن فلوبير كان لوّاطاً ، ولا ريب ، بدليل بقائه عازباً ، ووجود امرأة واحدة في حياته كلها ، وما رواه في كتابه « سالمبو » [1] عن ان « الصداقات » التي كانت تربط بين بعض الجنود القرطاجيين جعلتهم شجعاناً لا يهابون الموت . واذا كان هذا هو ثمن الشجاعة ، فاني افضّل جيشاً جباناً يلوذ بالفرار .

ولا استطيع ان انسى ما قلتَ لي مراراً عن قلة شعورك بالغيرة ، وكنت تسمي هذا النقص : « رشاداً يكاد يبلغ ذروة السمو » . فليست هذه من صفات الرجال . والغيرة ميزة اساسية من ميزات الذكر .

فهمتُ الآن لماذا رأيتني غير جديرة باهتمامك ، ولماذا عجزتُ عن اثارة شهوتك ! وكم كنت غبية في ما عانيت من عذاب ، وفي رقوفي امام المرآة ابحث في وجهي عن سبب اعراضك عني ! اجل ، فهمت الآن لماذا لم تكن بحاجة اليّ ... فشعور المرأة في جسدك لا يشتهي إلا الرجال .

انت ، يا كوستال ، مملوك ، لا مالك ! مسيطَرٌ عليك ، لا مسيطِر ! تبحث في الحب عن الذلّ الذي نسعى اليه نحن النساء !

انك تثير في نفسي الاشمئزاز والقرف ، وتلطخ في نظري وجه العالم ، بعد ان ملأته جمالاً واضواء .

واذا كنتُ لا اعرف شيئاً عن هذا الشذوذ ، فقد حاولتُ ان افهم ، فتبين لي ان النساء اللواتي تعرّفتُ اليهن في الكازينو لم يكنّ اوسع مني اطلاعاً . وهذا ما لمسته في ما تبادلن من الاسئلة التي بقيت كلها بلا جواب . فتغلبتُ على اشمئزازي ، وبحثت في معجم طبي وجدته عند

= الانشاء . وحاول ان يكون واقعياً في الوصف ، فلم ينجُ من الاسترسال احياناً في رحاب الخيال الرومنطيقي .

١ - احد مؤلفات فلوبير ، وصف فيه الحرب الضارية التي نشبت بين القرطاجيين وجيوش المرتزقة في شمال افريقيا ، فاستطاع بعث الشاهد التاريخية بقوة لم يجاره فيها احد .

صديقتي ، هو معجم « لابارث » ، ورأيت ان لافراد هذه الفئة الملعونة « بشرة متبرّجة » ؛ ثم رحت ابحث لافهم اكثر مما فهمت ، فتذكرت بشرتك الدائمة النضارة ، المشرقة الرونق ... وفكرت بانك تستطيع ان تتجول في الشوارع ، وفي يدك « محرمة ، او زهرة ، او قطعة قماش التطريز بالابرة » ، كما يقول معجم « لابارث » ... ومن غرائب الصدف اني جلّدت كتابك « الوهن » باللون الاخضر . وها انا اكتشف ان هذا اللون هو شعار هذه المخلوقات القذرة ، المتهتكة ، وعلامة التعارف فيما بينها !

لا ! هذا منتهى الفظاعة ! أكاد اختنق من هولها ، اكاد اموت .

اطبقت المعجم ، ولم أشأ ان اطلب المزيد من المعلومات . وعلى الرغم من ان الوصف الذي وجدته فيه لا يخلو من التمويه المقصود ، فقد اكتفيت به وصدقته . لك ان تقول ان النساء يعشن الى جانب الحقيقة ، وانهن لا يفضلن شيئاً على وضع رأسهن تحت جناحهن ، الخ ... لك ان تقول ما تشاء . اما انا فارى المسألة في غاية البساطة : ارى ان في العالم اشياء مريعة لا اريد ان اعرفها . فكرامة المرأة فيّ ، وكرامة الزوجة والام التي قد احصل عليها ، تحظر عليّ معرفة هذا العار ، لان لوثته تلطخني الى الابد . ليكن العالم كما يشاء ؛ اما انا فلي الحق في ان اجهل ما يطيب لي جهله .

منذ خمس سنوات ، ما برحتَ تمنعني من الزواج . لقد ضاع شبابي وضاعت حياتي برمتها بجريرتك ، لأن لا قيمة في حياة المرأة إلا لأيام الشباب .

ولأجل مَنْ اضعت حياتي ؟ لأجل مخلوق شقي حقير هو انت ! ألا تتصور مأساة امرأة توهمت ان من تحب هو الرجل النموذجي ، ثم اكتشفت انه من هذه المخلوقات الدنسة ؟ وليس لك حق « فخر » الابتكار والتفرد ، لان امثالك كثر واكثر من الكثير . وما انت إلا

متأنق سطحي يجرفه التيار في غمرة انحطاط نتن ؛ ما انت إلا من الصغار بين اتباع امثال « جيد »[1] وبروست ، ومن لفّ لفهم من المهترئين في الاجهاد الجنسي ، والعقم ، وادعاء الفن ، عوضاً عن ان يكونوا رجالاً يخدمون ابناء جنسهم ووطنهم ، الخ ...

ولا تقتصر مصيبتي بك على اني احببت مخلوقاً من هذا النوع ، بل احببت مؤلفاته ايضاً ! وبما ان جميع مواقفك مني ومن المجتمع ليست إلا مكراً ونفاقاً ، فلا ريب ان مؤلفاتك من هذا النوع . لم يبق في وسعي ان اصدق كلمة واحدة من كل ما كتبت . وليست كتاباتك إلا بياناً منمّقاً وكتلة من الانتاج الرديء . اذا كانت فيك بقية من الشرف بمقدار ذرة واحدة ، فحطم قلمك . لم يبق عليك إلا ان تدفن نفسك ، وان تلزم الصمت تحت لعنات الرجال الطبيعيين والنساء الخاليات من الفساد .

اعطيتُ حبي لسواك . لم يكن لك فيه حق . فالمرء لا يقبل حباً يفوقه سمواً ، لانه يعلم انه غير جدير بهذا الحب . وفي مثل هذه الحال ، لا يجوز له استغلال صداقة فتاة طاهرة ، نقية ، خصوصاً اذا كان هو ...

ان رسائلي اليك موجهة الى رجل تصورته في خيالي وحسبته انت . فاعدها اليّ . اني اصر على استعادتها . فقد وقعت خطأً بين يديك . انها تخجلني ، ان من احببت هو رجل مؤلفاتك ، رجل اكاذيبك . يخيّل الي اني منحت جسدي في ظلام الليل لرجل ظننتُ اني اعرفه ، فلما بزغ الفجر تبين لي اني كنت فريسة شيء لا ادري ما هو : مخلوق ، نصف مخلوق ، مخنّث قبيح ... أتدري ان الوقوع في مثل هذه الفظاعة يدفع الى الانتحار ؟ ألا تعلم هذا ؟

---

١ ـ اندريه جيد (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) كاتب فرنسي ، اخلص في البحث عن السعادة والحقيقة ، وتخلى عن المبادىء الاخلاقية المألوفة ، وانغمس في الشذوذ الجنسي . اشهر مؤلفاته : الاغذية الارضية ، اقبية الفاتيكان ، سمفونية الرعاة ، مزيفو النقد ، اذا لم تمت الحبة ، وهي مذكرات وصف فيها شذوذه بصراحة مطلقة .

ولكن لي في هذه المأساة تعزية اجدها في التفكير بهول العار الذي نجوت منه ! وعندما افكر ... عندما افكر بانه كان من المحتمل ان تمسني ، بينما انا لا ارضى اليوم بان تلامس اطراف اصابعي ، حتى لو كانت يدك في قفاز ، ادرك مدى الخطر الذي نجوت منه .

اني احتقرك .

●

الاربعاء

لا اريد ان تعتبرني قصيرة النظر ينطلي عليّ الخداع ، كما لا اريد ان تحسبني شريرة احب الاذى . اود ان تقرأ ما كتبت اليك امس ، ولكني لا احب ألاّ يبقى لك مني إلا ذكرى هذه الرسالة .

اكتب اليك بكآبة لامتناهية . ولكني اليوم لست بحزينة على نفسي ، بل عليك ، لان الامور قد تبدّلت الآن . فطالما رثيت لحالي في ما مضى ، وها قد جاء دوري لارثي لحالك . لنفترض انك احببتني كأني اختك ؛ فها انا استطيع اليوم ان احبك بحنان الام ورأفتها ، فتكسبني هذه المحبة طمأنينة وارتياحاً .

اجل ، ما اتعس الانسان اذا كان مسخاً ! ان قلبي ليتفطّر اسىً عليك . اتوسل اليك ان تخرج من هذه البؤرة ، اذا كانت فرصة النجاة لم تفتك بعد . انك شقي بائس ، ولا ريب في انك لجأت الى الانغماس في الرذيلة والتفنّن بها هرباً من البؤس والشقاء . قد يكون شقاؤك الآن مزدوجاً ، ولكنك لست مذنباً . أسألك باسم كل ما هو مقدس في العالم ، باسم ذكرياتنا (لانك احببتني ، ولاشك ، ولكنك لم تستطع المضي في حبك الى النهاية لسبب وجيه ...) ، ان تخرج من الطريق التي تسير عليها . اذا كنت قد وجدت في رسائلي الماضية شيئاً من العذوبة ، وكانت هذه الرسائل قد

شدّدت عزيمتك ، واتاحت لك مجالاً للتفكير ، فاقرأ هذه بانتباه ، واعتبرها رجاءً وابتهالاً . تشجع واخرج من هذه الهوة . عد الى الانسانية الحقيقية . عد رجلاً من جديد .

اذا كنتَ لا تبالي بالكرامة ، فعد الى رشدك ضناً بمواهبك الادبية . وما دمتَ « لم تعانق امرأة في حياتك » ، فكيف لا تشعر بما فيك من نقص ، وبان جميع نظراتك الى الكون والحياة مختلة ومخاطئة ، وبان فنك آخذ بالهزال والانحطاط ؟

اذا اصيب المرء بمرض يبادر فوراً الى معالجة نفسه منه . ولا بد له من ان يريد الشفاء . فلتكن لك هذه الارادة .

منذ هذا الصباح ، استشرتُ احد الاطباء هنا ، فقال لي ان لديه علاجات مادية ومعنوية لأمثال شارلوس . وقد ارسلت اليك مع هذه الرسالة لائحة باسماء بعض الاطباء النفسانيين في باريس ، وهم من الذين سبق لهم ان عالجوا مرضى من هذا النوع . ضع نفسك بين يدي احدهم . وقبل بدء العلاج ، ردّد لنفسك ، واحياناً بصوت مرتفع ، بعد ان تتنفس ببطء ملء صدرك ، العبارة التالية : « اريد ان اصبح رجلاً ! »

ان الحوادث الاخيرة ، التي حطمتني ، ردّتني الى الدين . فالله لا يخدع احداً . انك تعلم ، ولا شك ، اني تخلّيت في ما مضى عن ممارسة جميع الشعائر الدينية . ومنذ خمسة ايام عدت اذهب كل يوم الى الكنيسة ، لا لأصلّي فيها قائلة ، كما كنت اقول من قبل : « يا إلهي اجعلني سعيدة ! » ، بل لأصلّي لاجلك انت . وسأظل أصلي لأجلك حتى يمنّ الله عليك بالخلاص . الوداع . اني اصفح عنك . تقبّل رحمتي اللامتناهية . لك .

أ . هـ

من

بيار كوستال
باريس

الى

ارمان بايلهيس
تولوز

٢ تموز ١٩٢٧

صديقي العزيز !

خلاصة هذه الرسالة : قول الكتاب المقدس : « إخشَ حب المرأة اكثر من بغض الرجل ! »

غاية هذه الرسالة : غضب الرجال يفور عنفاً . وغضب النساء يفور حماقة . وهذا ما سأحاول تبيانه .

اني مرسل اليك بالبريد المضمون وثيقة اعتبرها جديرة بالانتباه . وارجو ان تعيدها اليّ بعد عشرة ايام ، عندما ألتقيك في تولوز .

وخلاصة القصة ان امرأة منبوذة ، لانها لا تُعجب احداً ، تلقت بحرارة ، من عجوز مجنونة ، خبزاً ملفقاً عن الرجل الذي رفضها فأهانها . فقد توهمت انها وجدت في هذا الخبر ما ينصفها ، لأنه يقنعها بانها لم تُنبذ بسبب دمامتها ، ويثأر لها باظهار من نبذها وأهانها بصورة « وغد قذر » . أطلعوها على صورة شخص لا يشبه غريمها بشيء ، اللهم إلا بان لكل من الاثنين انفاً وعينين ، الخ ... ولنسلّم بان لون شعرهما واحد . ولكن المنبوذة رأت غريمها في الصورة التي أطلعوها عليها ، لأن شهوتها الخائبة

كانت قد اعمتها . ولو كانت امام قاضي التحقيق لأقسمت انه هو .
ولكنها لم تكتف باحتقار هذا الغريم ، بل ارادت ان تجود بالرحمة ،
فمن الواجب ان تشفق بدورها ، فاذا بها تُحيل احتقارها الى رحمة .
وبما انها ظلت تحب ، على الرغم من كل شيء ، وبما ان الحقيقة القاسية
خيّبت رجاءها وطرحتها على السفح الآخر من الحياة : السفح المظلم الذي
غابت عنه الشمس ، راحت تصلّي لاجل غريمها ، ظناً منها ان
الصلاة تتوّج انتصارها ، وتتيح لها الادعاء بسمو النفس ، وربما اتاحت
لها ايضاً مواصلة علاقتها بالغريم دون ان تُعفّر كبرياؤها ، فتعود الى
مراسلته ، والى الكتابة اليه رسالتين في الاسبوع لا تقل كلٌّ منهما عن اثنتي
عشرة صفحة ، لتتحدث عن نفسها بذريعة التحدث عن الكائن اللامتناهي [1] .
ولا عجب ، ففي اللوحات المعلقة على اقفاص حديقة الحيوانات يُشار الى
الذكور بسهم يعني ان الذكر يثقب قلب الانثى ، ويشار الى الاناث
بصليب يعني أن الانثى تلجأ الى المصلوب وتحتمي به .

ورسالة اندريه هذه تستدعي الانتباه ، لأن اندريه امرأة متوقّدة
الذكاء ، ولا ريب في انها شخصية مرموقة .

انك تعلم رأيي في آلية تفاعل ردود الفعل لدى المرأة . فجميع ردود
الفعل الواردة في رسالة اندريه مصنّفة وموصوفة منذ زمن بعيد . فردّة
الفعل التي تنشأ في نفس المنبوذة ، وتدفعها الى اتهام غريمها بانه السيد
شارلوس ، هي الردة ذات الرقم ١٧٤ . والردة التي تحاول المرأة فيها اقناع
الرجل الذي تحبه بانه شقي بائس هي الردة ذات الرقم ٢٢٧ المكرر .
والردة التي تدفع المرأة البائسة الى ممارسة الشعائر الدينية هي الردة ٨٩ .
والردة التي تزعم فيها المرأة انها مريضة ، قياماً منها بمحاولة اخيرة

---

[1] ـ كتب المؤلف كلمة « الكائن » Etre جاعلاً اولها حرفاً كبيراً وهي في مثل هذه الحال تعني « الله » ، وقد عمد الى هذه الطريقة للتدليل على انه يقدس الرجل ويعتبره في مستوى الالوهية بالنسبة الى المرأة .

لتبعث في نفس صديقهـا تلك الـ « رحمة للنساء » التي تستنكرها وتسعى اليها معاً ، هي الردة ٢١٤ ؛ وهي ما تزال حتى الآن عند اندريه في بداية تكوينها . ولا بد من الملاحظة ان الردة النموذجية ، بين جميع هذه الردات ، هي الردة ١٧٥ التي تتهم فيهـا المرأة المتبوذة غريمهـا بالعجز الجنسي ، وهي لم تظهر في اندريه بعد . وعلى الرغم من هـذا النقص في تطور حالة اندريه ، فان مراحل ردات الفعل فيها تؤلف سلسلة تقليدية متتالية الحلقات بكل انضباط وانتظـام ، حتى ليمكن القول انهـا كاملة – كاملة في صغارتهـا وابتذالها – يجني منهـا الفكر المراقب ارتياحـاً كاملاً ، فيـه من لذة الشعور مـا يتذوقه علمـاء الفلك عندما يرون الكواكب تتحرك في مدارات كشف الحسابُ اتجاهاتها وعرف مداها .

وأرى نفسي ايضاً كعالم كيميائي وضع نوعين من المـادة في بوتقـة ، وجلس يراقب تفاعلاتها المتوالية قبل الانصهار ، وهو يعلم النتيجة مسبقاً ، بينما الجاهل لا يدري من هذه العملية شيئاً ، وكل مـا فيها جديد وغير منتظر بالنسبة اليه . واخيراً تسفر التفاعلات عن مادةٍ لها الشكل واللون والوزن التي تتخذهـا عندما تتكوّن في الاحوال الطبيعيـة المعروفة . والأجمل من كل هـذا ان تطوّر حالة اندريه تقليـدي وعجيب معـاً ، فيه ما يذهل وما هو متوقَّع ؛ وهو بهذا التناقض طبيعي كأنه الطبيعة بالذات .

لم تخشَ اندريه ان تكتب ان اكتشافها لشخصيتي في السيد شارلوس قـد « بدّل رؤياهـا للكون » . واستطيع القول ان رؤياي انا للكون – اذا افترضنا جدلاً ان لي رؤيا – لو مرّت بأقل ممـا مرت به رؤيا اندريه ، لتبدلت هي ايضاً .

ولـكي نبقى في نطاق هذا البحث ، وبما ان الكون هو الموضوع الذي نعالجه ، اقول ان كتاب اندريه المرسل اليّ من كابورغ يحملني على الاعتقاد ان في الكون ارتباطاً متناسقاً بين جميع عناصره واجزائه ، وهذا مـا

كنت اجد اسباباً كثيرة للشك فيه على الرغم من الكهنة ، وعلى الرغم من فولتير [1] .

وربما نجد في هذه المسألة ما يدعونا الى القاء نظرة على افتقار النساء الى تفهم الشؤون النفسانية ، وهو افتقار طالما استرعى انتباهي . فالقسم الاكبر من النساء يعيش الى جانب الحقيقة . واذا درسنا حالة اندريه في مختلف مواقفها ، نرى انها تخطىء خطأً ذريعاً في كل شيء ، وبمثابرة مدهشة تثير العجب : فهي تعتقد انها حسناء ، وتعتقد اني احبها ، وتعتقد ان ليس لي ولد ، وتعتقد اني السيد شارلوس ، وتعتقد اني شقي بائس ، الخ... وهذا ضرب من العناد الغريب في التشبث بالخطأ . ومرة اخرى اقول لك ان اندريه فتاة ذكية ، وتكاد تكون استثنائية على هذا الصعيد .

قد تقول لي : « ليست المرأة هي التي تفتقر الى تفهم الشؤون النفسانية ، انما المرأة المحبة وحدها تصاب بهذا الافتقار » ، فاجيبك فوراً : « ألسن كلهن عاشقات ؟ »

والمرأة التي تخطىء في ادراك ماهية الرجل تخطىء كذلك في العمل للاستيلاء عليه . فهي تزعجك حتى اثارة غضبك بدخولها عليك في اثناء عملك ، او باجتهادها في تقديم هداياها الصغيرة لك ، او بمطاردتك في اغلب الاحيان اكثر مما تحب ، او يجمعك الى اصدقائها وهم ليسوا اصدقاءك .

وقد تكون علاقتك بها وثيقة ، تسمح لك بان تبوح بما في نفسك ، فتصارحها بان هذه التصرفات تزعجك ، فتكف عنها بعض الوقت ، ثم تعود اليها .

---

1 ـ كاتب وشاعر ومؤرخ فرنسي (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) صادق الملوك وراسلهم ، وحارب الاكليروس بلا هوادة ، وكان عاملاً من اقوى عوامل الثورة الفرنسية . اشهر مؤلفاته : رسائل فلسفية ، مجموعة رسائل لا تقل عن ١٢ الف رسالة ، تاريخ لويس الرابع عشر ، شارل الثاني ، تمثيليات عديدة منها : زئير ، وموت قيصر ، ومحمد ، وميروب .

تعجبك امرأة ببعدها عن الغنج والدلال ، فتعبر لها عن اعجابك بها ، وتشرح اسبابه بكل طريقة وفي مختلف المناسبات ، وتنتقد امامها بقساوة جميع النساء المتأنقات ، المسترسلات في الغنج والدلال . وبعد وقت طويل او قصير تصبح هذه المرأة مغناجاً ، وتضيع في دوّامة التأنق والدلال .

وجميع النساء يفقدن ما كان لهن من الاعتبار في نفسك بالحاحهن في طلب المال ، ثم يأتي يومٌ يفسدن فيه منابع المتعة التي تجنيها منهن ، فتضطر الى القطيعة .

ولو لم يطلبن شيئاً لحصلن على كل شيء ، لأن احجامهن عن الطلب يحدث في نفس الرجل اثراً يدفعه الى العطاء بلا حساب .

ولكن لا ! فرغبتهن في الطلب اقوى من ارادتهن ، فكأن فيهن حافزاً لا يقهر ، يدفعهن الى انتهاج سبيل الرعونة .

وكما تخطىء المرأة مع رجلها ، تخطيء كذلك مع ابنها ، سواءٌ أكان فتى ام فتاة ، وتخطىء اكثر اذا كان فتى .

كثيراً ما يحطم الناس اعصابنا باخبارهم عن « خوارق » حب الام الذي يرى الغيب ويجترح المعجزات ! ان هذا دجل ونفاق . فالام لا تدري ما في نفس ابنها ، ولا تعلم ما يجب عمله لأجله . استطيع ان اضع كتاباً ضخماً في هذا الموضوع ، لا يحتوي سوى حوادث حقيقية ، اطلعتني على بعضها امي لانها شذت عن هذه القاعدة .

يعترف بهذا الواقع جميع الرجال الذين يجرأون على النظر الى الحياة وجهاً الى وجه ، سواءٌ أكانوا علماء اخلاقيين ، او أطباء ، او مربين (اكليريكيين او علمانيين) ، او اطباء نفسانيين . ولكنهم يحصرون اعترافهم في حديث خاص ، ولا يعلنون آراءهم للمرأة ، او في تصريحات علنية ، ولا يطبعونها في نشرة او كتاب ، لانهم يخشون الرأي العام المنحاز الى النساء . وحتى تولستوي الكبير [1] ، أتدري ما قال لغوركي ؟!

---

١ - ليون تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) كاتب روسي عالمي الشهرة . اعظم =

قال له : « عندما يصبح نصفي في القبر ، ساعلن للملا رأيي في النساء ، ثم القي على نفسي بلاطة الضريح ! » ولا اعرف رجلاً أقدم على الجهر بالحقيقة في هذا الصدد غير هربرت سبنسر [1] الذي قال : « ان تدخل الام في شؤون ابنها لأشد ضرراً به من استنكافها عن الاهتمام بأموره » .

والابناء الكبار يعرفون أكاذيب امهاتهم ، فهي نتيجة العجز التام عن الادراك . ولكن هؤلاء الابناء لا يقولون شيئاً ، ولا يبوحون بما يعلمون إلا لنفوسهم ؛ انهم يرحمون امهاتهم . وهذا مظهر آخر من مظاهر الـ « الرحمة للنساء » .

اما انا فلي ابن هو أعز ما لدي في الحياة . اردت ان اصونه من وجود امه الى جانبه ، فاتخذت التدابير اللازمة كيلا يكون لهذه الام اقل حق عليه ، وعهدت بالسهر عليه الى امرأة ليست امه ، فمنحته حظاً كبيراً بالنجاح في الحياة .

انت تعلم ان بين القطط ايضاً امهات ، وان العطف الخارق الذي يعتلج في القطة الام لا يمنعها دائماً من افتراس جرائها . وهذا رمز عظيم المغزى . وقد اكون حميت ولدي من الافتراس .

تلك هي ، يا صديقي العزيز ، ردات الفعل التي احدثتها في نفسي رسالة اندريه على الصعيد العام . اما على الصعيد الشخصي فقد جعلتني هذه الرسالة في حالة من المرح المطلق تجاوز الجنون . واني احس بحمية تلهب ذهني وخيالي للتعليق على رسالة اندريه كلها بهذه اللهجة التي بدأت بها

---

* مؤلفاته : الحرب والسلم ، آنا كارينين ، البعث . برع في وصف الاخلاق والنفس الروسية ، بحث في اللاهوت والاخلاق لاكتشاف المحبة في الدين المسيحي القديم .
مكسيم غوركي (١٨٦٨ – ١٩٣٦) كاتب روسي واقعي النظرة ، بروليتاري النزعة . اهم مؤلفاته : حياتي في ايام الحداثة ، المشردون ، الام .

١ – فيلسوف انكليزي (١٨٢٠ – ١٩٠٣) مؤسس مذهب التطور في الفلسفة الحديثة .

رسالتي ؛ مثلاً : قالت اندريه انها عندما احبتني اخطأت ادراك غاية الحب . وهذا خطأ دارج واسع الرواج ، فانت تقبّل هراً في بعض الاحيان ، وتعتقد انك قبّلت هراً ، ولكنك اذا دقّقت في الامر رأيت انك قبّلت برغوثاً ، الخ ...

ومن البديهي ان اوهام اندريه مريعة الزوال ، يبددها محك الواقع ، ولكنها تحمسني الى اقصى حد ، لان ما في هذه القصة من السخافة المضحكة يسكرني طرباً .

لم اؤمن قط ايماناً وطيداً بصداقة اندريه لي لعلمي انها تحبني . فكنت اتظاهر بأني اصدقها ، كما اتظاهر ، بصفة كوني كاتباً ، بتصديق مظاهر الصداقة التي يغمرني بها بعض الزملاء ، وانا اعلم ما يضمرون لي من الحقد الخبيث العميق .

والآن ، كيف ستكون تصرفاتي مع اندريه ؟ ربما كنت ، في ما مضى ، مستعداً لقبول شتائمها : فبين شخصياتي واحدة يروقها ان تتلقى الشتائم ككلب البحر الذي حدثنا عنه ألان جيربو[2] انه كان يجد لذة خاصة في ان تمزقه الاسماك وتفترسه .

لا اطيق اندريه في البلاهة . احب البلاهة واجلّها اجلالاً شبيهاً بالتقوى اذا تجلّت في النساء الجميلات ، شريطة ان تكون المرأة البلهاء دمثة الخلق ، مطواعاً في الاستسلام . اما اذا كانت البلاهة معربدة جاهلة ، وصدرت عن امرأة دميمة ، فالوداع .

ألم تلاحظ ان بلاهة اندريه الناجمة عن احتدام غضبها افقدتها صوابها

---

١ ـ قال سان سيمون : «ان احترامي لنفسي كان يزداد دائماً بقدر ما أسيء الى سمعتي » . ـ المؤلف .

٢ ـ بحار فرنسي (١٨٩٣ – ١٩٤١) اجتاز المحيط الاطلنطي عام ١٩٢٣ وهو وحيد على زورق صغير . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٢٩ قام وحده ايضاً وعلى زورقه الصغير بدورة كاملة حول العالم .

وجعلتها ترتكب اخطاء لغوية وتستعمل كلمات غريبة الاشتقاق [1] ، وهي التي كانت تكتب دائماً بسهولة وقوة لا غبار عليها ؟ وكم كانت منتشية طرباً لما كتبت كلمة : لوّاط ! فلا ريب في انها تعلمتها في اليوم السابق ، فارادت ان تتباهى بانها تعرف ... وهكذا كان « برونيه » [2] في السنة الرابعة من عمره ، اذا تعلم كلمة جديدة تروقه ، راح يرددها نهاراً كاملا .

سأوجه بدوري الى اندريه رسالة ضارية من خمس عشرة صفحة ، اصارحها فيها برأيي فيها منذ بداية تعارفنا .

ليست هذه الحادثة حماقة كلها . فلو كنتُ في الثامنة عشرة من العمر ، وكانت اندريه المرأة الاولى في حياتي الجنسية ، لكان من المحتمل ان اقول في نفسي : « لا ريب في ان الحب يجب ان يكون هكذا . ولا بد له من التحوّل اوتوماتياً الى قذارة : هذه سنّته المحتمة ، ولا مناص له منها » . اما اليوم فلا يمكن ان يخامرني تفكير من هذا النوع ، لاني عرفت نساء وفتيات كثيرات عانين الخيبة ، والهجران ، والخيانة ، واحتفظن بكل ما كان فيهن من النبل والاباء ، تاهيك بنظرتهن الواقعية الى مجرى الامور ، وكثيرات منهن ما اردن غير الخير والهناء لمن كان سبب شقائهن . واذاً ، فلا مغفرة لاندريه . وعلى كل حال كنت انوي التخلص منها قبل ان تكتب اليّ رسالتها الاخيرة .

هذه القصة توحي اليّ بثلاث ملاحظات :

الاولى : اني لم اتلق قط اقل اهانة من امرأة حسناء ، وما شتمتني

---

١ ـ استعملت اندريه في رسالتها كلمة Decadentisme التي لا وجود لها في اللغة الفرنسية للتعبير عن التهادي في الانحطاط ، وكتبت Abîme ـ اي هوة ـ جاعلة حرفها الاول كبيراً كأنها اسم علم . وهذا غير جائز .

٢ ـ ابن كوستال غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى من هذه السلسلة : «الصبايا» . ـ المؤلف .

إلا الدميات . وكنت اذا تلقيت رسالة شتائم من امرأة اجهلها ، أدركت فوراً انها دميمة .

الثانية : يبدو لي ان اندريه السامية الخلق ما وجدت إلا لتكون ناقدة ادبية ، اعني ناقدة ادبية في باريس عام ١٩٢٧ . فالطريقة التي اعتمدتها لتثبت اني وشارلوس صنوان هي من نوع المنطق الذي يثبت ان الشيء الاسود ، الاسود كالحبر ، هو شيء ابيض ، ابيض كالطبشورة . وهذا دليل ساطع على حسن الاستعداد للنقد الادبي في هذه الايام . ولا عجب اذا كتبت هذه الفتاة مقالات لتبرهن ان هذه الرواية العاطفية الشعرية الحماسية هي في حقيقتها العميقة واقعية ، وان هذا الكاتب المرح الماجن هو في جوهره شديد القلق والاضطراب . وقد تبين لي كيف كان بول موران [١] بودليرياً ، وجيرودو [٢] كاتباً شعبياً ، الخ... وقد تصبح شهيرة ومحترمة في باريس عام ١٩٢٧ ، لان المهم ان يكتب المرء اشياء لم يسبق الى كتابتها احد من الزملاء بعد ، لا ان يكتب اشياء صحيحة ؛ وليس المطلوب ان يحكم الناقد حكماً سديداً عادلاً ، بل ان يكتب اشياء غريبة تتناقلها الصحف .

الثالثة : انك تعلم كم احب التكتم ، وكم احرص على ازالة آثار علاقاتي واحساسي . فالعرب الذين يحذقون هذا النوع من الرياضة يزعمون ان الأسد يمحو آثاره بذيله عندما ينتقل من مكان الى آخر ؛ ويقال ان احد سلاطينهم كان ينعل جواده بنعال مقلوبة كي لا تدل آثاره على الاتجاه الصحيح ؛ وثمة مثل مصري يقول : « خبّيء حياتك كما تطمر

---

١ - اديب وديبلوماسي فرنسي معاصر ، اشتهر ببراعة الاداء وجمال الوصف والتفلت من الاساليب التقليدية . من مؤلفاته : « مقفل ليلاً » و« مفتوح ليلاً » .

٢ - جان جيرودو (١٨٨٢ - ١٩٤٤) كاتب فرنسي احتل المرتبة الاولى في التأليف المسرحي بين ابناء عصره . اهم مسرحياته : امفيتريون ، انترميزو ، حرب طروادة لن تنشب ، إليكترا ، اندين . وله روايات عديدة اهمها : سوزان والمحيط الهادىء . وقد امتاز بأناقة البيان وسمو الافكار .

القطة سلحها » ؛ ولنوضح هذا الامر اقول : ان التكتم الذي احبه ليس كالذي يمارسه الناس ، انما هو التكتم الذي امعن فيه عمقاً بقدر ما ابوح به ، وبقدر ما يتلشر . فبعد المتعة الارستقراطية الناجمة عن إغاظة الناس وإثارة استنكارهم ، وهي المتعة التي اغنمها دون تحفظ ، نجد متعة اخرى في ان يعتبرك الناس غير ما انت ، شريطة ان يحط هذا الاعتبار من قدرك قليلاً في نظر قادريك . ولست ادري أتكون هذه المتعة ارستقراطية ام لا ، الا انها تدغدغ شعوري دغدغة لذيذة .

ومهما يكن من الامر ، فان بطلة سارن ليونار اوحت اليّ بفكرة جديدة ، فليس من المستبعد ان اضيف الى اقنعتي العديدة في الحياة قناع شارلوس . فلا شيء اسهل من ذلك : يكفي ان أذم النساء فكرياً ، ليستنتج الناس اني احتقرهن جنسياً ، لان الناس غلاظ الاذهان ، بمن فيهم رجال الفكر ، ويجهلون دائماً العلاقات المستترة . وعندئذٍ ... يتسع افقي ، اذ يخف حذر الآباء والامهات على بناتهن من محاولاتي ، وتصبح معاركي[1] سهلة اذا اعتقد الاغبياء اني « رجل لا يحب النساء » .

الحق يقال ان اندريه عززت حياتي بحقنة جديدة من السعادة . فهذه المرأة التي نبذتها ستكون سبباً لحصولي على عشرين امرأة جديدة . وأود من صميم القلب ان تكتشف ، يوماً ، هذه الحقيقة !

تصوّر اني ارى نفسي ، منذ الآن ، خارجاً مع « برونيه » ، والناس لا يدرون ان لي ابناً ، فالى اين تقودهم تخيلاتهم يا ترى ؟ ما اعظم هذا الاتساع في افق نشاطي !

---

١ ـ استعمل المؤلف هنا كلمة نحتها وركبها على هواه ، هي : Parthenomachie ، ووضع لها حاشية فسرها فيها كما يلي : كلمة يونانية الاصل ، مركبة من Parthenos ، ومعناها : عذراء ، ومن Maché ومعناها : معركة . فيكون معنى اللفظة برمتها : «الصراع في سبيل الصبايا» . واضاف بين هلالين قوله : هذه الملاحظة خاصة بشبان الجيل الطالع من الفرنسيين .

اصافحك ، يا صديقي ، واختم هذه الرسالة ببيت من الشعر لجوفنال [1] هو :

« ان بغض المرأة لا يرحم اذا تحس الذل حقدها » .

●

لا فرق عندي !

فطوال خمس عشرة سنة تخللتني قوة النساء كا يتخلل الهواء الارغن ، فما تغنيت إلّا بهن ، واسفاري ، وتنقلاتي ذهاباً واياباً ، وفترات تواري الطويلة بانقطاعي عن الكتابة ، وكل ما كان غامضاً لا تفسير له في حياتي – تلك الامور كلها لم يكن لها سبب إلا شغب النساء المتواتر بلا انقطاع . وكم مرة رفضت من الكون باسره كل ما هو غير الحب ، وضحيت بكل شيء ، ما عدا فني ، في سبيل حياتي الخاصة ، ولم تكن هذه الحياة مكوّنة إلا من الحب . ونصف العذابات التي حلّت بي كان ناجماً عن العذاب الذي اضطررت الى انزاله بالنساء ، او بالحري بالفتيات ، لأن كل مغامرة مع فتاة لا تؤدي الى الزواج تنتهي حتماً بالعذاب والشقاء ؛ ورضيت بأن ارى حياتي كلها مرتبكة ، متعبة ، ضعيفة ، بطيئة ، لاهتمامي الدائم بعدم الحاق الضرر بالنساء ؛ ولم استطع مرة واحدة ان أقرأ عبارة « فتاة صغيرة » من غير ان أشعر بقوة في صدري تدفعني الى ذرف الدموع ؛ ولم أسمع بان فتاة أجهلها سقطت في امتحان البكالوريا إلا أحسست بميل شديد الى عبادتها ؛ ولم يقع نظري على غلطة املاء في رسالة فتاة لا اعرفها ولم ألثم هذه الغلطة على الورقة . فكم هو غريب ، بعد هذا كله ، ان تتهمني امرأة باني شارلوس ، وان

---

[1] – شاعر لاتيني لاذع اللسان (حوالى ٦٥ – ١٢٨) ، انتقد الانحلال الخلقي في عهود القياصرة الرومان بقصائد تميزت بالحرارة والعنف .

تكون هذه المرأة ذكية ، كاتبة ، نيّرة العقل ، تعرف مؤلفاتي عن ظهر قلب ! لاحظ ، يا صديقي ، أن شارلوس لا يخيفني . قال مونتيني : « يعتبر الناس مضاداً للطبيعة كل ما هو مضاد لعاداتهم المألوفة » . وهذه هي الحقيقة ، فالمضاد للطبيعة هو الطبيعة ، كما ان السفينة المضادة لقاذفة الرعادات هي ايضاً قاذفة رعادات مكتملة الاوصاف . وقد حدثتني ، يا لها من حمقاء ! عن « هوّتي العميقة » : ان هوّاتنا في مكان آخر .

لا ، ان ما يخيفني هو الظلام الذي تبقى فيه النفس في نظرتها الى نفس اخرى . لم تفهم اندريه مني شيئاً ، على الرغم من كل ما كان فيها من مظاهر الفهم ، لانها استطاعت ان تخطىء بشأني الى هذا الحد ؛ وانا ايضاً لم افهم منها شيئاً ، لانـه لم يخطر في بالي قط انه من المحتمل ان تخطىء الى هذا الحد . وقد احسن بودلير حيث قال : لا شيء في هذه الحياة إلا وهو قائم على سوء التفاهم .

كنت اعلم هذا ، ولكن ما هو الشيء الذي لا ينساه المرء ، او بالحري لا ينساه الفكر ؟ فالنسيان واقع اساسي في الحياة ، حتى ان الفكر يستطيع القول : « اني أنسى ، اذاً انا كائن »[1] .

---

١ ـ في هذا القول معارضة لمذهب ديكارت الفلسفي القائل : « اني افكر ، اذاً انا كائن » . وهو المذهب المعروف بالروحاني ، لان الروح هي كل شيء في اعتقاد اصحابه .

من

بيار كوستال

باريس

الى

اندريه هاكبو

سان ليونار

٣ تموز ١٩٢٧

اذاً ، يا آنستي العزيزة ، فقد وجّهت اليّ رسالة عرمرمية ! فلا بأس ! فما أكثره لك من عرفان الجميل هو الاقوى : فالرجل الذي يحترف درس القلب البشري لا يستطيع إلا ان يغتبط لان فرصة كهذه لم تفته . اعطيتني صداقتك طوال خمس سنوات . وها ان عطاءك يستمر بانتزاع هذه الصداقة مني .

اعتقد أن ليس لاحد منا ما يقوله للآخر في الوقت الحاضر . ولكني اعرفك : فستعودين اليّ يوماً ؛ واعرف نفسي : فساستقبلك ، ولا ريب ، كأن شيئاً لم يكن بيننا . وعلى كل حال ، فلا لزوم للاستعجال . فانت ، ولا شك ، بحاجة الى الراحة بعض الوقت .

ثقي ، يا آنستي العزيزة ، باني احفظ منك اطيب الذكريات . واني اتابعك باهتمام في مختلف احوالك .

ك

ملاحظة : ارسلت اليك بالبريد كتاباً عن كوزيما فاغنر ، ألم تقولي لي مرةً ، في احدى رسائلك ، خلال الشتاء الماضي ، انك ترغبين في مطالعته ؟ حظيت به صدفةً في احدى مكتبات رصيف النهر .

من

السيدة بلانشمنيل
الرانش (مانش)

الى

السيد بيار كوستال
باريس

٢ تموز ١٩٢٧

ان اسمي لا يعني شيئاً بالنسبة اليك ، اما اسم تيريز بانتفان فقد يذكرك بشيء .

أتذكر هذه الجمل : « أيجوز لي ان احمل هذه الصيحات ؟ ان قلبي لا يطاوعني ... وربما كانت فيك قوى جديدة بان تكرّس ... » ؟ ثم : « سأشفق عليك السبت ، الساعة السادسة مساء » . وبعدئذ ساد الصمت شهراً . واغلب الظن انك لم تُعر هذا الامر اقل انتباه : لما هي اهمية تيريز بانتفان في نظرك ؟ ان رسائلك اليها لم تكن إلا تسلية . ولكن يجب ان تعلم نتيجة هذه التسلية ، وسبب هذا الصمت : منذ ثلاثة اسابيع حُجر على ابنة عمي الشقية في مستشفى المجانين ، بأفرانش . أفيقدر لها ان تخرج منه يوماً ؟

ان تيريز بانتفان ابنة مزارع ميسور ، وقد كانت منذ حداثتها وحشية المجرفة ، تحسب نفسها نابغة لانها تحمل شهادة تكميلية .

وانا ايضاً احمل شهادة تكميلية ، فلا يحملنك الظن على اني احسدها . أتراني استطيع ان احسد مجنونة شقية ؟

كانت تيريز كسولاً ، تحتقر الاشغال اليدوية ، وتقيــة حتى التزمّت ، ومدعية بالتفوّق الفكري حتى الغرور : فقد كانت تحتقرنا !

لزمت عزلتهـا في مزرعـة ابيهـا ، وعاشت في الكبت الدائم ، ثم اكتشفت كتب كوستال : الرجل الوحيد ، الفريد ، الذي قـد يستطيع فهمهـا .

قاطعت اصدقاءهـا ، وتلميذاتهـا ، وجميع الذين تعرفهم لتنصرف الى قراءة مؤلفاتك ، والتأمّل فيها اياماً كاملة منزوية في غرفتها ، محدقة بهيام الى جميع صورك التي اقتطعتها من الصحف ، وقـد وجدناها معهـا ... واخيراً كتبت اليك .

وانت الذي مـا يزال في مقتبل العمر ، ولا يدرك شيئاً من شؤون الحيـاة ، على الرغم من جميع ادعاءاته (لم اقرأ من مؤلفاتك إلا كتـاباً واحداً ، لكني وجدت فيــه الكفاية لاكرهك) ، انت الذي لا يمكن ان يكون اعمى الى حدّ لا يدرك فيه حالة ابنة عمي من خلال رسائلها ، اعني الجنون ، فعوضاً عن ان يلقي برسائلهـا في سلة المهملات ، راح يجيب عنها ، وينفخ النـار، ليزيدها ضراماً ! فعلتَ ذلك عن غطرسة ، عن نزعة فيك الى الساديّة ، وإلا فما هي العاطفة التي دفعتك الى هـذا العمل ؟

كنتَ في نجوة من كل خطر ، وكنت تعلم ان هـذه الفتاة الريفيـة المسكينة ، المشدودة الشعر الى الصدغين (وقد ارسلتُ اليك صورتها) ، لن تغادر حقلها البعيد لتلحق بك الى منازلك الفخمة المترفة ؛ ولو فعلتْ مدفوعة بالوقاحة ، لما صعب عليك ان تأمر خدمك بطردها .

في شهر نيسان ، غادرت بيتها لتركب القطار الى باريس . فامسكت امها بها قبل فوات الاوان وحجرت عليها . وفي شهر نوار هربت مـن جديد ، فقبضنا عليها في بلدة « فير » على يـد رجال الدرك ، فراحت تجثو على ركبتيها وتقول للذين قبضوا عليها : « دعوني اراه خمس دقائق

فقط ، ثم اعتقلوني ! » واضطررنا الى ابقائها ليلاً في السجن ، بانتظار مجيء ذويها لاعادتها الى المزرعة . وفي حزيران انتابتها نوبة هيستيرية ... تلك كانت عاقبة تصرفاتك ، يا سيدي .

لن احدثك عن امٍّ تبكي ، وقد باعت مزرعتها منذ قليل لتدفع ما يترتب من أجرٍ على ابنتها المجنونة في المستشفى . وعلى الرغم من ان هذه الام تجاوزت الستين من العمر ، فقد باشرت مطالعة مؤلفات بيار كوستال لتعلم من هو هذا الرجل الذي كان سبباً لشقائها وشقاء ابنتها .

والآن ، بعد ان ارغمتك ، يا سيدي الكاتب الكبير (!) ، على ادراك مسؤوليتك في هذه القضية ، فما الذي تنوي عمله ؟

اذا كان فيك شيء من الشعور الانساني ، وهذا ما ارتاب فيه ، فاني اخبرك بان راتب ضحيتك في الحجر هو خمسة عشر الف فرنك في السنة . فاذا رأيت ان من واجبك الاسهام في هذا المبلغ ، فيمكنك التفاهم معي مباشرةً ، فاعطي ما ترسله اليّ للسيدة بانتفان التي لا تستطيع الاهتمام بهذه الامور لقلة خبرتها فيها . واذا فضّلتَ عدم الاجابة ، فلدينا رسائلك الموجّهة الى تيريز بانتفان ، ونحن نعلم ما ينبغي لنا ان نعمل بها .

انطوانيت بلالشمنيل

ملاحظات كتبها كوستال على صفحة بيضاء من هذه الرسالة :

« لم تكن هذه الرسائل بالنسبة اليك إلّا تسلية » . أن اتسلى مع اندريه ، اجل ، في بعض الاحيان . اما مع ت . بانتفان ، فلا . بل عكس التسلية . حذّرتها من الخلط بين المقدس والدنيوي . جافيتها لأثير اشمئزازها مني . لم ادفعها الى الدير كيلا اتدخل في شؤونها الخاصة ، بل الى استشارة كاهن يستطيع ان يطلعها على قيمتها الحقيقية . جعلتها تشعر بانها شخصية (وهي شخصية بالفعل) . الرحمة وحدها كانت

مصدر كل ما عملت . اجل ، الرحمة على ابعد مدى ، ولا ذرة من الشر . الرحمة ، والعطف ، والتفهم ، والاحترام .

تهوّر ؟ ليكن . ولكن كل احتكاك بمخلوق بشري هو تهوّر .

اجل ، تهوّر السخاء . فكل عمل مصدره السخاء الصافي يرتد دائماً الى صاحبه كالبومرانغ [1] الذي يرجع الى من اطلقه . وليس في هذا المجال اقل شذوذ عن القاعدة . فالذين يعملون بدافع السخاء يمكن تصنيفهم مسبقاً بين الضحايا .

واذاً ، فليست المأساة في ان قضية بانتفان سببت توجيه هذه الرسالة اليّ ، لأن هذه الرسالة ليست إلا النتيجة المنطقية للبواكير التي سبقتها . انما المأساة هي ان تيريز بانتفان ليست مجنونة مطلقاً . انها سجينة ، — في الخامسة والعشرين من العمر — لانها كانت على علاقة بالمناطق العليا من الروح . اختلفت عن الناس فحسدوها ، أي ابغضوها . فتيريز بانتفان سجينة ، تحجر عليها محيطها لانها متفوّقة عليه .

وما يهمني أمجنونة كانت او غير مجنونة ، ما دامت تتألم ؟

لو كنت مؤمناً لصلّيت لاجلها .

---

[1] — سلاح تستعمله بعض القبائل الاوسترالية مؤلف من شفرة خشبية قاسية ومعقوفة ، ترتد الى مطلقها اذا اخطأت الهدف . وتستعمل هذه الكلمة مجازاً للدلالة على ان فاعل الشر يشقى بفعلته ، وطابخ السم آكله ، ومن حفر حفرة لاخيه وقع فيها .

من

اندريه هالبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٨ تموز ١٩٢٧

عزيزي كوستال !

لست ادري اين اصبحتَ معك ، ولم أعد اعلم من انت . وها انا اكتب اليك لاطلعك على ما ينتابني من الحيرة ، على الرغم من شعوري باني اصغر في عينك بهذه « الرسائل الاخيرة » [1] التي لا تنتهي . لم يكفني انك حطمتني في باريس ، فكان عليّ ان اتحطم من جديد بما علمته عنك في كابورغ . ثم ، اليك ما جرى : في غمرة حنقي المتزايد ، كتبت الى بضعة اشخاص اعرفهم في باريس ، وهم مطلعون على احوالك . كتبت اليهم اقول : « لماذا لم تنذروني بحقيقة كوستال ؟ » فاجابوني بان البارونة فليشياه امرأة مجنونة ، وبانه « من السخف المضحك ان اصدق ما قالته عنك من

1 ـ في رسالتها السابقة كتبت اليه للمرة الرابعة : « الوداع ، هذه رسالتي الاخيرة اليك ! » ربما اعادت الكرة من قبل ، عادت هذه المرة ايضاً الى مراسلته . وهذا ما كان يقوله لها في مختلف المناسبات : « انك ستعودين اليّ ، شئت ام ابيت ! »

البذاءة » . وها انا حائرة ، لا ادري كيف افكر لاهتدي . ففي بعض الاحيان اعتقد ان البارونة صادقة ؛ وربما كانت هذه الاحيان من الفترات التي تشتد فيها آلامي ؛ ثم يخامرني الشك . واظن ان هذا الشك يروق الرجل الذي كتب اليّ يوماً يقول انه لا يحب شيئاً اكثر من « الحدود المبهمة التي تتداخل فيها الاشياء وتمتزج »[1] .

ولكني غدوت استمدّ القوة من حادث جديد يشدد عزيمتي : لم اعد فتاة عذراء في الثلاثين من العمر ، لم يقبض رجل قط على كتفيها ليقول لها : « يا ابنتي الصغيرة » . في الآن مسرّاتي وسعادتي ، انا ايضاً[2] ، وهي لا تقلّ قدراً عن مسراتك وسعادتك مهما تكن (كم انا شديدة التوق الى معرفة ماهيّة مسراتك وسعادتك ونوعها ! ...) لي اصدقاء سواك ، وهم لا يدعونني الى مطاعم رخيصة ! فاياك ان تزدريني بعد اليوم . ولكن إعلم اني اذا تزوجت فستظل ليلة الغرام التي التمستها منك امنيتي الكبرى في الحياة . لن تتحرك حياتي إلا اذا تحركت انت . اذا لم تكن مـا حسبتك في كابورغ ، واذا تبين لك يوماً انك تريد الاحتفاظ بي ، وانك تشتهيني ، وتود ان اكون في حياتك روحـاً وجسداً ، وان لا بديل لي لديك ، كما انه لا بديل لك لديّ ، واذا رأيت اني اساوي الاضطراب والهموم التي يسببها الحب لرجل يحب امرأة ويعتبرها جديرة بان يعـاني لاجلها ما يعاني ، اذاً فاطلبني ، فاكون لـك ، أياً كان الرجل الذي جعلني في عصمته ، ومهما تكن العلاقات التي تربطني به .

الوداع ! لقد احببتك ، واحببتك حباً عظيماً ، ومـا برحت احبك حتى الآن . اما انت فلا شيء يستطيع منعك من الرضى بان تكون محبوباً . احس باني لو سمعت احداً يهاجمك بهجر الكلام ، كما جرى منذ

---

١ ـ الرجل الذي تعنيه اندريه هو كوستال .

٢ ـ اختراع محض . فهذا « الرجل » الذي تسلّل الى حياة اندريه لا وجود له إلا في خيالها . ـ المؤلف .

حين في كازينو كابورغ ، لما استطعت احتمال هذا الهجوم ، وقــد اكون عاجزة عــن احتماله في المستقبل ، أياً كانت النتيجة . ومهما يكن الجرح الذي احدثته فيّ بليغاً ، فثمة اشياء مني لك ، ومنك لي ، لا يمكن ان تتعطل او ان تضيع . ومن يدري ? فقد اترك بعدي اسماً تحمله شخصية تقتبسها عني في تلك الرواية التي وعدتني بها[1] .

أ . ه

لا استطيـع التفكير بانــك ستتزوج يوماً ! فاذا اقترنت بامرأة ثريــة يهون الأمر ، لأني اتعزى بالقول انها اعطتك ما اعجز عن عطائه ؛ اما اذا تزوجت بامرأة ليست أغنى مني ، فـلا عجب اذا وجدت في هــذه النكبة ما يفقدني الصواب .

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

---

١ - اختراع محض . لم يعدها كوستال بشيء من هذا النوع . - المؤلف .

ان في الادواء المتمضّلة لشيئاً من الالوهية .

سان سيران [1]

تلقى كوستال كلمة من السيد دنديو قال له فيها انه يكون سعيداً اذا حظي بزيارته بعد غدٍ ، الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ وقال في هذه الكلمة : « سنكون وحدنا » . وهكذا كتبت اليه يوماً ابنة دنديو تقول : « تعال ، سنكون وحدنا » . فاذا بالأب يكتب ايضاً : « تعال ، سنكون وحدنا » . فما اغرب شؤون هذه العيلة !

من عادة المحتضرين ان يكتبوا بخطٍّ واضحٍ متقن ، لانهم يعتبرون السيطرة على اعصابهم من شروط صيانة السمعة والشرف . ولهذا السبب نرى السكران يعنى بخطه عناية كبرى حين يكتب . اما خط السيد دنديّو فكان مخربشاً ، فوضوياً ، مبعثر الكلمات ، كأنه جثة خط انطرحت قبل الجثة الاخرى . وقد كتب رسالته بالقلم الرصاص .

وكان السيد دنديّو قد لزم غرفته لا يغادرها مطلقاً . فلما دخل كوستال الى هذه الغرفة التقى بمرضاً يخرج منها ، وله سحنة لا يود احد ان يراها ليلاً في الغابة . والكلمة الاولى التي استقبل بها السيد دنديّو

---

١ - ليس « سان سيران » قديساً كما يدعو اسمه الى الظن ، انما هو من اتباع الجانسينية في فرنسا (هذه الملاحظة خاصة بالجيل الفرنسي الطالع) . - المؤلف .
وسان سيران لاهوتي فرنسي (١٥٨١ - ١٦٤٣) صادق بجانسينيوس مؤسس « الجانسينية » ، وتولى رعاية النفوس في دير بور رويال حيث كان له نفوذ عظيم .

ضيفه كانت هذه :

– ألا تشم رائحة المرض في هذه الغرفة ؟ اني احرق ورق ارميليا [1] . أتحب رائحته ؟ ... كن واثقاً ان الكرامة الوحيدة الجديرة بالاعتبار هي الصحة . والله يعلم كم كنت في حياتي الماضية رجلاً سليماً معافى ؛ اما اليوم ...

وكان صوته قد اصبح خافتاً ضعيفاً كصوت امرىء انقطع عن الكلام تقريباً ، او لا قدرة له عليه ، فاصبح عديم الاهتمام بنوع الصوت الخارج من بين شفتيه . وكانت عيناه تبدوان كأنهما مجللتان بغشاء . ولم يكن قد حلق ذقنه ، فراح يشرح سبب هذا الاهمال قائلاً :

– عملت كثيراً لأجل هؤلاء الناس . كنت احلق ذقني لاجلهم ، وأتعمد الطيبة والاحسان لاجلهم ؛ وها انا ارى اليوم انه لا يجوز ان نحاول الاحسان الى الذين لا نحبهم . لا شيء في الحياة يتطلب من العفوية والنزعة الطبيعية الخالصة ما يتطلبه عمل الخير . وقد اخطأت في هذا المجال ايضاً بارهاق نفسي وتحميلها فوق طاقتها . ثم ان الخير الذي نعمله يفسد لسبب وجيه هو اننا اخطأنا في عمله .

وجعل كوستال يقول في نفسه : « لا يجوز ان نحاول الاحسان الى الذين لا نحبهم » ، وهو يفكر باندريه .

وكان قد ادرك منذ مقابلته الاولى للسيد دنديتو ان هذا الرجل المحتضر لا يهتم إلا بنفسه . فاعجبته هذه الميزة ، واحس بانه يعطف على المريض عطفاً صادقاً . ولكنه لاحظ ان دنديتو يزداد انطواء على نفسه بقدر ما يقترب من الموت .

وكان كوستال يعتبر انانية الشيوخ امراً طبيعياً ، لانها من صميم حركة الحياة . فكيف يستطيع المرء ان يحب العالم بعد ان يكون قد اختبره

---

[1] ـ ورق تنبعث منه رائحة عطرة اذا أُحرق كالند والبخور .

طيلة حياته ؟

قال السيد دنديو :

ــ ان الرجل الذي خرج من هــذه الغرفة ، منذ لحظة ، هو اقدم اصدقائي . فالكلفة مرفوعة بينه وبيني منذ خمسين عاماً ، أفتدري ما هو الموضوع الذي كان مدار حديثنا ؟ في الربع الساعــة الاولى حدثني عــن مشروعات رحلاته الى مصر والهند وسيلان ، وكان منتشياً بجهالات هذه الرحلات ؛ وفي الربع الساعة الثاني طلب اليّ رسائل توصية لابنه ؛ وفي الدقائق الخمس الاخيرة ، اي الدقائق الخمس الاخيرة من صداقتنا ، لاني ساموت قبل ان يعود من رحلته ، ما انفك يقسو علي ويوبخني بلا هوادة لاني انام في غرفة مغلقة النوافذ . هذا مــا قــاله صديق لصديق له على فراش الموت ، مع ان عمر صداقتهما نصف قرن .

وكان دنديو قد التقى بهذا الحديث فكرياً مع كوستال دون ان يدري ، فاجابه الكاتب :

ــ كل ما في الامر ان هذا الرجل خالٍ من الخيال .

وكانت زقزقــة السنونو تأتي متشابكــة من اشجــار الشارع كأنهــا اضاميم كثيفة من الاصوات ، فسأل كوستال العجوزَ المحتضر قائلاً :

ــ واين الفيرونال ؟

ــ في مكانه وعلى أتم الاستعداد .

ــ لن تأخذه ابــداً . كان عندنا قديماً في البيت هرّ هرم اصيب بقرح لا يندمل لأنه كان يحكه دائماً ، فاعطيناه قليلاً من السم . ولكن امي ندمت على فعلتــها ، واحست بتبكيت الضمير ، فراحت تقــول : « على الرغم من قرحه ، كان من المحتمل ان يعيش بضع ساعات طيبة » . وانت ستقول ، كلمــا هممتَ باخذ الفيرونال : « ربمــا عشت بعــد بضع ساعات طيبة » .

ــ اذا كنت لا اتناول السم ، فلأني لا اعاني ألماً شديداً . كل مــا

احس به اني متعب ؛ اجل ، متعب ! أتدري مـا الذي يجعلني متعباً ؟ كوني عملت كثيراً من الخـير في حياتي ، وخدمت اناساً كثيرين . كنت منذ حين امزق ما لديّ من الرسائل ، فوقعتُ بينها على عشر او خمس عشرة وكلها طلبات مساعـدة ، او شكر على خدمات سابقـة . واذا سلّمتَ بأن نصف الذين نخدمهم يشكرون ، عرفتَ عـدد الذين مددت اليهم يد المساعدة . ولمَ هذا العذاب ، يا الله ؟ تذكـّر ، يا سيد كوستال ، دائمـاً هـذا القول : ان الذين نساعدهم لا يستحقون قطعاً مساعدتنا .

– اني سعيد جداً بكوني لا اخدم احداً . فانا اذاً غير كفء للحكم على اعمالك . لكن كيف يتألم من نكران الجميل رجلٌ له مـا لـك من القدر والمكانة ؟ فالحمقى وحدهم يؤلمهم نكران الجميل . أيكون السخاء في نظرك ضرباً من الاعارة طمعاً بالاستعادة ؟

– لست متعباً من نكران الجميل . انما السخاء الذي بذلتـه هو الذي يرهقني . كان سخاء عديم الفائدة ! وكم اضعت في سبيله من اوقاتي ! آه ! كن انانياً ، يا سيد كوستال .

– اني اناني !

– اذاً ، فالحياة لك !

ثم قال السيد دنديو انه متعب للغاية ويود لو يموت . ثم جعل يشرح نظرية متشليكوف [1] كأنه واضعها ، فقال : لا يموت الانسان الا اذا اراد حقاً ان يموت .

واستطرد بصوت لا يخلو من القوة :

– اني اكره الذين يخافون الموت كباسكال ، الخ...

---

١ ـ عالم روسي (١٨٤٥ — ١٩١٦) تخصص في درس الحيوان والجراثيم ، وكان من التابعين لباستور . وضع نظرية في وظيفة الخلايا في الجسم ، ولخص دراساته في كتاب عنوانه : « المناعة » .

"فسّر" كوستال بهذا الاستعداد الذي يعفيه من التظاهر بالأسف والحزن . واستأنف السيد دندبو حديثه قائلاً :

— وبعد ، فاني اسائل نفسي : لماذا عشت ؟

وكان جامد النظر . فاجاب كوستال بصفاقة :

— عشت" لانه لم يكن في وسعك ان تعمل شيئاً آخر . فحياة كل رجل تقريباً تعاني التشويش بدافع من حاجة صاحبها الى تبرير وجودها . والنساء اقل تعرضاً لهذا النوع من الضعف .

. لو كنت سعيداً في حياتي لما حاولت تبرير وجودي ، لان هذا الوجود كان قد اكتفى بنفسه . ولكني لم انعم بالسعادة . وقد اكتشفت ان عدم تنعمي بالسعادة هو الذي سيسبب موتي في الحادية والستين من العمر ، عوضاً عن ان اموت في السبعين او في الخامسة والسبعين كما كان من المتوقع بالنظر الى المبادىء الصحية التي اتبعتها في حياتي . في وسعك ان تتصور حالي متى علمت اني عشت اربعين عاماً دون ان التقي في جواري شخصاً ذكياً . اني لمتعب حتى العياء من الاشخاص الخالين من الذكاء ...

— لكي تجد امرءاً ذكياً يجب ان تبحث كثيراً ، كثيراً ...

— ولما اشرفت على الموت التقيتك !

— هذا افضل لنا ، فلو تعارفنا قبل اليوم لما استطعنا الاتفاق والانسجام .

فسأله السيد دندبو بتواضع :

— لماذا ؟

— لاني كنت سشتمك .

فقال السيد دندبو ، وقد استولت عليه الدهشة :

— كيف تستطيع ان تقول لي هذا القول ؟

— اقول لك هذا القول لاني اعلم انك لن تفهم .

— اجل ، اني ابـله ! ألا تعتقـد اني ابـله ؟ اجل ، اني مُبْرِمٌ ابعث الضجر .

وارتسمت على وجهـه كآبة مخيفة فيهـا كل معـاني المرارة والألم ، ثم قال :

— اجل ، اني ابعث اليأس ، وكثيراً مـا أفهمني الناس ذلك . ولكني اود ان اعلم هل زوجتي تعتبرني احمق عن يقين ، ام تتظاهر بهذا الاعتبار لتغيظني ؟ والحق يقال اني اصبح احمق بالفعل حين اكون معها .

— ألم تصبح اشد ذكاءً منذ ان حلّ بك المرض ؟

— بلى ، غُدوت افكر اكثر .

— عذراً ، لا اعتقد انك تفكر ، اعني التفكير بمعناه الأصيل . وانا ايضاً لا افكـر . وقـد حاولت مراراً ان اری بوضوح كيف يكون التفكير ، ولكن الوقت كان ينقضي ، وانا حيث كنت ، لا افهم من هذا الامر شيئـاً .

— ترى اني افكر تفكير هاوٍ ، أليس هذا ما تعنيه ؟ كانت عائلتي ايضاً تعتبرني هاوياً في كل ما اعمل . ولو كان لي عمل مستقر او وظيفة لاختلفت الحال . فمنـذ عشر سنوات او اثنتي عشرة سنـة اصبح افراد عائلتي يعتبرون ما اقول عديم الاهمية . فتدحرجت على منحدر ، وغدوت عـاجزاً عـن التصعيد حتى لو كان امامي متسع من الوقت . ولو جـاء الوزير شخصياً ليقلدني وساماً وانا جالس على هذا المقعد لمـا ادرك احد من اهلي سبب هذا التكريم . أمـا أطلعتك على الرسالة التي كتبتها الى الوزير لارفض وسام جوقة الشرف ؟

وتعمد لهجة الاحتقار وهو يذكر الوسام ، فاجاب كوستال :

— بلى ، اطلعتني عليها .

— عذراً ، ان ذاكرتي ضعيفة .

وشرد نظره لحظة ، ثم قال :

– هل رويتُ لك قصة الرجل الذي فضل ان ينال وساماً من رتبة ضابط على ان يزيد عمره عشر سنوات ؟

فحرك كوستال رأسه سلباً . فقال السيد دنديو :

– لأحد اصدقائي اخ في الثانية والسبعين من العمر . وكان هذا الاخ كئيباً لاعتقاده انه كان يجب ان ينال الوسام من رتبة ضابط منذ سنتين . فقال له صديقي مازحاً : « اظن انك تفضل ان تموت بعد سنة والوسام على صدرك ، على ان تعيش عشر سنوات بلا وسام » .

فاجاب الاخ : « بكل تأكيد » ، دون ان يبتسم . فما قولك ، أليست الحياة جميلة ؟

– بلى . لو خلقت انا العالم لما جعلته افضل مما هو .

فابتسم السيد دنديو حاسباً ان كوستال يحدّف . ولم يخطر في باله ان الكاتب يحب الكثلكة حباً جماً . ثم قطّب حاجبيه ليستعيد نظره الشارد ، المتجول بين كل ما في المكتب من اشياء ، وجعل يحدّق الى جارور خزانة صغيرة لحفظ الاوراق ، وهو يقول لكوستال :

– أتتفضل بسحب جارور هذه الخزانة ؟ ان فيه جميع الرسائل المتبادلة بيني وبين امي ، لما كنت شاباً اعزب ، واود ان اقدمها لك . وستجعلها صرة . فاذا دخل احدهم الى هذه الغرفة وسألك عما تحتوي هذه الصرة ، فقل له ان فيها قصاصات جرائد عن الرياضة البدنية .

ردد كوستال في نفسه كلمة : « احدهم » ، وهو متعجب من الطريقة التي كان السيد دنديو يتعمدها لاجتناب ذكر ابنته ، ولتجاهلها ، او لحمل مخاطبه على الظن انها من الذين يزدريهم .

وتذكر كوستال انه تضايق منذ ايام لما دخلت سولانج على ابيها وهو يتحدث اليه ، واحس ان ذكرها يخفف من حرارة الحديث بينه وبين العجوز لقلة اهميتها بالنسبة الى الجو والمستوى اللذين يجري فيهما هذا الحديث ؛ بل اكثر من ذلك : لقلة اهميتها بالنسبة الى

السيد دندبو .

قال كوستال :

– انك تراني للمرة الثانية ، وتريد ان تعطيني رسائل امك !

– ومن يستطيع المرء ان يثق ان لم يثق بالذين لا يعرفهم ؟

– تعطيني هذه الرسائل في يوم آخر .

– لن يكون لي « يوم آخر » ، على ما اظن .

– بلى ، لا تكن متشائماً .

– أتظن اني استطيع العيش بعد وقتاً ما ؟

طرح السيد دندبو هذا السؤال وقد اشرق وجهه ، ولمعت عيناه ، على الرغم من قوله منذ قليل انه يود لو يموت ، وانه يرحب بالموت مسروراً .

وطلب السيد دندبو ورقاً وخيطاً ، ثم جعل يصر رسائله ورسائل امه ، فكانت تفلت من بين يديه ، ولا يستطيع القيام بحركة دون ان يقع شيء منه او حوله ، فراح يقول :

– كل شيء يقع ... كل شيء يقع ... فالاشياء تفر هاربة مني . انها تحس باني على وشك ان اصبح جثة .

ولما دنا منه كوستال ليساعده بعمل الصرة قال له :

– اود ان تخبرني بصراحة أكريهة رائحة لهاثي ؟ فقد تغيّرت كثيراً منذ حلّ بي المرض . منذ ستة اشهر لم يكن وجهي هكذا ، وكان كل من يراني يحسبني في الثانية والخمسين او الثالثة والخمسين من العمر .

ولاحظ كوستال ان بين الرسائل قصاصات جرائد فيها اخبار المناسبات الاجتماعية منذ عام ١٨٩٠ ، وقد أشير فيها بخط احمر الى اسم السيد دندبو . لقد تنكر هذا الرجل لحياته الاجتماعية وما فيها من زيارات وحفلات حتى انه باع ثيابه الرسمية علناً للاعراب عن زهده بالمظاهر . ومع ذلك دفعه حب الظهور الى الاحتفاظ مدة اربعين سنة

بهذه القصاصات الزرية الحاملة اخبار حفلات ريفية ، لأن اسمه مطبوع فيها . لا شك في ان الطبيعة اخطأت حين ضنّت على السيد دنديو بموهبة التعبير عن خواطره ، فقد ولد ليكون من رجال القلم .

سأله كوستال :

— ما هي غايتك من اعطائي هذه الرسائل ؟ أتريد ان اتلفها ؟ أتريد ان احتفظ بها من غير ان اقرأها ؟ اذا كان الامر كذلك ، فما الفائدة من حفظها ؟ واذا كنت تريد ان اقرأها ، فبأي صفة يجوز لي التدخل في هذا الموضوع ؟

— اني اقدم هذه الرسائل للكاتب الروائي . اقرأها ، فقد تجد فيها اشياء لا تخلو من الفائدة لرواياتك .

قال كوستال في نفسه : « ما اغرب هؤلاء الناس ! » وخامره شيء من العجب ، على الرغم من اطلاعه على اشياء كثيرة ادهشته في ذلك اليوم . ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : « كثيراً ما تلقيت من قارئات ، ما رأيتهن في حياتي قط ، دفاتر كاملة شرحن فيها تفاصيل حياتهن الزوجية الحميمة على أمل ان اجد فيها « بعض الفائدة لرواياتي » ؛ اما ان يقدم رجل على عمل من هذا النوع ، فامر يدعو الى الاستغراب ! وما عساه يكون الدور الذي تقوم به المرحومة السيدة دنديو الام في هذه الرواية ؟ أكان يسرها ان تعلم ان ابنها سيعطي رسائلها يوماً ما لرجل مجهول — فاني مجهول بالنسبة اليه — ليفيد منها ما يكتبه ؟ ما اغرب الانسانية ! انها حقاً خليط من اناس فاقدي الشعور .

ورفع السيد دنديو يده الى جبهته وقال :

— هذه السنونوات ، ما افظع ضجيجها ! فالسنونو ، والشمس ، وكل ما هو جيّد وجميل يزعجني حتى الارهاق . منذ قليل كان احد العمال يغني على الدرج . ولا بد ان تكون لاحظت انهم يجددون دهان الدرج . لا تستطيع ان تتصور كم كان صوت هذا العامل رخيماً وحسن الوقع .

فرحت اقول في نفسي : « انه في ثياب الشغل ، انـه لا يغتسل ، انه غليظ ، ولكن صوته صافٍ جميل ... كأنه آتٍ من عالم آخر » .

ـ وهل كان يتعبك هذا الصوت ايضاً ؟

ـ لا .

ـ لما سمعت بداية جملتك ظننتك تريد مصارحتي بان غناء هذا العامل كان يزعجك كما تزعجك الاشياء الاخرى ...

ـ عذراً ! لم اعد اتذكر كيف كانت بداية جملتي . ان ذاكرتي ضعيفة للغاية ...

وراح يعبث بقوارير ادوية كانت على طاولة صغيرة الى جانب مقعده ، فقال كوستال :

ـ وخلاصة القول انك لا تعلم أقاسية كانت اغنيـة العامل عليك ، أم سائغة ومفيدة ؟ وانت لا تدري ايضاً أيجيء موتـك في حينه ، كما قلت لي منذ قليل ، أم هو يرعبك كما يبدو لي من حركاتك واقوالك ؟ فالموت يرعبك وانت تتقبله ، والرعب والقبول يسيران جنباً الى جنب ، كما ان صوت العامل أتعبك واعجبك ، فسار تعبك وعجبك جنباً الى جنب .

فاجاب السيد دنديو كتلميذ سأله معلمه عن اتجاه الغولف استريم [1] :

ـ لا ادري .

وقبل ان يتكلم كان قد شدّ قبضتيه بقوة ، حتى كادت اظافره تدمي راحتيه ، كأنه يبذل جهداً كبيراً ، ثم وضع قبضتيه على مسندي المقعد . فاستطرد كوستال قـائلاً ، وهو ينظر جانبيـاً الى صورة مرسومـة على السجادة :

---

١ ـ مجرى مياه حارة ينبع في خليج المكسيك ، ويتجه شرقاً بشمال عبر المحيط الاطلنطي ، ويتفرع الى مجارٍ عديدة ، وله الفضل في تحسين المناخ في بـلدان اوروبا الغربية والشمالية .

– كنت اسائل نفسي لماذا احببتك ؛ أما الآن فقد أدركت السبب . ذلك انك مثلي تماماً . ومـا اعطيتني رسائـل امك إلا لأنك تعلم اني مثلك . هذا ما فهمته فجأةً في هذه اللحظة .

واخذ يتمتم بحرارة وابتهال دون ان يرفع نظره عن السجادة : « يا إلهي ، اجعله يعيش الى الأبد ! »

فانتفض السيد دنديو وقال :

– ماذا قلت ؟ انك ، اذاً ، تؤمن بالله !

فاجاب كومتال بلهجة تنم عن افظع معاني الاحتقار :

– انا ، اؤمن ؟

– في اجتماعنا الاخير قوّيتني على الالحاد . وها انت الآن تعيد النظر في موقفك ، وفي هذه الساعة بالذات ، وانا على ما ترى من الضعف ! فالناس ، كالشعوب ، لا يتوقفون عن الانحطاط منذ اليوم الذي يبدأون فيه بالاستماع الى احاديث عن الله . اذا كانت هناك حثالة خلقية في البشر لا تستطيع الاستغناء عن الدين ، فما حيلتي ؟ اما انت فاذا كان لك دين فاخجل به ، على الاقل ، واستره عن العيون .

– انك ستموت قريبـاً . أفـلا تستطيـع الاهتمام بشيء اهم من الله ؟ قلتَ لي منذ قليل انك كنت رجلاً سليم الصحة . والرجل السليم الصحة لا يهتم بالله .

– ولكنك تزعم انك ملحد وتفكر دائماً بالله .

– ان ما تقوله سخيف مضحك . كنت انتظر منذ زمن بعيد هـذه الافكار المبتذلة التي تنبـع من الحالات النفسية الرخيصة .

فاجاب السيد دنديو بصوت استعاد لطفه وعذوبته ، وقـد لمعت في عينيه بوارق الصداقة :

– كم تحب ان تشتمني !

– اجل ، احب ان اكون غليظاً في تصرفي حيالك ، لأنك تقول

اشياء تغيظني في اغلب الاحيان . فانت على عتبة الموت تحاول ان تتباهى بنظرتك الى الحياة في لحظات معدودة ، كتلميذ يسارع الى القاء نظرة عجلى على برنامج البكالوريا قبل الامتحان بثلاثة ايام . ولكن لا تقلق . اذا كنتُ احب ان اشتمك ، فهذا لا يؤثر في شعوري نحوك .

-- لست قلقاً . انك لا تقلقني مطلقاً . أيدهشك قولي ؟ اخبرني بصراحة لماذا تحتقرني ؟

-- لي ملء الحق في ذلك ، ما دمت احتقر نفسي . ولي ملء الحق في ان أقتل ، اذا كان لا يهمني ان أقتَل .

قال هذا مفكراً بحالة اضطراره ، يوماً ما ، الى قتل سولانج . فاجابه السيد دنديو :

-- لا تحتقر الطبيعة البشرية الى هذا الحد ، فانت تعلم ان فيها فضائل جديرة بالاعجاب .

-- اني احتقرها بما فيها من فضائل .

-- لِمَ تبتسم ؟

-- لاني ارى نفسي في المرآة .

وبالفعل ، كان كوستال في تلك اللحظة قد رأى صورته في المرآة فسُرّ بها .

قال السيد دنديو وهو يبتسم بدوره :

-- هذا امتحان البكالوريا بالنسبة اليّ . أتراني انجح ام ارسب في امتحان الجنة ؟ مهما يكن من الامر ، فانا الآن على ابواب الابدية . واعتقد انك لو كنت مؤمناً لساورك الحذر من ابدية ليست مفصّلة على قياسك ... ومصنوعة خصيصاً لك .

وكان يتكلم عابثاً بالقوارير ، والانابيب ، والحبوب ، ينقلها من مكان الى آخر ، فسقطت قارورة من يده ، بينما كان يقول :

- اني احذر الابدية بحد ذاتها . فلو كان الله موجوداً ، لكان حتماً

ذكياً ، ولو كان ذكياً لما اوجد الحالات النهائية .

ــ هذا برهان جديد عن عدم وجود الله .

ــ كنت اعتقد ان « براهين » وجود الله هي منتهى البلاهة البشرية ، لكني ارى الآن ان براهين عدم وجود الله تستطيع الذهاب في بلاهتها الى مدى ابعد .

ــ لا بأس ، ولكني احب برهانك .

ــ وانا افضل كأساً من البورتو الصرف .

قال هذا على أمل ان يقدم له كوستـــال كأساً . وكان العرق يسيل من جسده ، ويبلل قميصه ، ويتجمع قطرات كبيرة على وجهه ، كأنه خارج من نهر . فالحيـــاة كانت تخرج من جسده وقحة" بشكل هذه القطرات من الماء .

واستأنف العجوز حديثه قائلاً :

ــ أصحيح مـــا قلتـــه ، يا سيـــد كوستال ؟ أصحيح ان ما قلت لم يكن إلا اسلوباً في اطالة الحديث ؟

ــ اقسم لك بذلك . ولو شئت ان اشرح لك كل شيء لطال بنا الامر ...

وكاد يقول له : « ستموت بعد ثلاثة اسابيع ، فما الفائدة من التعب لشرح بعض الامور لك ؟ وما الذي يهمني من هذه المسألة ؟ اني لا اهتم إلا بشهواتي » . ولكنه لم يقل شيئاً من هذا ، بل اشاح عنه كما كانت الآلهة اليونانية تشيح عن الجثث . إلا انه كان يشعر برغبة خفيفة تدفعه الى ان يحب في السيد دنديو الناحية اليائسة ، الناحيـــة التي فقدت آخر رجـــاء بالحياة .

وامسك السيد دنديو يد كوستال باصابعه المتشنجة ، ثم قال له :

ــ قل لي انك لا تؤمن بشيء !

ــ لا اؤمن بشيء ! وانا سعيد لاني لا اؤمن بشيء .

– هذه سعادة الانسان الذي لا يعرف الله ! شكراً لك .

قالها السيد دنديو وهو يحدق الى عيني كوستال بنظرات فيها كل معاني الامتنان وعرفان الجميل ، ثم استطرد قائلاً :

– هذه السنونوات ! لماذا جاءت في تموز ؟ انها تتجمع في ايلول قبل ان ترحل . ولكن كل شيء مختل ... ألا ترى هذا الاختلال ؟

وأصرّ قائلاً :

– ألا تلبق رأيي ؟ ليس للطبيعة ناموس بديرها . وهذه الفكرة تسبغ عليّ فيضاً من الراحة !

وصمت ، فاذا بوجهه يعود الى التعبير عن القلق والاضطراب ، بعد ان كان قد صفا فترة وران عليه الهدوء ! ثم ما لبث ان اكفهرّ واكتسى لوناً ازرق ضارباً الى السواد ، وقد تجلل بالعرق . فقال له كوستال بصوت خافت :

– ماذا ارى ؟ هل بدأت تموت ؟

– لا ، ارجوك ان ترنّ بالجرس ... وبسرعة ! يجب ان اذهب الى المرحاض حالاً ... ان حاجة ملحّة من هذا النوع تنتابني من حين الى آخر ... كل شيء فيّ ينحلّ ويرتخي ... اخرج من هنا ، اتوسّل اليك ان تخرج . ألتمس منك الصفح ! ولا تلس الرسائل ...

فرنّ كوستال بالجرس ، وخرج ، ودعا الممرض ، ثم تسلل الى الخارج مسرعاً يقول في نفسه وهو مرهق الاعصاب أكثر من العجوز المحتضر : « متى يموت ، فيخف هذا العذاب الذي يسببه لي ، واجد لنفسي عذراً بان أوان مساعدته قد فات ؟ »

وفي الشارع ، انطرح بعياء على احد البنوك ، وجعل يهوّي وجهه بقبعته . ثم أشعل سيكارة وقال : « لم يقدم لي دنديو سيكارة بحجة انه يموت » . وكانت السنونوات فوقه تملأ الجو زقزقة .

فكّ كدسة من الرسائل ، وقرأ العشر الأوّل منها ، وألقى نظرة

سريعة على الثلاثين التالية ، وكان عددها كلهـا اكـثر من مائـة ، وهي بجملتها نموذج من أقدس ما في العـالم من العلاقات الواثقة الحنون بين ام وولدها ؛ نموذج من الحب ، من اصفى واصدق مـا في الحب . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الرسائل مثال التفاهة والبلاهة ؛ كانت لا شيء ، على الاطلاق .

وكانت هناك فوهـة مفتوحة مـن فوهات المجـارير ، فلفّ كوستال كدسة الرسائـل والقى في المجرور بجميع مراحـل الحب التي توالت بين السيدة دنديو وولدها .

وبعد ثمانية ايام ، في ١٥ تموز ، كان كوستال في تولوز ، فتلقى برقية من سولانج تنبئه بوفاة ابيها .

أتراه مات موتاً طبيعياً ، ام تناول حبوب الفيرونال ؟ لا ريب في انه مات موتاً طبيعياً . ولكن هذه المسألة قليلة الاهمية . فقد مات ، وانتهى الامر .

ومشى كوستال طويلاً في الشوارع ، على غير هدىً ، وبرقية سولانج في يده ، وهو يحس بارتخـاء عام في جسمه ، وبعجزه عن القيـام باقل رد فعل لو مرّ بـه احدهم ودفعه بكتفـه او بيده . واغرورقت عيناه بالدموع ، فقال في نفسه : « ليس بين الناس من يراني الآن ولا يعتقد جازماً اني ابكي لأن امرأة خانتني ! »

واستأنف حديثه مع السيد دنديو ، فقال له : « اني ابكيك ، انت الذي لم يبك احداً قط ، لما فيك من الانانية التي لمستها بيدي ... انت الذي كان يحاول ان يزيّن لي المستقبل ، وهو يعلم انـه لا يجوز له ان يعرف هذا المستقبل » .

وذهب الى المطعم ، فـلم يستطـع ان يأكل . وكان وجهه متجهماً كئيباً ، وقد عجز عن اخفاء حزنه وألمه ، فقال في نفسه : « سيظن الناس اني اعاني ازمة مالية » . ولكنه هنأ نفسه لوجوده في تولوز يوم

الدفن ، لأنه يأبى الاشتراك في هذه المهزلة من التصنع مهما كلفه الأمر .

ولما عاد الى الفندق ، اراد ان يكتب الى سولانج وامها ، لكن يده كتبت على الغلاف ، دون ان ينتبه : « السيد ... » ، فتناول غلافاً آخر ، وكتب عليه : « السيد شارل دنديو » والعنوان كاملاً ، وجعله امامه ، وهو يقول في نفسه انه لن يتسنى له ، بعد اليوم ، ان يكتب هذا العنوان ... فاغرورقت عيناه بالدموع من جديد ، فقال في نفسه : « لماذا نبكي رجلاً بعد موته ؟ كان الاجدر بنا ان نبكيه في حياته ، وان نبكي حياته . من الافضل للمرء ان يكون ميتاً من ان يعيش وهو ميت » .

وتذكر الدموع التي ذرفها منذ بضع سنوات على كاتب كبير ، وكيف كانت تهدأ حيناً ، ثم تفور طوال ساعات متوالية ، كأنها تتجمع في ينبوعها لتتدفق بغزارة ، حتى قالت له امه بشيء من الاستياء والتعب : « لم تبكِ اباك هكذا عندما وافاه الاجل ! » وفي هذه الفترة ، تذوّق كوستال نكهة العبارة التالية التي خطرت في باله : « لن يكون لي اصدقاء لاني اعاني آلاماً مبرحة عندما افقدهم » . وكانت هذه العبارة من التي تقولها السيدات الهرمات عندما يموت كلبهن العزيز المدلّل .

ولكن كوستال راح يسائل نفسه هل كان السيد دنديو صديقه . ثم قرر ان يرسل برقية واحدة الى سولانج وأمها ، لانه لم يكن كبير الاهتمام بهما .

ولما استلقى على سريره تعذّر عليه النوم ، فجعل يحرّك ساقه فوق الغطاء حركة مستمرة ، كأنها [illegible] وهي تموت منطرحة على الارض . ونشأ في نفسه شعور بوحدة الحال في الألم بينه وبين الخيل التي تموت ، وامتدت منه سلسلة طويلة ، فاتصلت بالخيول التي تموت .

واخيراً تذكر جملة استرعت انتباهه في احدى رسائل ابنه الذي كتب اليه على اثر وفاة احد رفقائه بالتهاب السحايا ، قال : « اني حزين للغاية ، لكن يجب ان اعلّل نفسي باني سأتعزى » . وعلّل كوستال نفسه بانه

هو ايضاً سيتعزى ، فقال في سرّه : « ان الطبيعة جرحتني . والطبيعـة ستشفيني من جرحي بالنسيان . وسيأتي يوم تصبح فيه وفاة السيد دنديو في نظري عديمة الاهمية ، كما تصبح ذكرياتي عن ابنته من الامور التي لا ابالي بها . وبما ان السبب الذي يبكيني اليوم هو الذي يجعلني لا ابكي غداً ، فان بكائي اليوم لا يعدو كونه ضرباً من اللعب » .

واستيقظ كوستال في الساعة الرابعة صباحاً ، فخاطب نفسه قائلاً : « ان فتاة تعيش وحيدة مع امها لا شك بانهـا ستسقط حتماً ، والصبي كذلك ، لقلة تأثير الام على ابنائهـا ، اللهم إلّا اذا كان تأثيراً شريراً . ولكن سولانج سقطت وانتهى امرهـا . ومات السيد دنـديو للاشيء ، فيا للحماقة !

قال هذا وغرق في النوم من جديد .



من

سولانج بنديتو
باريس

الى

بيار كوستال
شباك البريد
لولو

١٨ تموز ١٩٢٧

لمَ هذا السكوت؟ لم نتلق منـك إلا برقية موجهـة الى امي . ألم تعدني لدى سفرك بان تكتب اليّ بعد ثلاثة ايام ؟ ألا تشعر باني معلّقة بالبريد اليومي ساعة بعد ساعة ؟

ان هذه الحياة التي لا تطـاق مستمرة منـذ خمسة ايام ، فاستحلفك ان تضع حداً لهذه الحالة . واتوسّل اليك ان تمد اليّ يد المساعدة . لقد فرغ صبري .

وإلا فتكون قد سافرت نهائياً ، وتريد ان تهجرني . واذا كان الامر كذلك فصارحني بالحقيقة ، فهذا افضل من ان لا اعرف .

اقبلك .   لك

روز بورغ

ملاحظة : وضعت لك في هـذه الرسالة غلافـاً عليه عنواني وطابع بريد ، فاذا كانت الكتابة اليّ تزعجك ، فما عليك إلا ان تكتب اسمك على الورقة دون ان تزيد كلمة ، فافهم انك لم تهجرني .

دفن ابي المسكين هـذا الصباح . ما افظع الفراغ الذي خلفه لنا !
ساكتب اليك ثانيـة لاخبرك كيف مـات . اني وامي مسروروتان لأنـه
رضي بان يستقبل كاهناً قبيل وفاته .



من مفكرة سكوستال

ها هي روز بورغ الباردة !

حملتُ رسالتها بيدي ورحت اسير بين الناس مطرقاً ، اعض شفتي من شدة التأثر .

ها هي بدورها ترسل صيحات كأنها حيوان ، ترسل صيحات كهرٍّ سجين في سرب . لقد جنّت بدورها . جنّت اندريه بعد اربع سنوات . وجنت ج . ر . بعد سنة . و اوندشتاين بعد ست سنوات . وكلير بعد سنة . أما هي فقد اصبحت مجنونة بعد شهرين . ما افظع ان تكون الفتاة هادئة !

ما كاد يأس اندريه يهدأ حتى هبّ عليّ هذا اليأس الجديد . اني اسمع دائماً عويل النساء ، فهذه الضجة من البكاء ترافقني طيلة حياتي .

ان تنفيط رسالتها مؤسف للغاية .

كالمتدرب على السحر ، اطلقت هذا الحب البكر ، هذه القوة الطائشة التي لا أسيطر عليها . في الاوبرا الهزلية [1] ، كانت ورائي . ثم تقدمت ، مشت بسرعة اكثر مني حتى وصلت اليّ ، وها هي الآن قد سبقتني . ويخيّل اليّ انها ستمضي عندما أصل .

أتكون هذه الرسالة على شيء من المبالغة ؟ أراها كرسائل الغرام

---

[1] ـ اشارة الى ان علاقته بها شبيهة بتمثيلية هزلية .

التي كنت اكتبها وانا في السادسة عشرة من العمر ، فاخطها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، واؤرخها الساعة الثانية بعد نصف الليل ؟ ان هذه الفورة المفاجئة مذهلة للغاية . فلو كانت سولانج اوضح تعبيراً عن شعورها في احاديثنا الماضية لما خامرني بصدقها هذا الشك . ومن المؤسف ان تدفع هذه الصغيرة المسكينة الآن ثمن تكتمها وتحفظها . وقد يكون هذا منتهى الجور . ولكن ما حيلتي ؟

اني اقبل حبها .

اقبل الدخول الى دنيا الواجبات .

وهي واجبات عذبة ، لاني احب سولانج . إلا انها واجبات على كل حال . ولم اكن قط من الناجحين في القيام بالواجب .

والخلاصة ، اني اقبل بهذا الحب ، بكل احترام ، وبكل وقار وجدّ ، بوقاري المتقطع ، ولكنه الناشط دائماً اذا دعت الحاجة ، حتى في اللحظة الاخيرة ، وبـ ... لا تحضرني الكلمة اللازمة ؛ اود لو اشير الى ان حبها لا يزعجني ، والى اني اتلقاه باكثر من القبول : اني استقبله مرحباً به .

والآن ، فلننظر الى شيء آخر ، الى لامبالاتها حيال وفاة ابيها ! ما اقسى هذه الملاحظة في نهاية رسالتها . كل ما فيها من الرقة موجه اليّ وحدي . اني اخجل بها ، اخجل بها عن نفسي وعن سولانج . ومع ذلك ، فهي فتاة رائعة . ولا ريب في ان اباها لم يكن من النوع الذي يحبه ابناؤه . هذه هي الطبيعة . وغداً ، سيكون برونيه بكل لطفه وظرفه [1] ... ولكن اعتياد الطبيعة لا يتم بلا ألم . يريد الناس ان لا نستشيط غيظاً إلا حيال الامور الاستثنائية ، مع ان الامور العادية

---

[1] – توقف المؤلف ولم يفصح عن رأيه في ابنه ، إلا ان توقفه واضح الدلالة على التخوف من ان يصبح برونيه بالنسبة اليه كسولانج بالنسبة الى ابيها .

هي الخيفة .

كلما كنت ازور ارملة او يتيماً مات فقيدهما منذ قليل ، ولم يكن من الذين ابالي بهم ، كنت احس بانني اشد تأثراً – بصدق واخلاص – مما كان يجب ان أتأثر ؛ كنت ابـدو كأنني القي عليهما درساً . وكانا دائماً البادئين بمواصلة الحديث وتغيير الموضوع .



من

بيار كوستال

لولور

الى

سولانج دنديو

باريس

٢٠ تموز ١٩٢٧

هدوءاً ، يا ابنتي . هدوءاً ، هدوءاً ، هدوءاً بلا نهاية للفتيات الصغيرات . ما هذا الهذيان ؟ ان الخرشوف يحافظ دائماً على رباطة جأشه .

طلبت اليّ الأمان ، فها انا اعطيكه . فهدوءاً يا ابنتي الصغيرة الحبيبة . هدوءاً في الحاضر . هدوءاً في المستقبل ، الى ابعد ما يطيب لك ان اكون في هذا المستقبل . هدوءاً كلياً ومطلقاً . المرحَ المرح ، وطلاقة الفكر في الثقة والهدوء .

ضممتك الى قلبي ، في ذروة عزلتي ، وكنتِ هناك وحيدة ، مع انك كنت محاطة بي . وفي وسعك ان تبقي ها هنا ما طاب لك البقاء ، فلن اتركك . احبك ، والشيء الأندر من حبي اني احب تعلقك بي . لن اتخلى عنك ، ما لم تتخلي انت عني .

سمعت انه يجب ان توضع كل امرأة في مثل حالك على محك التجربة . ولكني لن اجرّب مَنْ احب .

وسمعت ان الرجل يخسر المرأة اذا احبها اكثر من اللزوم ، وان

التظاهر بالبرودة ، من حين الى آخر ، اكثر فائدة ، الى آخره . ولكني لن ألعب هـذه اللعبة معك . لن ألعب معك مطلقـاً . لست من الذين يعتبرون الحب حرباً . اني امقت هذا المفهوم بشدة . ليكن الحب حبـاً حقيقياً ، اعني ليكن هدوءاً او فليزُل .

لِمَ هذا الخوف من سكوتي ؟ ما الذي يستطيع وجودي ان يقدمه لك اكثر من هذا السكوت ؟ انت ها هنا ، يا حمقاء ، ألا تعلمين ذلك ؟ في النهار تنسابين الى جانبي بلطف كظلٍّ صغير . وكل مساء ارقـد وانت معي بين ذراعي .

وجسدي ايضاً يفكر بك . يستيقظ ليلاً ويهفو اليك ، كما يمد الكلب رأسه طالباً ان يشرب .

اردتُ ان اتابع تسلسل الاشياء الـتي تشغل بالك كما هي واردة في رسالتك ، فحدثتك اولاً عنك وعـني ، وهـا انا اقول الآن كلمة في ابيك .

أكنتِ تحبين اباك ؟ لا ادري . امـا انا فقد رأيته مرتين فاحببته . أكنت تحترمين اباك ؟ لا ادري . امـا انا فقد رأيته مرتين فاحترمته . احسست بانه شخصية تفوقك قدراً .

انك لا تفكرين إلا بي ، مع انك لا تعرفينني إلا معرفة زهيدة . فالطريقة اللامبالية التي تحدثتِ بها ، في رسالتك ، عن وفاة ابيك ، اثارت حنقي ، على الرغم من اني ادرك سببها . اجل ، اني ادرك سببها بكل تأكيد ، ومع ذلك فقد اثارت حنقي . انك « مغرمة » ، وهذه حقيقة لا جدال فيها . ولكن الحب ليس عذراً لك ، بل يزيـد خطأك فداحة ، تمامـاً كحالة السكر التي يعتبرهـا القضاء المريض سبباً مخففـاً ، وهي من اهم اسباب الادانة .

هل قدّر لي ان أفهمك ما كان يتحلّى به ابوك من المزايا ؟

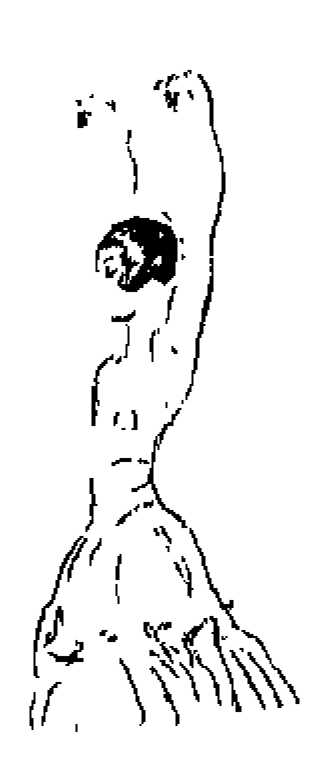
اريد ان تكوني ما يجب عليك ان تكوني . ولا يجوز ان تكوني

تماماً تلك التي كتبت رسالتها الاخيرة اليّ .

دعينا من هذا . اني اقبلك ، يا ابلتي الصغيرة . قد يحبك رجال آخرون اكثر مما احبك . اما انا فاحبك بقدر ما استطيع ان احبك . ليس في وسعي ان احبك اكثر .

ك

ملاحظة : ان تنقيط رسالتك مؤسف ، ولا عذر لك فيه .



من

بيار كوستال

نو اول

الى

الآنسة راحيـل فيلي

باريس

٢٠ تموز ١٩٢٧

عزيزتي غينيت !

انقضى شهران دون ان نلتقي ، ودون ان اكتب اليك !

عندما التقيت الملاك الذي تعرفين ، ساورتني رغبة في التخلي عنك ، فالمسمار الذي يحل في الثقب يطرد منه مسماراً آخر . لمت يميناً ويساراً نتف حبي التي كنت قد نثرتها في كل مكان ، لأضعها كلها في الملاك ، ولاجعل من هذا الملاك شيئاً قوياً ، كما تجمع المدسة خيوط النور . لقد دهمتني هذه المغامرة ، فامتلأت بها . لكن مجرد الظن باحتمال اكتفائي بهذا الملاك هو جهل للطبيعة برمتها ، لا لطبيعتي وحسب . فالطبيعة تقوم بوظائف عديدة ومختلفة ، والرجل الموهوب يحذو حذوها ، ففيه ، كما في الطبيعة ، امكنة لكل شيء . فالملاك هو ما هو ، وانت شيء آخر ، وهذا وحده يكفي ليثير رغبتي في اتخاذك انت ايضـا . اني انتظر اذاً من جميـل معروفك ان تفرحي باستعادة مركزك بين مسرّاتي .

تتذكرين ، طبعاً ، اني كنت اتوقع هذه العودة ، ولكني كنت اظن انها ستتم بعد ان اكون سئمت الملاك . ولكن العكس هو الذي حدث ،

فلم يخامرني قط ، في ما مضى ، ما يخامرني الآن من الشعور بالحب الجدي ، العميق ، المتين للملاك ، فعطفي عليه يقوم على ركنين وطيدي الدعائم ، هما : الاحترام والشهوة . وفي هذا التيار الجارف الذي يدفعني اليه ، هذه الايام ، خصوصاً بعد ان تلقيت منه رسالة امس ، رجعت الى عبقريتي الخاصة في الحياة ، واعتصمت بالمبدإ الأعلى الذي يوجب عليّ ألّا تكون في حياتي امرأة واحدة .

وفضلاً عن ذلك ، فاني احب الذكاء . ولهذا السبب ، مهما تكن مجموعة عشيقاتي كاملةً ، يجب ان تكون لي فيها خليلة يهودية ، فهي تساعدني على احتمال الاخريات .

سأكون في باريس في ٢٥ تموز . فتعالي الثلاثاء ، في ٢٦ ، يوم عيد القديس برنابا ، الساعة الثامنة مساءً ، الى بور رويال ، فنتعشى معاً ، ثم ترين ما سترين .

الى اللقاء ، يا عزيزتي . ادغدغ راحة يدك ، واقبلك ، لان شهوتي رقيقة ، كما تعلمين . وانت ايضاً امرأة طيبة ، ولهذا السبب كان عطفي عليك صادقاً وحقيقياً . ولكن استعدّي منذ الآن لتجعليني سعيداً . عندما افكر بك تلتابني رعشة من السرور الدسم ، شبيهة بحميّة المتصوفين ، او بنهاية اللهيب .

واخيراً ، فبعد مرحلة طويلة من السمّو غدوتُ أتوق الى حب غير مجرّد من الغاية النفعية ، وحبك من هذا الطراز .

ك

من

بيار كوستال

تولوز

الى

الآنسة دي بيرون دي لابشان (1)

كان

« ومنهـا الى برونيه »

٢٠ تموز ١٩٢٧

يا هرّي الصغير !

لا اريـد ان أناور في الشؤون المتعلقة بك على غير علم منك ؛ بل اكثر من ذلك : اني عاجز عن القيام بمناورة من هذا النوع . فاعلم اني كتبت الى الآنسة دي بيرون ، منذ خمسة ايام ، لاسألها هـل أتيت عملاً قبيحاً جداً ، ورجوت منهـا ان تقول لي الحقيقة ، فاجابتني بان لا شيء جديد في مجرى حماقاتك المألوفة .

واليك بسبب كتابتي اليها :

لا يمر بي يوم دون ان افكر بك طويلاً ، والفترة التي افكر خلالها بك هي افضل فترات يومي ، مهما تكن الفترات الاخرى حافلة بالهناء . ولكني هـذه المرة رأيتك في الحلم . حلمت بانك رأيت خزانـة الآنسة دي بيرون غير مقفلة ، فاغتنمت هذه الفرصة ورحت تبحث فيها وتأخذ

١ ـ آنسة عجوز ، صديقة كوستال ، عهد اليها بالسهر على ولده . راجع الحلقة الاولى من هذه السلسلة : «الصبايا» . ـ المؤلف .

منها بعض النقود . وقد كان هذا الحلم مدهشاً ، ومعقولاً ، ومنسجماً من اوله الى آخره ، حتى اني ساءلت نفسي أيكون بمثابة انذار لي ، فكتبت فوراً الى الآنسة دي بيرون اسألها عن جلية الخبر .

احدث هذا الحلم تأثيراً عميقاً في نفسي ، فاقلقني وشوّش افكاري ، فادركت بقوة لم اعهدها من قبل كم تكون الصدمة قاسية ، والخيبة مرة ، اذا غدوتُ لا استطيع احترامك .

ثمة اشخاص عديدون اعطف عليهم . ولكن هذا العطف ، وإنْ يكن حقيقياً ، يصل الى حد معين ولا يتجاوزه ، كسيارة نعلم ان في جوفها كمية محدودة من الوقود . اما عطفي عليك ، فبخلاف ما ذكرت ، لا يصطدم بشيء ، ولا يقف مطلقاً عند حد معيّن . انه من نوع آخر بالغ القوة والسمو .

فالعطف الذي اكنّه لبعض الاشخاص يحتمل التخلّي عنهم ، ولا يتأذّى اذا ضايقتهم ، وحتى اذا جرحتهم ، فاستطيع ان ارامم في الضنك دون ان اتألم ، ودون ان احمل شيئاً لانقاذهم . اما عطفي عليك فلا يحتمل شيئاً من هذا . لم يخطر لي مرةً في حياتي ان احاول ازعاجك ، او ان اردد في حمايتك مما يزعجك اذا كنتُ قادراً على هذه الحماية ، او ان ادعك تنتظر السرور الذي استطيع ان اعطيكه فوراً . فعطفي عليك من نوع آخر بالغ القوة والسمو .

عندما اخرج من الجو الذي يخلقه حولي اولئك الاشخاص وادخل في جوّك ، يبدو لي كل شيء بسيطاً كما تبدو لي أنت . ذلك اني أحبك ، أنت ، حباً حقيقياً ، ولا شيء أبسط من الحب ، كما ان لا شيء يبسّط الامور والاشياء كالحب .

ولكن العطف الذي اكنّه لك ليس معصوماً من الاختلال . فعطفي على الاشخاص الآخرين مرهون بهم ، فقد يرتكبون خطأً يجعلهم غير جديرين به فانتزعه منهم ، وهو مرهون ايضاً باحوالي النفسية ، بطبعي ،

بسأمي ، بضرورات عملي وحريتي . اما عطفي عليك فرهون بمشيئتك وحدك . اعني اذا قدّر له ان يضعف ، فلن يكون ذلك إلا اذا غدوتَ انت غير جدير به .

هناك نوع من المعجزة : فمنذ خمس عشرة سنة ، او بالحري منذ ثماني سنوات ، اي منذ بلغتَ سن الفهم ، لم اجد فيك ما يحملني على توبيخك ، او الى لومك . لم تقم بعمل واحد يسيء اليّ . اني انظر الى هذا الواقع كما ينظر المرء الى الألعاب الخطرة التي يقوم بها بهلوان ، فاخاطب نفسي قائلاً : « المهم ان يستمر هكذا حتى النهاية ! » وها انا اقول لك الآن بكل ما أوتيت من القوة : تبدّل ، لان كل شيء في الطبيعة يتبدّل ، ولأن من كان في مثل سنك يستطيع التبدل في خمسة عشر يوماً ؛ تبدّل ، ولكن في جوهرك ابقَ كما انت . لتكن في سديمك نواة متينة ثابتة لا تحول ولا تزول (اسأل الآنسة دي بيرون ان تشرح لك ما هو السديم ؛ كان في وسعي ان اشرحه لك ، ولكن الشرح يزعجني الى اقصى حد) .

انت تعلم ان هناك حقولاً واسعة من الحماقات اسمح لك بان ترتع فيها ، وهذا ما لا يسمح به أب لابنه ، لاعتقادي ان هذه الحماقات لا تؤثر في ما هو جوهري . فاحذر ان تمس الاشياء الجوهرية .

ان ما تهفو اليه نفسي بكل ما فيها من توق هو ان اصل الى حالة لا يخطر ببالي فيها انه من المحتمل ان يساورني قلق عليك ، في ما يتعلق بقيمتك ، فتكون لي الهدوء التام ، والأمان التام .

ان حالة كهذه يكون لي فيها شخص آخر غير نفسي الهدوء التام والأمان التام لهي حالة استثنائية خارقة لا استطيع ان اتصورها ، لانها تكاد تكون من غير هذه الارض . ولكن ، لتكن لي هذه الحالة ، منك انت ، ومنك وحدك ، ولا حاجة بي الى الآخرين .

انت المخلوق الوحيد الذي يجعلني استقرّ ، انا العاجز عن الاستقرار على احد . والحقيقة هي اني لا احب سواك ، لان الحب لا يعني إلا

هذا العطف الذي يمضي الى اللانهاية ، والذي يمكن ان يُطلب اليه ما لا نهاية له دون اقل ارتباك ، كأن تطلب الى البحر قطرة ماء .

اذا قُدّر لهذه العاطفة التي أكنّها لك ان تنهار ، أو ان تُثلم ، فان وجودي برمته يُثلم وينهار فاصبح حطماً .

عندما يحب المرء شخصاً لا يضطر الى مصارحته بحبه : لنترك هذا للاشياء الثانوية . وانت تعلم اني لا افاتحك مطلقاً بحبي . ولكن هذا الحلم ارعبني ، فشعرت بحاجتي الى ان اضع لـك بضع كلمات على الورق . فاحتفظ بهذه الورقة (وربما كنت اطلب اليـك الكثير) ولننتقل الى حكاية درّاجتك الهوائية [1] :

. . . .

---

١ ـ لا علاقة لبقية هذه الرسالة بسياق قصتنا . ـ المؤلف .

من

الآنسة مرسيل بريـــاه
شارع سلبان الحقول الصغيرة
باريس

الى

السيد جاك بيكار (١)
عند السيد بيار كوستال
شارع هنري مرتسان
باريس

٢٠ تموز ١٩٢٧

سباكو !

هـا انا وحيــدة في المقهى ، كما كنت يوم الاحــد الفائت ، لأنك هجرتني . اني انتظرك منذ ستة ايام . فما معنى سكوتك ، يا صغيري ؟ اذا كنت لا تريد ان تراني ، فلماذا دعوتني ؟ قـل لي ، أتراك هزئت بي ؟ لا اقبل بقطيعة من هذا النوع ، يا صديقي . يجب ان نلتقي ، أتفهم ما اقول ؟ تعال الثلاثاء ، الساعة العاشرة مساء .

أتدري متى ادركت للمرة الاولى انك شبعت مني وغدوت تريد هجري ؟ كان ذلك في الميترو ، ونحن عائدان من الحانة . اردت ان اقبلك ، فأشحت عني . قلت لك : « ألم تعد تحبني ؟ » فاجبت : « بلى ، ولكن لا تقبليني هكذا في الميترو ، فهذه قلة ادب » . قلت لك : « أيخجلك هذا التصرف ؟ » قلت لي : « أجل ، انه يخجلني » . وكان موقفك في منتهى الوضوح .

---

١ ـ خادم كوستال . المؤلف .

اتوسل اليك ان تكون شهماً في تصرفك معي . اني ضحية جنوني في سبيلك . كنت اشتهي ان احبك ، ان اوجهك قليلاً في هذه الحياة . فانت في العشرين من العمر ، وانا في الخامسة والعشرين ، ولكن تجاربي وخبرتي اوسع بكثير من هذا الفرق في السن بيننا .

آه ! رضيت بان أنعي لنفسي فكرة الزواج بك ، لانك لا تريده ، ولكن في وسعنا ان نبقى معاً ، او ان نلتقي يوم الاحد ، فهذا افضل من لا شيء . وها انت الآن لا تريد شيئاً . انت حر ا ولكنك ستندم يوماً على هجري . كان من الممكن ان يكون شبابك سعادتي كلها . لكنك لم تفهمني . وتراني أتألم اليوم اكثر مما تألمت في حياتي كلها . فقلبي يقطر دماً في عزلته ، وفي انتظاري الدائم ، وعجزي عن حملك على ان تفهمني .

اسمع يا جاك : تعال مرة اخيرة ، فادعك بعدها حراً ، تعمل ما يطيب لك .

اذا كنت لا تستطيع ان تأتي غداً ، فسأنتظرك طوال ايام الاسبوع حتى الاحد .

اطبع قبلة على عينيك اللتين احبهما .

مرسيل

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب)

تم كتاب «رأفة بالنساء» ويليه كتاب «شيطان الخير» .

منشورات عويدات ١٩٨٧/٨٥٤

Montherlant

Pitié pour les femmes

Texte traduit en arabe
par
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Henry de Montherlant
Pitié pour les femmes

